جمهورية العراق

ديوان الوقف السني

مركز البحوث والدراسات الإسلامية



سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصرة

(٥٨)

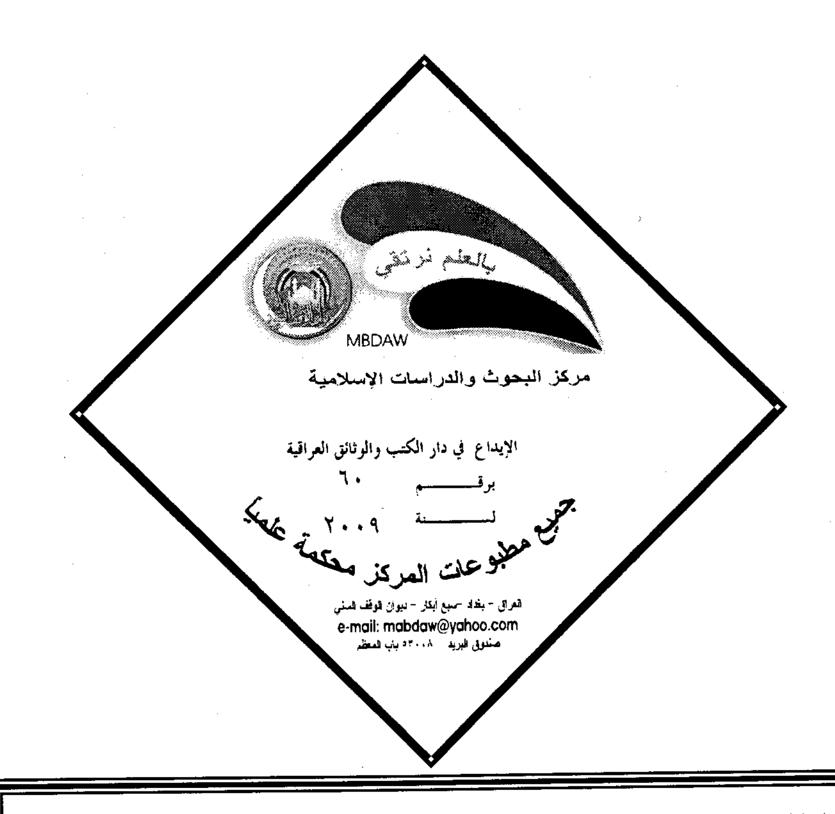
الهوِية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية

الدكتور

خليل نوري مسيهر العاني

١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م

الطبعة الاولى



٢١٤
ع ٢٨٤

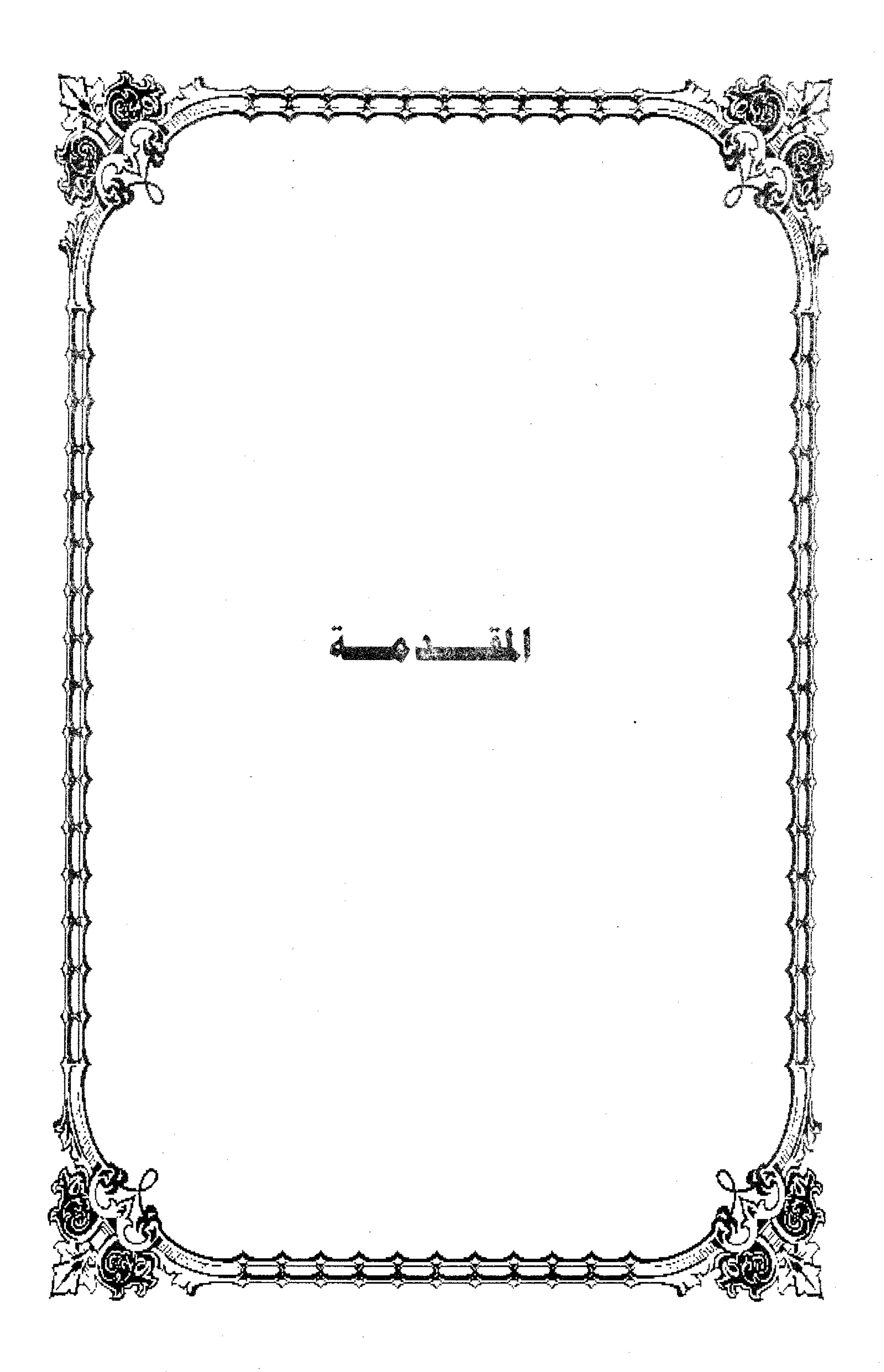
العاني، خليل نوري مسيهر.
العولمة الإسلامية في زمن العولمة الثقافية.
بغداد: ديوان الوقف السني، ٢٠٠٩م.
٢٨٣ص. ٢٥سم. (سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصـرة، ٥٨).
١ـ الاسلام ـ العولمة. أ ـ العنوان. ب ـ السلسلة.

الإهـــــداء

قد أكتب ألف ورقة... قد أتكلم ساعات طـوال... غير أني هنا في هذا المقـام بالـذات أجـد نفـسي... وعقلي... وقلبي... أجد لساني عاجزاً عن الكلام بـأي شيء... فمهما قلت من كلام فإنّه لا يصف مقامكم فـي قلبي ولا يعدل ما بذلتموه من أجلي. فأكتفي بالقول :

- إلى شهيد القضية والمبدأ.... أبي (رحمه الله).......
- إلى أمي......
- إلى إخوتي صهيب و(محمـد رحمـه الله) و أحمـد وصباح......
- إلى أخواتي......
- إلى زوجتي......
- وإلى إنسان قد ظلمته - رغماً عنـي - أرجـو أن يغفر لي......

إليكم جميعاً أهدي هذا العمل



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــــدمـــة[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كلما أمعنا النظر في محيطنا، وتأملنا أكثر في واقعنا المعاصر، نجد أن المشاكل التي تُفرض، والأسئلة التي تُطرح على عالمنا الإسلامي، تتزاحم عليه، وتتفاقم يوما بعد يوم. مما يتطلب الاستجابة السريعة، والتأثر المباشر بما هو مطروح، ووجوب تقديم الحلول والأجوبة لهذه المشاكل والأسئلة، بالسرعة التي يتطلبها عصرنا الذي نعيشه- الذي هو بحق عصر التغلب على المسافات- وبما يتناسب وينسجم مع قيمنا ومبادئنا وثوابتنا وهويتنا وخصوصياتنا، التي لا مجال للتغيير أو النقاش أو المساس بها، وأيضاً بما يتناسب وينسجم مع روح العصر ومتطلباته وإلا فاتنا الزمن وخلفَنا وراءه.

سبب اختيار البحث:

لقد تعرضت الأمة الإسلامية خلال تأريخها الطويل لسلسلة من التحديات الكبيرة والخطيرة، دخلت خلالها امتنا في مواجهات شتى، من أجل الحفاظ على هويتها وخصوصيتها الثقافية والحضارية.

وتأتي ظاهرة العولمة كحلقة أخرى من سلسلة حلقات التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية، تتميز عن سابقاتها من حيث الكم والنوع والقوة والقدرة

---

(١) اصل هذا الكتاب رسالة دكتوراه / كلية اصول الدين ــ الجامعة الإسلامية سنة ٢٠٠٥.

والخطورة والجدية في تحقيق الأهداف التي عجزت عنها غيرها من الأفكار والأساليب، أو التي لم تحققها بالشكل المطلوب.

فإذا كان الإنسان في العالم الإسلامي يعيش صراعاً مزدوجاً في المرحلة الراهنة، حيث صراعه مع ذاته للتعرف على هويته الحقيقية وتحقيقها وتأكيدها وترسيخها، وإعادة ربط حاضره ومستقبله بماضيه وثوابته وسعيه للتوفيق بينهما، ثم صراعه مع الآخر، وعلى كافة المستويات، ولأسباب شتى، فإن أبرز وأخطر صراع يعيشه المسلم اليوم هو صراع الهوية في زمن العولمة وحضارة الثورة المعلوماتية[1].

إنها مسألة تحيلنا إلى التعرف على دقة المرحلة الراهنة التي تسير بنا، راغبين أم مكرهين، إلى عصر جديد، مليئ بالتحديات، مما يجدر بنا أن نعيد النظر في مجموعة الأفكار والنظريات والمواقف والأطروحات التي نحن نتبناها في فكرنا وخطابنا الإسلامي الداخلي والخارجي على السواء، طيلة الفترة الماضية. وذلك لأسباب عدة لعل أهمها، أننا الأمة التي تستهدفها مخططات الآخرين في الاختراق الحضاري والفكري والثقافي بأساليبه المتعددة المتطورة المخيفة حقاً.

(١) ينظر: هويتنا الثقافية في خضم تحولات العولمة...من الاختراق إلى الممانعة- عبد العزيز إنميرات- مجلة الكلمة (قبرص)- العدد (٢١)- السنة (٥)- خريف ١٩٩٨ م من على موقع المجلة على شبكة المعلومات العالمية (الانترنت): WWW.Kalema.net

أهمية البحث:

لقد فتحت العولمة قضايا الهوية على نطاق عالمي واسع، وأخذ الحديث يقترن بصورة متلازمة تقريباً بين الهوية والعولمة، والاصطدام والتعارض بينهما.

ولعله من المرات القليلة خلال القرن العشرين الميلادي- المنصرم- الذي ينفتح فيه أوسع حديث واهتمام في العالم حول قضايا الهوية، وما يتهددها من مخاطر الإلغاء والإقصاء أو الذوبان والانصهار، بل وحتى الافتراض الثالث وهو الانبعاث والاستنهاض، وبهوس لم يجري سابقاً كما يجري الآن في ظل العولمة[1].

إن مما لاشك فيه الآن هو أن الهوية والثقافة بخصوصياتهما ومقوماتهما، هما المستهدف الأول في هذا الصراع والتدافع الحضاري القائم، وإن الوظيفة التي تقوم بها العولمة الآن هي محو الهويات والثقافات للأمم والشعوب ومسخها، أو على الأقل تهميشها لصالح هوية واحدة وثقافة واحدة، هي هوية وثقافة العولمة (الأمركة).

فالهويات الحضارية والخصوصيات الثقافية للشعوب والأمم هي التي تجعل من كل واحدة منها شعباً متفرداً بقيم ومبادئ يؤمن بها ويعتز بها، ويقيم عليها حياته، وأمة متفردة بمقومات يقوم عليها كيانها، وتؤمن بها سيادتها واستقلالها.

---

(١) ينظر: الفكر الإسلامي وقضايا العولمة- زكي الميلاد- مجلة الكلمة- العدد (٢٠)- السنة (٥)- صيف ١٩٩٨ م- من على موقع المجلة على الشبكة: WWW.kalema. net

المشكلة التي يعالجها البحث:

يكاد يكون كل فصل في هذا البحث- إن لم يكن كل مبحث- يطرح قضية أو مشكلة للنقاش، يسعى الباحث من خلالها إلى الخروج بنتيجة أو حل أو رؤية واضحة لها، تنسجم وتتفاعل مع موضوع هذا البحث.

ولكني أستطيع القول أن المشكلة الأساسية التي تنتهي إليها وتصب فيها قضايا ومشاكل البحث جميعاً، وأيضاً التي يهدف البحث بمجموعه أن يعالجها ويصل إلى حل ورؤية واضحة لها، تتمثل في أنه بالنظر إلى اختلاف طبيعة الثقافتين الإسلامية والغربية، فان الكثير من المسلمين يقف حيراناً لا يدري ماذا يعمل. انه يريد التمسك بهويته من جهة، كما يريد الاندماج في الحضارة القائمة المعاصرة من جهة أخرى، فيحتار كيف يعمل؟

ويأتي هذا البحث كمحاولة للوصول إلى حل لهذه المشكلة.

منهجية البحث:

لقد كان المنهج العلمي الذي سرت عليه في هذا البحث هو المنهج الوصفي التحليلي، حيث عمدت في البداية إلى بلورة رؤية واضحة حول موضوعي الهوية والعولمة- كل واحدة منهما على حده- من خلال جمع الحقائق والأدلة للمادة، ومن ثم تحليلها وربطها بالمتغيرات والأحداث والوقائع، سعياً إلى الوصول إلى حقيقتها.

أهم الصعوبات التي واجهت الباحث:

لم يعاني الباحث من صعوبات سوى كون بلده وشعبه يعيشان تحت وطأة الاحتلال وتداعياته، مما أثر سلباً على نفسية الباحث ومعنوياته واندفاعه نحو مستقبله.

أهم المصادر:

نظراً لحداثة الموضوع، حيث لا يخفى على أي باحث يعيش في العراق شحة المصادر الحديثة، بسبب مأساة الحصار الاقتصادي- سابقاً- ومن ثم آثار وتداعيات الحرب العالمية- الأنكلو سكسونية- على العراق، وما تبعها من أحداث السرقة والنهب والسلب والحرق لمؤسسات الدولة، ومنها المكتبات الحكومية المركزية والعامة ومكتبات الجامعات، مما أضطر الباحث إلى الاعتماد- بصورة رئيسية- على الكتب والبحوث والدراسات والمقالات المستلة من شبكة المعلومات العالمية- الانترنت-.

وبناءاً على ما سبق، فقد قُسم البحث على خمسة فصول مع المقدمة والخاتمة ونتائج البحث، خصص الفصل الأول للحديث عن الهوية بصورة عامة، والهوية الإسلامية بصورة خاصة، من خلال استعراض تأريخ الاهتمام بموضوع الهوية التي ينبغي على الأمة العربية والإسلامية أن تسير عليها في مشروعها النهضوي الإصلاحي الحضاري. ومن ثم محاولة الوصول إلى تعريف واضح للهوية والهوية الإسلامية، وأيضاً البحث عن مرتبة وأهمية موضوع الهوية في الشريعة الإسلامية، وبيان بعض النماذج من التأريخ الإسلامي على التمسك والاعتزاز بالهوية الإسلامية.

أما الفصل الثاني فقد خصص للعولمة باستعراض تاريخها وحقيقتها وأسباب ظهورها وبروزها في الفترة الأخيرة، وبيان مفهومها ومفهوم العولمة الثقافية.

فيما خصص الفصل الثالث للحديث عن طبيعة العلاقة بين الهوية الإسلامية والعولمة الثقافية، من ناحية التركيز على عالمية الهوية الإسلامية،

والفرق الشاسع بينها وبين العولمة الثقافية، التي تستهدف صب الثقافات والهويات في ثقافة وهوية واحدة. وأيضاً بيان مدى قدرة العولمة الثقافية على التأثير في الهوية الإسلامية، ومن ثم التدليل على حتمية المواجهة بين العولمة الثقافية والهوية الإسلامية.

أما الفصل الرابع فقد خصص الحديث فيه عن دور مؤسسات الدولة المسلمة، وعن دور الخطاب الإسلامي المعاصر، ودور الشعوب المسلمة في هذا الوقت، في حفظ الهوية الإسلامية وضرورة التمسك بها والاعتزاز بها من أجل مواجهة العولمة الثقافية والتصدي لها.

أما الفصل الخامس والأخير، فقد خصص لبيان مدى حاجة الإنسانية للرؤية الحضارية للدين الإسلامي، وأن فيها الحل للمشاكل التي تعاني منها الحضارة العالمية المعاصرة، وان صفة العالمية التي تحملها الهوية الإسلامية، تجعل من السهولة على الأمم والحضارات الأخرى أن تنسجم مع هذه الرؤية الحضارية وأن تستفيد منها دون أن يؤثر ذلك على خصوصيتها وثقافتها.

ثم يعقب ذلك خاتمة للبحث ومستخلص لأهم النتائج التي خرج بها الباحث.



الفصل الأول

حول الهوية والهوية الإسلامية



المبحث الأول

صراع الهويات

لم يحدث في تأريخ الأمة الإسلامية، على امتداد أربعة عشر قرناً من عمرها، أن إهتم المفكرون المسلمون بصورة عامة والعرب خاصة بموضوع الهوية، كما اهتموا له على مدى القرنين الماضيين.

ويرجع السبب في ذلك إلى: الشعور والإحساس بل وتلمس الخطر الذي يهدد هويتهم وحضارتهم وتأريخهم، على يد عدو قوي وخطير يريد هذا ويعمل جاداً عليه، مما ولدّ قناعة لدى نخبة من العلماء المصلحين بضرورة الانتباه لهذا الموضوع الخطير والتصدي له، عبر السير في عملية تغيير وإصلاح للواقع السيئ الذي تعيشه الأمة الإسلامية. فكان هذان السببان: الشعور بالخطر، والشعور بالحاجة إلى الإصلاح والتغيير، هما اللذان ولدا الاهتمام بموضوع الهوية لدى المفكرين الإصلاحيين، هوية النهضة التي يرومون القيام بها في ذلك الوقت.

ويذهب أغلبية الباحثين في موضوع النهضة الحضارية العربية الإسلامية، إلى أن المواجهة الحديثة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية الغازية، ممثلة بالحملة الفرنسية على مصر (١٢١٣ هـ - ١٧٩٨م) هي التي ولدّت تيار التغيير والتجديد الإسلامي، الذي رأى أعلامه فيه، طوق النجاة من هذا الخطر القادم، الطامع في احتلال الأرض ونهب الثروة، والطامح إلى احتلال العقل وتأبيد الاحتلال في كل الميادين(١).

---

(١) ينظر: المشروع الإسلامي للتغيير ومطاعن العلمانيين عليه:محمد عمارة /١٥-١-٢٠٠٤ /من على موقع الوحدة الإسلامية على الشبكة العالمية للمعلومات: www.alwihadah.com

ويرى المفكر الإسلامي محمد عمارة، في كلمات ودعـوات الـشيخ حـسن العطار (١١٨٠هــ -١٢٥٠هــ الموافق ١٧٦٦م-١٨٣٥ م) التي قال فيها - بعـد احتكاكه بعلماء الحكمة الفرنسية، الذين جلبهم نابليون معه في غزوته: ‹‹ إنّ بلادنا لابد أن تتغير أحوالها، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ›› [١].

هذه الكلمات كانت بذرة البداية للدعوة إلى المشروع الحـضاري الإسـلامي للتغيير والإصلاح والنهوض.

وبما أنّه من البديهي أنّ لكل عملية تغيير وإصلاح ونهوض، هويـة تنتمـي إليها. فأن النهضة التي نحن بصددها، كان من المفروض - بل مـن المحـتم- أن تكون هويتها إسلامية صرفة. ذلك أنّه لم يكن يوجد غير الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية العريقة، لتكون المرجع والمنهل الذي تنهل منه هذه النهضة في سـيرها نحو التغيير والإصلاح المطلوبين[٢].

لكن التراجع الحضاري الكبير الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية، وفي كافة الميادين، فتح الباب لتيارات وأفكار أخرى، غريبة على حضارتنا الإسلامية وغريبة على تأريخنا ومجتمعنا الإسلامي. لتفرض نفسها على الساحة وتعرض بـضاعتها على الناس فراحت هذه الدعوات الجديدة تزاحم المشروع الحـضاري الإسـلامي النهضوي وتناصبه العداء، وتتهمه بالرجعية في التفكير، والعـيش فـي الماضـي، وبعدم صلاحية وفائدة مشروعه النهضوي في ظل التطورات التي تشهدها الحيـاة المعاصرة، وتتهم الإسلام بعدم قدرته على مواكبة هذه التطورات. فدعت إلى إبعاد الدين الإسلامي عن مجال الحكم والتوجيه. وعللوا ذلك بأن الدين الإسلامي ليس له

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) ينظر: أيّهما أولاً الهوية أم النهضة:محمد عمارة/جريدة الشرق الأوسط/٢٣-١-٢٠٠٤/مـن على الموقع: www.al.eman.com

علاقة في أمور السياسة والحكم والتوجيه(١). أو أنّ الإسلام لا يصلح أن يكون المرجع للنهضة الحضارية المنشودة، لأنّه ليس الرابط الأساسي الذي يربط أبناء الشعب العربي(٢). وأحياناً بحجة أنّهم احتراماً منهم للدين الإسلامي وحفاظاً على هيبته في نفوس الناس، فإنّهم لا يريدون إقحامه في شؤون السياسة والحكم والتوجيه، حيث تكثر الأخطاء والزلات ، والأمور المعقدة الشائكة، والاختلافات والنزاعات الكثيرة (٣).

وعلى الرغم من أنّ تلك التيارات كانت متناحرة ومتنافسة فيما بينها(٤). إلاّ أنّ هناك سمة عامة تتسم بها جميع هذه التيارات، وتشترك بها، وتتفق عليها، إلا وهي: العلمانية أو (اللادينية)(٥).

ومن أهم هذه التيارات والمذاهب الفكرية والسياسية العلمانية: التيار القومي والتيار الوطني ودعاة الأممية ودعاة التغريب وغيرهم(٦). حيث دعا إليها وتبناها

(١) ينظر: الإسلام وأصول الحكم:علي عبد الرازق/ دراسة ووثائق: محمد عمارة/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ ط (١) /١٩٧٢/ ص١٥٤.

(٢) ينظر: العروبة أولا: ساطع الحصري/ دار العلم للملايين /بيروت /ط (٤) /١٩٦١ /ص٩٩-١٠٨.

(٣) ينظر: عروبة الإسلام وعالميته: شبلي العيسمي/ دار الطليعة/ بيروت/ ط (٢) /١٩٨٥/ص١٥١-١٥٢.

(٤) ينظر:على سبيل المثال: الإقليمية جذورها وبذورها: ساطع الحصري/ دار العلم للملايين/ بيروت/ ١٩٦٣.

(٥) ينظر: صراع الأفكار في المجتمع الإسلامي:محسن عبد الحميد/ مطبعة وزارة التربية/ ط (١) /١٩٩٨ /ص٩-١٢

(٦) ينظر:حول الحركة العربية الحديثة: محمد عزة دروزة / المكتبة العصرية/ بيروت/١٩٥٠/ ج(٦) / ص٤٨-٥٨

عدد من المفكرين العرب مسلمين وغير مسلمين. وفيما يلي ملخص لأبرز التيارات الفكرية التي كانت موجودة على الساحة العربية في القرنين الماضيين.

أولاً : التيار الإسلامي:

قلنا بأنّ الدين الإسلامي كان من المفروض أن يكون هو المرجع الأساسي الأول، لشكل وهوية ومضمون النهضة الحضارية العربية الإسلامية المنشودة، وأنّ المصلحين ألإسلاميي التوجه ، كانوا هم رواد هذه النهضة في القرن الثالث عشر الهجري،فهم أول من تنبه لضرورة إجراء التغييرات والإصلاحات الجذرية والشاملة وعلى كل المستويات ، وهم أول من دعا لهذا وعمل من أجله ، ومن أشهر هؤلاء المصلحين،المصلح الإسلامي الكبير الشيخ جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ هـ - ١٣١٤ هـ / ١٨٣٨م-١٨٩٧م) وتلميذه الذي سار على نهجه الإمام محمد عبده (١٢٦٦ هـ-١٣٢٣هـ / ١٨٤٩م -١٩٠٥ م)[١] .

لقد كان الشيخ الأفغاني يؤمن بقدرة الدين الإسلامي على إخراج الأمة الإسلامية من الأزمة الحضارية التي تعصف بها، إذ يقول: « إنّ الدين هو قوام الأمم وبه علاجها وفيه سعادتها، وعليه مدارها، وفي عقائده عماد لبناء هيئتها الاجتماعية، وهو أساس محكم لمدنيتها، فهو السبب المفرد لسعادة الإنسان »[٢].

أمّا تلميذ الأفغاني ورفيقه، الإمام محمد عبده، فإنّه لا يخرج عن هذا الخط،بل أنّه يؤمن به، ويذهب إلى أبعد منه،إذ يعتقد الإمام بأنّ سلوك العرب المسلمين لأي طريق آخر في نهضتهم غير طريق الدين، فإنهم بهذا يقودون الأمة

(١) ينظر كتاب: الإسلام وقضايا العصر:محمد عماره/ دار الوحدة / بيروت/ ط (١) /١٩٨٠ / ص٣١-٤٢.

(٢) الأعمال الكاملة للشيخ جمال الدين الأفغاني- دراسة وتحقيق: محمد عمارة / دار الكتاب العربي/ القاهرة / بدون (ت) / ص١٣١.

العربية الإسلامية إلى ما يضرها، فنجده يقول: « إنّ سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين، سبيل لا مندوحة عنه، وإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً.وإذا كان الدين كافياً لتهذيب الأخلاق وإصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس في غيره، وهو حاضر لديهم ، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث مالا إلمام لهم به. فلم العدول عنه إلى غيره »[1].

وقد تخرج من مدرسة (الأفغاني-عبده) مفكرون كبار، ومصلحون عظماء، من أمثال العلامة السيد محمد رشيد رضا، والأمير شكيب أرسلان، والشيخ مصطفى عبد الرازق، وغيرهم كثير من المفكرين الذين دفعوا حركة التجديد والنهوض الحضاري العربي الإسلامي خطوات كبيرة إلى الأمام[2]، ولكن أبرزهم وأشهرهم، وأكثرهم تأثيراً في الأمة الإسلامية ، وفي المشروع الحضاري النهضوي الإسلامي هو الإمام الشهيد حسن البنا (١٣٢٤هـ-١٣٦٨هـ /١٩٠٦م-١٩٤٩م) مؤسس جماعة الإخوان المسلمين[3].

وهناك تيار إسلامي آخر لا يختلف في المنهج والإعتقاد عن تيار الأفغاني وتلاميذه غير أن لديهم وجهات نظر تختلف عن التيار الأول من حيث الأولوية

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده-دراسة وتحقيق: محمد عمارة/المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت/ ١٩٧٢/ ج(١)/ ص١١٦.

(٢) ينظر الفكر الإسلامي الحديث تقويمه وتجديده: محسن عبد الحميد/ مكتبة الخلود/ بغداد/ط (١)/ ١٩٨٧م/ ص٧٦.

(٣) ينظر وجهة العالم الإسلامي: مالك بن بني: ترجمة عبد الصبور شاهين/ دار الفكر/ دمشق/ ١٩٧٩م/ ص٩٥.

والأهمية في بعض الأمور، وأيضاً طبيعة الأسلوب الواجب إتباعه فيما يتعلق بالمشروع الحضاري النهضوي الإسلامي، وهذا التيار يتمثل بفكرين ومفكرين عظيمين وكبيرين هما: المصلح الإسلامي الكبير الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي (١٢١٦هـ-١٢٩٠ هـ /١٨٠١م-١٨٧٣م) والمصلح الإسلامي الكبير الشيخ عبد الرحمن الكواكبي (١٢٧١هـ-١٣٢٩ هـ /١٨٥٤م-١٩٠٢م)[١].

والحقيقة إنّ مثل هذا النوع من الاختلاف في وجهات النظر وفي الأسلوب المتبع للإصلاح والتغيير والنهوض بالأمّة الإسلامية، كان موجوداً حتى بين الشيخ الأفغاني وتلميذه الإمام محمد عبده، فقد كان الشيخ الأفغاني يؤمن بأنّه لا سبيل إلى الإصلاح والتغيير إلاّ عن طريق السياسة، أما الإمام محمد عبده فقد كان أسلوبه في التغيير والإصلاح يعتمد بالدرجة الأولى والأساس على التربية والتعليم[٢].

ولكن هذا لا يؤثر على المنهج العام والرؤية الأساسية لهذا التيار الإصلاحي الإسلامي، من حيث كونهم متفقين جميعاً، على إن مشاريعهم الإصلاحية التي يقدمونها من أجل النهضة الحضارية التي ينشدونها لأمتهم، هي مشاريع ذات هوية ومرجعية إسلامية أولاً وقبل كل شيء.

وهذا التميز والتنوع في الأفكار والمشاريع والبرامج المطروحة للعمل من أجل النجاح في حركة التجديد والإصلاح بين الشيخ الأفغاني وبين الإمام محمد عبده ينطبق تماماً على الاختلاف والتنوع في الأفكار والمشاريع والبرامج المطروحة من قبل الشيخ رفاعة الطهطاوي من جهة والشيخ الكواكبي من جهة

---

(١) ينظر: المشروع الإسلامي للتغيير ومطاعن العلمانيين عليه/مصدر سابق.

(٢) ينظر: الفكر السياسي العربي الإسلامي بين ماضيه وحاضره:فاضل زكي محمد/دار الحرية للطباعة/بغداد/ط(٢)/١٩٧٦م/ص٣٧٩.

أخرى ومدرسة الأفغاني من جهة ثالثة، فالجميع يدعون ويعملون من أجل نهضة فكرية وثقافية وسياسية وعلمية وحضارية، نهضة ذات هوية إسلامية(١).

وللاستدلال على هذا الرأي نستشهد بهذه الكلمات للشيخ رفاعة الطهطاوي، والتي هي غيض من فيض من مذهبه في تأكيد إسلامية المشروع النهضوي الإصلاحي الذي يدعو اليه، فنجده يقول: « إنّ بحر الشريعة الغراء، على تفرع شارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها بالسقي والري، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية لأنها الأصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع »(٢).

ويقول أيضاً:« إنّ حاكم الشرق المسلم يستمد حكمه من إرادة الله وشريعته وهي خير ضمان للعدل واستقامة الأمور في البلاد الإسلامية »(٣).

أمّا الشيخ الكواكبي فانّه أكثر تمسكاً بالدين الإسلامي وبالشريعة الإسلامية، من حيث كونهما الأصلح والأجدر ليكونا المرجع لحركة الإصلاح والتجديد، ويرى ضرورة إنّ تكون هوية المشروع الحضاري النهضوي الإسلامي، ذات صبغة دينية إسلامية فنجده يقول: « إنّ للفطرة الدينية في الإنسان علاقة عظمى في شؤون حياته لأنّها أقوى وأفضل وازع يعدل نواميسه المضرة »(٤). وينتقد الشيخ الكواكبي

---

(١) ينظر بخصوص هذا الموضوع: الدراسة الشاملة لأعمال المصلحين الكبيرين الطهطاوي والكواكبي التي قام بها الدكتور محمد عماره حيث أثبت فيه هذا الأمر وتبناه في العديد من كتبه وأعماله.

(٢) الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي- دراسة وتحقيق: محمد عماره/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت/ ط(١)/١٩٧٤م/ ج(١)/ ص٥٤٤.

(٣) صحيفة الوقائع المصرية- رفاعة رافع الطهطاوي- نقلاً عن كتاب: رفاعة الطهطاوي-حسين فوزي النجار/الدار المصرية للتأليف والترجمة/ مصر/ بدون (ت)/ ص١١٩.

(٤) أم القرى:الشيخ عبد الرحمن الكواكبي/المطبعة العصرية/حلب/١٩٥٩م/ص٧١.

الذين يذهبون إلى عكس هذا المذهب فيقول: «حتى توهم كثير من الحكماء إنّ الإسلام والنظام لا يجتمعان»(١).

وبناءاً عليه يتبين لنا خطأ الرأي الذي يذهب إليه بعض الباحثين، من العلمانيين على وجه الخصوص-على اختلاف توجهاتهم-ذلك أنهم يعدون الشيخ الطهطاوي مرجعاً من مراجع التيار الوطني العلماني، أو التيار التغريبي، وداعيه من دعاة هذه الأفكار(٢).

وأيضاً عد الشيخ الكواكبي مرجعاً من مراجع التيار القومي العربي العلماني وداعية من دعاته(٣).

نعم لقد دعا الشيخ الطهطاوي إلى الوطنية، ولكن بمعنى حب الوطن والتضحية في سبيله،وليس كما يرى الوطنيون العلمانيون الوطنية حيث أنّها تعني عندهم تقديس الوطن ومسخ أي شعور لدى المواطن بالانتماء لوطن أكبر أمّته العربية والإسلامية، ودعا أيضاً وبقوة إلى أن يستفيد المسلمون من حضارة الغرب في مجال العلوم البرانية –المدنية–ولكن دون الأخذ بنظرة الغرب المادية في ما يتعلق بالإنسان والأخلاق والحياة والدين، داعياً إلى التمييز بين الهوية الوضعية العلمانية(اللادينية)، وبين العلوم المدنية، للنهضة الحضارية الغربية الأوربية،حيث يرى الشيخ الطهطاوي أنّ لكل نهضة هويتها الخاصة بها، وأن التعارف والتقارب الحضاري بين الأمم المختلفة لايعني أخذ نموذج الآخر بكامله وعلى عواهنه وسلبياته، فنجده يقول: « إن هذه المدنية العظيمة–يعني باريس–كباقي مدن فرنسا

---

(١) المصدر نفسه/ص٢٢.

(٢) ينظر: مقدمات الهوية الوطنية وإشكالياتها: سلافة حجاوي/من على موقع السلطة الوطنية الفلسطينية على الشبكة:www.sis.gov.ps

(٣) ينظر: ما هي القومية:ساطع الحصري/دار العلم للملايين/بيروت/ط(١)/١٩٥٩م/ص٢٠٦.

وبلاد الإفرنج، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا، وديار العلوم البرانية، التي تجلب الأنس وتزين العمران، غير إن أكثر أهل هذه المدينة إنّما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل وحده، أو فرقه من الإباحيين الذين يقولون أن كل عمل يأذن فيه العقل صواب، ولذلك فهو لا يصدق بشيء مما في كتب أهل الكتاب »(١).

وبعدها يعلن الطهطاوي نقده ورفضه لهوية هذه النهضة التي أخذ بها الغرب، مزكياً الهوية الإسلامية للنهضة الحضارية التي يدعو إليها، فنجده يقول: « إنّ تحسين القوانين الطبيعية لا يعتد به إلاّ إذا قرر الشارع. وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه، إلاّ إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه. فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقل المجردة. وينبغي رفع أعلام الشريعة الحنيفة والسنة النبوية، ومعرفة سائر المعارف البشرية المدنية، والعلوم الحكمية العلمية التي لها دخل في تقدم الوطنية.. تلك العلوم التي يظهر الآن أنها أجنبية وهي علوم إسلامية نقلها الأجانب من الكتب العربية »(٢).

والشيء نفسه ينطبق على الشيخ الكواكبي، فهو قد دعا في مشروعه الإصلاحي النهضوي، الذي قدمه، إلى تقديم وتفضيل العرب على غيرهم من القوميات الأخرى من المسلمين، لما للعرب من الفضل والحق المعلوم في ذلك، شرعاً وتاريخاً وواقعاً. على أساس أنّهم الأجدر والأصلح لقيادة الأمة الإسلامية، وإنّ ترك القيادة لغيرهم قد ثبت فشله، فنجده يقول: « إنّ الجمعية. قد وجدت أنّ

---

(١) تخليص الإبريز في تلخيص باريز:رفاعة رافع الطهطاوي/تحقيق: مهدي علاّم وأحمد محمد بدوي وأنور لوقا/ مطبعة مصطفى البابي الحلبي/مصر/١٩٥٨م/ص٧٧-٧٩ بتصرف .

(٢) الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي / ج(١) / ص٥٣٠-٥٣٤ / مصدر سابق .

لجزيرة العرب ولأهلها بالنظر للسياسة الدينية مجموعة من خصائص لم تتوفر في غيرهم، بناءاً عليه رأت الجمعية أنّ حفظ الحياة الدينية متعينة عليهم لا يقوم فيها مقامهم غيرهم مطلقاً، وإنّ انتظار ذلك من غيرهم عبث محض »(١).

وهو مع ذلك يعود فيعطي بقية القوميات الإسلامية غير العربية قيمتها ويؤكد على دورها، ولا يبخسها حقها، فنجده يقول: «على إنّ لبقية الأقوام أيضاً خصائص ومزايا تجعل لكل منهم مقاماً مهماً في بعض وظائف الجامعة الإسلامية»(٢).

بيد أن القومية التي دعا إليها الكواكبي تختلف كل الاختلاف عن تلك التي يدعو إليها أولئك القوميون العلمانيون الذين ظهروا فيما بعد، والذين نادوا بإبعاد الدين عن مجال الحكم والتوجيه والسياسة، وابقائه محصوراً في أماكن العبادة، والذين نادوا بتطبيع الصلة والعلاقة مع بقية القوميات الإسلامية غير العربية، وجعل علاقة العرب بهم كعلاقتهم مع القوميات الأجنبية الأخرى وربما أقل شأناً.

فنجده يقول: « ... وقلب صفحات التأريخ بدقة، تجد أنّ إدارة الدين وإدارة الملك لم تتحدا في الإسلام تماماً، إلاّ في عهد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز فقط »(٣).

ومعلوم أنّ هذه الفترة من عمر الإسلام هي الأنموذج والقدوة التي يقتدي بها المسلمون ويسعون إلى الوصول أو الاقتراب منها، حيث يقاس مدى صلاح

---

(١) أم القرى:عبد الرحمن الكواكبي /مصدر سابق/ص٢١٧.

(٢) المصدر نفسه/ص٢١٧.

(٣) المصدر نفسه/ص٣٢٩.

حال المسلمين في الدين والدنيا بمدى اقترابهم أو ابتعادهم من حال المسلمين في عصر الصحابة.

إذن فالحقيقة التي نخرج بها من هذا كله، أنّ آراء وأفكار الشيخين الطهطاوي والكواكبي بعيدة تماماً عن آراء وأفكار العلمانيين من قوميين ووطنيين ودعاة تغريب وغيرهم. وأنّها في الحقيقة موافقة ومشابهة لآراء ودعوات الكثير من المفكرين والمصلحين المنتمين إلى التيار الإسلامي.

ففي موضوع العرب وفضلهم وميزتهم على غيرهم من بقية المسلمين، هاهو العلّامة الشيخ أبي الحسن الندوي، المسلم الدين، الهندي القومية، نجده يتحدث في كتابه الشهير -ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- عن دور العرب ومكانتهم في الإسلام والأمّة الإسلامية، حيث يدعوهم إلى النهوض مجدداً والأخذ بزمام المبادرة والقيادة، ليس فقط قيادة الأمة الإسلامية، لا بل قيادة العالم أجمع، نحو الخير والسلام والمحبة والسعادة، بل إنّه يقول بأنّ هذا واجب على العرب، لا يجب أن يتخلفوا عنه أو أن يرفضوه أو يتكاسلوا عن القيام به، فنجده يقول: « إنّ العالم العربي له أهمية كبرى في خريطة العالم السياسية... ولأنّه قلب العالم الإسلامي النابض، نتجه إليه روحياً ودينياً، وندين بحبه وولائه.. فالمسلم ينظر إلى العالم العربي بغير العين التي ينظر بها الأوربي، وبغير العين التي ينظر بها الوطني العربي، إنّه ينظر إليه كمهد للإسلام، ومشرق نوره، ومعقل الإنسانية، وموضع القيادة العالمية، ويعتقد أنّ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم العربي هو روح العالم العربي، وأساس عنوانه ومجده.. لقد كانت -ولا تزال- قيادة هذا العالم بجدارة واستحقاق ، أشرف قيادة وأعظمها وأقواها في تاريخ الزعامة والقيادة ، وقد أكرم الله بها العرب ، لمّا أخلصوا لهذه الدعوة الإسلامية وتفانوا في سبيلها، فأحبهم النّاس في كل العالم حباً لم يعرف له نظير، وقلدوهم في كل شيء، وخضعت للغتهم

اللغات، ولثقافتهم الثقافات، ولحضارتهم الحضارات... وبقيت هذه القيادة الشاملة الكاملة مدة طويلة والنّاس لا يفكرون في ثورة عليها، أو في التخلص منها، كما هي عادة المفتوحين والأمم المغلوبة على أمرها في كل عهد، لأنّ صلتهم بهذه القيادَة ليست صلة المحكوم بالحاكم أو الرقيق بالسيد القاهر، إنّما هي صلة المتدين بالمتدين، والمؤمن بالمؤمن، وعلى الأكثر هي صلة التابع بالمتبوع الذي سبقه بمعرفة الحقّ والإيمان بالدعوة والتفاني في سبيلها، فلا محل للثورة، ولا محل لنكران الجميل، إنّما اللائق أن يعترفوا لهم بالفضل، وتلهج ألسنتهم بالشكر والدعاء... هذه هي القيادة العالمية التي هيأتها البعثة المحمدية، وأعلنتها سورة الإسراء، وهي القيادة التي يجب أن يحرص عليها العرب أشد الحرص ويعضوا عليها بالنواجذ، ويسعوا إليها بكل ما أوتوا من مواهب، ويتواصى بها الآباء والأبناء، ولا يجوز لهم في شريعة العقل والدين والغيرة أن يتخلوا عنها في زمن من الأزمان ففيها عوض عن كل قيادة مع زيادة، وليس في غيرها عوض عنها وكفاية، وهي قيادة تشمل جميع أنواع القيادة والسيادة، وهي تسيطر على القلوب والأرواح أكثر من سيطرتها على الأجسام والأشباح »[١].

نعم إنّ هذا النص هو للعلّامة الشيخ أبي الحسن الندوي، المسلم الدين، الهندي القومية، الإسلامي التوجه، وليس لأحد غلاة دعاة القومية العربية!!.

وفيما يتعلق بالوطنية في فكر ودعوة المنتمين إلى التيار الإسلامي نقف على نص للإمام الشهيد حسن البنا، يوضح ويبين فيه وبصراحة ووضوح، بحيث لا يبقى هناك مجال للشك أو اللّبس، موقف الإسلاميين من موضوع الوطنية، فنجده يقول: « إنّ الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة، باعتبارها الأساس الأول

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين:أبو الحسن الندوي/دار السلام/حلب/ بيروت/ط(٩)/١٩٧٦م/ص٢٩٧-٣١٦.

للنهوض المنشود، ولا يرون بأساً بأن يعمل كل إنسان لوطنه، وأنّ يقدمه على سواه، ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية، باعتبارها الحلقة الثانية للنهوض، ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية، باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامي العام... فإذا أراد قوم أن يتخذوا من المناداة بالقومية الخاصة سلاحاً يميت الشعور بما عداها، فالإخوان المسلمون ليسوا معهم »[١].

وفيما يتعلق بإتباع الحضارة الغربية في كل شيء، واتخاذها قدوة لنا وأنموذجاً نسير على نهجها ونقتفي أثر خطاها، دون التمييز بين ماهو ضارّ أم نافع لنا، فإنّ موقف الإسلاميين كان واضحاً جداً في هذا الموضوع، وأجد في كلمات أمير البيان ما يمثل ويلخص موقف رواد ومفكري النهضة الإسلامية قديماً وحديثاً من هذا الموضوع، إذ يقول: « ومن أكبر عوامل انحطاط المسلمين الجمود على القديم، فكما أنّ آفة الإسلام هي الفئة التي تريد أن تلغي كل شيء قديم، بدون نظر فيما هو ضار منه أو نافع، كذلك آفة الإسلام هي الفئة الجامدة التي لا تريد أن تغير شيئاً، ولا ترضى بإدخال أقل تعديل على أصول التعليم الإسلامي ظنّاً منهم بأنّ الإقتداء بالكفار كفر، وأنّ نظام التعليم الحديث من وضع الكفار. فقد أضاع الإسلام جاحد وجامد.أمّا الجاحد فهو الذي يأبى إلاّ أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين، ويخرجهم عن جميع مقوماتهم ومشخصاتهم، ويحملهم على إنكار ماضيهم، ويحملهم أشبه بالجزء الكيمياوي الذي يدخل في تركيب جسم آخر كان بعيداً فيذوب فيه ويفقد هويته... وهذا مخالف لسنن الكون الطبيعية التي جعلت في كل أمّة ميلاً طبيعياً

---

(١) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنّا : رسالة المؤتمر الخامس / المكتبة التوفيقية / القاهرة / بدون (ت)/ ص٢٠٦-٢٠٨.

للاحتفاظ بمقوماتها ومشخصاتها من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وسكنى وغير ذلك إلاّ ما ثبت ضرره »[1].

من هذا كله يتبين لنا حقيقة موقف التيار الإسلامي من تلك القضايا التي شغلت المفكرين والمصلحين ومن مختلف الاتجاهات قرابة قرنين من السنين.

إنّ المشروع الحضاري النهضوي الإسلامي يحمل على صفحاته وبخطوط عريضة تلك القضايا التي ينادي بها القوميون والوطنيون ودعاة التغريب، ومن هنا يتبين لنا أنّ نقاط الخلاف والاختلاف والتمايز بين التيار الإسلامي والتيارات الأخرى؛ ليست هي قضايا العروبة والوطنية والدعوة إلى الاستفادة من نتاج الحضارات الأخرى، لأن هذه المواضيع موجودة ومترسخة في الدين الإسلامي وفي الحضارة العربية الإسلامية، بوجه لا يحقق التعارض مع الثوابت والأصول الإسلامية، ولا يخرج المسلمين من تميزهم الحضاري عن غيرهم، أو يفقدهم هويتهم الخاصة.

إنّ نقاط الخلاف والاختلاف والتمايز الحقيقة، بين التيار الإسلامي وبين بقية التيارات، نستطيع أن نحصرها في نقطتين أساسيتين هما:

أولاً: إنّ التيارات العلمانية تدعو إلى فصل الدين عن الدولة وإبعاد الإسلام عن مجالات الحياة، وخاصة في مجال الحكم والتوجيه والتربية والتعليم والاقتصاد والاجتماع... وابقائه محصوراً في أماكن العبادة، وجعل علاقة الإنسان بالدين علاقة فردية وشخصية إلى أبعد حد، وهو ما يرفضه التيار الإسلامي رفضاً قاطعاً.

ثانياً: إنّ من سمة التيارات العلمانية، المغالاة والتطرف في الدعوة إلى القضايا التي ينادون بها، إلى درجة الاستعلاء والمعاداة للآخرين، وإلى درجة تُضر بمصالح

---

(١) لماذا تأخر المسلمون وتقدم وغيرهم:الأمير شكيب أرسلان/دار الفكر/بيروت/ط(٤)/١٩٦٥م/ ص٧٠.

الأمة الإسلامية، وتفقدها هويتها وخصوصيتها الحضارية، وجعلها تذوب تـدريجياً في الحضارات والثقافات الأخرى.

فمثل هذه الدعوات والأفكار هي التي وصفناها سابقاً بأنّها غريبـة علـى مجتمعنا وغريبة على حضارتنا وتأريخنا الإسلامي.

ثانياً: التيار العلماني القومي:

أمّا التيار العلماني القومي فقد سعى إلى تغيير مـنهج ومجـرى النهـضة الحضارية العربية الإسلامية، وجعل هويتها عربية علمانية، حيث هدف إلى إقامـة أمّة عربية لاشيء يربطها بالأمم والشعوب المسلمة غير العربية، فقـدموا تعريفـاً لأمّة عربية مستمدين أفكارهم وطروحاتهم من المفاهيم الغربية الحديثـة الخاصـة بالأمّة والدولة.

وهذه معلومة متفق عليها عند كبار دعاة القومية العربية العلمانية، « وحتـى العرب أمتنا لم يكونوا قوميين بالمعنى الذي نعرفه اليوم من مـصطلح (القوميـة). وهذا لا يعني أنّهم لم يكونوا يحسون بقوميتهم، أي بعروبتهم، أو أنّهم لا يتعـصبون لها أحياناً، ولكن القومية من حيث هي (حركة وعقيدة) على الوجه الذي أشرت إليه شيء، والشعور القومي أو التعصب العنصري أو القبلي شـيء آخـر. إن الفكـرة القومية لا تكاد تمتد بالنسبة لأمتنا العربية لأكثر من نصف قـرن إلاّ قلـيلاً. إنّهـا انتقلت إلينا مع غيرها من الفكر عن الغرب، بل إن صياغتها العربية (القومية) هي ترجمة لمصطلح أجنبي (Nationalism) فيما يبدو »[١].

---

(١) من وحي العروبة:عبد الرحمن البزاز/دار القلم/القاهرة/ط(٢)/١٩٦٣م/ص١٢٤.

وينظر أيضاً حول هذا الموضوع:ما هي القومية:ساطع الحصري/ص١١/مـصدر سـابق. وأيضاً كتاب: حول القومية العربية: جابر العمر/ مكتبة العلوم والآداب للطباعـة والنـشر/ دمشق/١٩٤٨م/ص٣-١٥.

وعلى هدى هذه المفاهيم والأفكار تأسست كل النظريات القومية العربية التي ظهرت في القرن العشرين.

فالعرب أمّة واحدة، واللغة العربية هي الرابطة الأولى والأساس بين أبناء هذه الأمّة، ثم بعد ذلك يأتي التأريخ المشترك، كما يذهب إلى ذلك ساطع الحصري (أبو القومية العربية) ، إذ يقول : « إنّ أس الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية، وحدة اللغة ووحدة التأريخ »[1].

أمّا الدين فلا يُعد أصلاً من المقومات الأساسية للهوية العربية في نظر دعاة القومية العربية العلمانية، « فلا الدين ولا الدولة ولا الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية »[2].

وموضوع الدين وعلاقته بالقومية العربية ، بالنهضة الحضارية المنشودة وهويتها، يأخذ في أحيانٍ كثيرة شكل العداء، عند دعاة القومية العربية العلمانية، « فالدين لا يدخل ضمن خصائص القومية، هذه حقيقة لا ينكرها أحد...وإنّ أعظم خطر على المجتمع البشري، وعلى الإنسانية وقيمها السامية، أن تبنى القوميات على هذا القاسم المشترك الوحيد، سواء أكان الدين الإسلامي أم اليهودي أم النصراني »[3]. ويقول أيضاً: «فالعروبة ليست الإسلام، والإسلام ليس العروبة»[4].

ولكن الخطورة فيما يبدو تكمن هنا، إذ يقول المستشرق اليهودي الفرنسي برنارد لويس: « إنّ إدخال هرطقة القومية العلمانية أو عبادة الذات الجماعية، كان

---

(١) ما هي القومية: ساطع الحصري /مصدر سابق/ص٢٥١.

(٢) المصدر نفسه/ص٢٥٢.

(٣) معنى القومية العربية:جورج حنا/دار بيروت/بيروت/١٩٥٧م/ص٢٩-٣٠.

(٤) المصدر نفسه/ص٧٢.

أرسخ المظالم التي أوقعها الغرب على الشرق الأوسط.. فالليبرالية، والفاشية، والوطنية، والقومية، والشيوعية، والاشتراكية، كلها أوربية الأصل مهما أقلمها وعدّلها أتباعها في الشرق الأوسط، والمنظمات الإسلامية هي الوحيدة التي تنبع من تراب المنطقة، وتعبّر عن مشاعر الكتل الجماهيرية المسحوقة »[1].

ويقول وزير المستعمرات الإنكليزية (أورمبسي جو) في وثيقة تأريخية:- « إننا في السودان ونيجيريا ومصر ودول إسلامية أخرى شجعنا وكنّا على صواب، نمو القوميات المحلية، فهي أقل خطراً من الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامي »[2].

وإذا كانت السمة التي اتسمت بها الحركات العلمانية المختلفة سواء اكانوا قوميين أم وطنيين أم غير ذلك ؟ هي الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، والمغالاة والتطرف القومي أو الوطني، وذلك في بداية ظهور هذه الحركات والدعوات، فإننا نجد أنّها بعد ذلك بدأت تنحو منحىً جديداً، وتضيف إلى سماتها وميزاتها المشتركة ميزة مشتركة جديدة، ألا وهي العداء الشديد للإسلام وللحركات الإسلامية، « إنّ جميع الحركات القومية التي قامت في البلاد العربية اتسمت أول أمرها بميل بارز إلى التسامح الديني. ثم إنّ هذا التسامح بدأ يتطور حتى انتهى في أيامنا هذه ميلاً ظاهراً عن الدين، ثم ظهر بوضوح أنّ هذه الحركات القومية ترمي إلى إضعاف الشعور الإسلامي خاصة، في البلاد الإسلامية، وإلى قصر الصلات بين بلادنا على العنصر القومي وحده. فالصلة بين سوريا ولبنان ومصر والجزائر ومراكش تقوم،

---

(١) نقلاً عن: مجلة البيان- تصدر عن المنتدى الإسلامي/لندن/عن ندوة لمجموعة من الباحثين الأكاديميين بعنوان: هويتنا الإسلامية: بين التحديات والانطلاق/ج(١)/العدد(١٢٨)/ربيع الأول ١٤١٩ هـ/أغسطس١٩٩٨م/ص٥٩.

(٢) المصدر نفسه/ص٦٠.

في رأي الأحزاب العربية القومية، على (العروبة) أو على اللغة العربية، وعلى شيء من التأريخ العربي مجرداً من كل صلة له بالإسلام أمّا تركيا وإيران وباكستان فهي عندهم كالأرجنتين والمكسيك والدنمرك سواء بسواء »[1].

وقد كان للنصارى العرب الدور الأكبر سواء بنشوء القومية العربية والدعوة إليها والتشير بها، أو بتعميم هذه النظرة إلى الدين وإلى الدين الإسلامي على وجه الخصوص ذلك إنّ الإسلام هو دين العرب، وما تعميم موقف القومية من الأديان كلها بلا استثناء إلاّ من باب ذر الرماد في العيون، « كان لرواد القومية العربية المسيحية فضل كبير، بسبب تعريتهم القومية العربية من كل صبغة دينية، هؤلاء الرواد اليازجيون والبستانيون السركسيون، والأرثوذكس أديب أسحق وأنطوان فرح وجبر ضومط وأمين الريحاني و جورجي زيدان ويعقوب صروف.. »[2]*.

---

(١) التبشير والاستعمار:عمر فروخ ومصطفى الخالدي/ المكتبةالحديثة/ بيروت/ ط(٦) /١٩٧٩م/ ص١٧٦.

(٢) معنى القومية العربية:جورج حنا/مصدر سابق/ص٧١.

* من الإنصاف أن نذكر هنا أن هذا الموقف والرأي لا ينطبق على كل المفكرين والساسة المسيحيين العرب، فقد كان كثير منهم ضد هذه الفكرة، فالمسيحي العربي ابن التوحيد ينهج منهج رسالة السلام والمحبة والأيمان، وهو منتم لمادة الإسلام الأولى لأمته العربية، فهو مسلم اعتقاداً من حيث أنه منتسب لرسالة السماء الخالدة، ومسلم منهجاً وسلوكاً وتاريخاً وطنياً لأنه منتسب للعروبة. وقد أكد كثير من المفكرين والساسة العرب المسيحيين إيمانهم بهذا وانتماءهم إليه بفعلهم وآرائهم نذكر منهم: مكرم عبيد وأمين نخلة واليأس خوري والمطران جورج خضر وغيرهم من الذين تنبهوا إلى خطورة ما يدعو إليه الاستعمار الغربي من تفريق المجتمع العربي حسب الدين إلى أكثرية وأقلية.

ومن أشهر دعاة القومية العربية العلمانية، فضلاً عن الذين ورد ذكرهم هناك نجيب عازوري وقسطنطين زريق وشبلي شميل وميشيل عفلق وغيرهم[١].

ثالثاً: التيار العلماني الوطني:

أمّا الفصيل العلماني الآخر فهو التيار الوطني، الذي يدعو إلى إقامة دولة علمانية على غرار الدولة الأوربية، مستمداً آراءه وأفكاره التي طرحها من الأفكار الفرنسية بالدرجة الأولى والأساس[٢]. حيث دعا أصحاب هذا التيار إلى أن يكون الولاء الأول والأساس هو لهذه البقعة الجغرافية المسماة وطن، وترك ماعدا ذلك، أي الدين واللغة والتاريخ المشترك والتراث والعادات والتقاليد، أو جعلها أموراً هامشية ثانوية في فكر الدولة والمواطن.

إنّ المفهوم الحديث للهوية الوطنية يتميز في أنّه حالة سياسية وإدارية خالصة، فهو غير مرتبط بفكرة الجماعة القومية، بل هو مفهوم عريض يفترض قبول جميع الاثنيات والجماعات بغض النظر عن أصولهم وتمايزاتهم، بالإقليم الذي يضمهم، والذي ستحكمه سلطة سياسية واحدة ونظام قانوني واحد، بحيث يصبح الولاء للدولة، الوطن، هو المفهوم الأساسي لبناء الهوية الوطنية لسكان الإقليم[٣]. ولكن بعض الباحثين لا يسمون هذه المفاهيم والأفكار (دعوات وطنية) وإنّما يقولون إنّ مثل هذه الدعوات والأفكار تسمى (إقليمية)[٤] ويسمون أصحابها

---

(١) ينظر: الهوية وتفاعل العروبة والإسلام-محمد خالد عمر-مجلة الفكر السياسي (دمشق)-العدد (١٧)-السنة (٥)-خريف وشتاء ٢٠٠٢-من على موقع المجلة على الشبكة: www.awa.dam.org.

(٢) ينظر: مقدمات الهوية الوطنية الفلسطينية-سلافة حجاوي-مصدر سابق.

(٣) ينظر: المصدر نفسه .

(٤) الإقليمية: ظاهرة اجتماعية استثنائية فوقية ومركبة ومتطورة قائمة بين ظهراني الأمّة العربية. أساسها الموضوعي هو واقع سياسي استثنائي، يتجسم في التجزئة السياسية التي تتمثل في=

بـ(الإقليميين) وأنّهم إنّما يتقنعون بقناع الوطنية، وهم أبعد ما يكون عنها. « إنّ القوى الإقليمية، قديمها وجديدها، تحاول أن تخفي حقيقتها الإقليمية وراء قناع زائف ومنطق سقيم يقومان على العبث بمضمون الوطنية... والعبث بمفهوم الوطن ذاته كعنصر من عناصر الأمّة، وكأساس موضوعي تقوم عليه ظاهرة الوطنية. وهو منطق يفصل مفهوم الوطن ووحدته عن مفهوم الأمّة ووحدتها القومية، ويقسِّم الوطن إلى أوطان تسمى الأوطان الصغيرة، مع ادعاء التسليم بوحدة الأمة وقوميتها... ومعنى هذا أنّ هذه الوطنيات ليست إلاّ إقليميات بكل ما في الإقليمية من معاني التناقض مع الوطنية والقومية »[1].

أمّا موضوع المشروع الحضاري النهضوي، وهوية هذا المشروع، عند أصحاب التيار الوطني العلماني فهو لا يختلف كثيراً عنه في فكر التيار القومي العربي العلماني، فهو يدعوا أيضاً وبشدة إلى العلمانية، ويحمل العداء نفسه للتيار الإسلامي وللمشروع الحضاري النهضوي الذي يدعو إليه. إلاّ أنّهم فقط أكثر تعصباً وتشدداً من العلمانيين القوميين في موضوع الدولة والوطن والأمة، وفي علاقة الدول العربية ببعضها، وفي الفكر والنظام السياسي الذي يجب أن يسود. «إنّ بعض الأحزاب الوطنية كالحزب القومي السوري وحزب الكتائب اللبنانية تنظر إلى اليمن ومصر وتونس كما تنظر إلى أسوج ونرويج وفنلندة. أمّا البرازيل

=وجود دول ودويلات وأشباه دول متعددة تنقسم إليها هذه الأمّة الواحدة في وطنها الكبير الواحد.ويُعبر بذاته وكياناته عن مصالح أجنبية ومحلية متحالفة قائمة بذلك الوجود ومرتبطة ببقائه. ومضمونها هو الولاء لذلك الواقع السياسي الاستثنائي القائم بالتجزئة السياسية والمجسم للمصالح المرتبطة بها. ينظر: الإقليمية الجديدة:عبد الله الريماوي/دار الطليعة/بيروت/ط(١)/١٩٧٠م/ص١٨.

(١) المصدر نفسه/ص٥٨-٦٣.

والولايات المتحدة وفرنسا نفسها فهي أقرب إلى هذين الحزبين من اليمن، وطرابلس الغرب، لكثرة المهاجرين وأتساع المصالح الاقتصادية بين سوريا ولبنان وبين البرازيل والولايات المتحدة وفرنسا »[١].

فالتيار الوطني بصراحة وبخلاصة القول لا يعترف ولا يريد أن يعترف بأمّة عربية واحدة أو قومية عربية واحدة أو وطن عربي واحد، فضلاً عن أمّة إسلامية أو وطن إسلامي.

واللغة العربية التي تربط أبناء الشعب العربي الواحد، والتأريخ العربي المشترك، لا تعني الشيء الكثير بالنسبة للتيار الوطني، ولا يعدونها من مقومات الهوية العربية، وهذا ما يذهب إليه انطون سعادة مؤسس الحزب القومي السوري، واحد من أبرز دعاة التيار الوطني، إذ يقول: « إنّ قول بلتشلي: متى استبدل المرء لغة جديدة بلغته، خسر قوميته. لا يصح إلاّ في الأقوام الغافلة عن نفسها وعن وحدة اجتماعها. أمّا الأقوام المنتبهة، الحيّة الوجدان القومي أو الاجتماعي، فيمكنها أن تقبل لغة جديدة، ولا تفقد خصائصها القومية الأخرى »[٢].

ومن دعاة الوطنية البارزين أيضاً لطفي السيد زعيم حزب الأمة في مصر وحسين مؤنس[٣].

رابعاً: دعاة التغريب

ومن الفصائل العلمانية البارزة أيضاً، التيار التغريبي. ويدعو أصحاب هذا التيار إلى (غربنة) المشروع الحضاري النهضوي العربي الإسلامي، أي الالتحاق

---

(١) التبشير والاستعمار:مصطفى الخالدي وعمر فروخ/مصدر سابق/ص١٧٦.

(٢) نشوء الأمم: انطون سعادة/ص١٧٢/نقلاً عن: العروبة بين دعاتها ومعارضيها:ساطع الحصري/دار العلم للملايين /بيروت/ط(٤)/١٩٦١م/ص٩١.

(٣) ينظر: صراع الأفكار:محسن عبد الحميد/ص١١/مصدر سابق.

بركب الحضارة الغربية والسير على نهجها، واقتفاء أثرها في كل صغيرة وكبيرة، والدعوة إلى نبذ ماضي الأمة وقطع صلتها به.

وأحياناً يحاولون تزوير الحقائق وخلط الأوراق، وخداع أنفسهم وغيرهم، بالادعاء بأنّ الحضارة العربية الإسلامية برمتها هي في الأصل نتاج العقل الغربي.

وفي هذا يقول أحد أبرز دعاة هذا التيار طه حسين: « إنّ العقل الشرقي هو عقل يوناني مردّه إلى حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن، وإلى حضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه، وإلى المسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير والإحسان... وإذا كان الإسلام قد تقبل الحضارة اليونانية، فلم لا يتقبل الحضارة الأوربية »(١).

ويدعو في صراحة ووضوح إلى تبني الحضارة الأوربية: « يجب أن نذهب مذهبها- أي الحضارة الأوربية - ونسير سيرتها في التشريع »(٢).

ويشاطره الرأي، ويزيد عليه سلامة موسى، إذ يقول: « أنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب، يجب علينا أن نخرج من آسيا ونلتحق بأوربا »(٣).

إذن هوية النهضة الحضارية التي يدعو إليها هذا التيار يجب أن تكون هوية غربية أوربية صرفة، وأنّه لا يجب أن يكون لنهضتنا وهويتنا أي علاقة بماضي الأمّة وتاريخها وتراثها وحضارتها، لا بل ودينها إذا اقتضى الأمر.

هذه بصورة مختصرة - بعض الشيء- أبرز المذاهب الفكرية التي كانت موجودة على الساحة العربية والحقيقة أنّ هناك مذاهب فكرية أخرى كالأممية

---

(١) من مقدمة كتاب: مستقبل الثقافة في مصر :طه حسين/مطبعة المعارف/القاهرة/١٩٣٨م.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) اليوم والغد : سلامة موسى/ نقلاً عن: صراع الأفكار في المجتمع الإسلامي/محسن عبد الحميد/ص٢٦/مصدر سابق.

والليبرالية وغيرها، إلاّ أنّ التيارات والمذاهب التي عرّفناها كانت هي الغالبة والمسيطرة.

فنشأ الصراع بين هذه التيارات والفصائل، كل واحد منها يدّعي أنّه هو الأحق والأجدر لقيادة الشعوب العربية، وأنّ آراءه وأفكاره التي يطرحها هي الأنسب والأصلح لكي تسير على نهجها حركة الإصلاح والتجديد والنهوض.

وهذا الصراع والخلاف على هوية النهضة المنشودة وعلى عناصر ومقومات هذه الهوية، كان السبب الأساس في تأخر وتلكؤ المشروع الحضاري النهضوي المنشود، وفي هذا يقول جورج قرم: « إنّ افتقار الثبات في تحديد عناصر الهوية قد يكون من أهم أسباب الوهن والشرذمة لجسم الأمّة العربية، بتعبير أدق، يمكن أن نقول إنّ فقدان مقومات الهوية المتفق عليها بشكل عميق قد سمح للاتجاهات التشرذمية للحياة العربية القديمة والحديثة،أن تتغلب على طموحات تحقيق التضامن والوحدة والتكامل...وحماية مصالحنا الشرعية وحرمة أراضينا»(١).

وقد كانت الغلبة على المستوى الرسمي، من حيث السيطرة على مقاليد الحكم والتوجيه في البلاد العربية، للتيار الوطني. ذلك أنّ هذا التيار بأفكاره وطروحاته وشخصياته كان قريباً من خطط وأفكار الاستعمار الغربي، التي تمثلت باتفاقية (سايكس-بيكو) لتقسيم الأمّة العربية الواحدة، إلى أقطار مجزئة ومنقسمة ومتناحرة، بحدود وهمية اصطناعية لم يشهدها تأريخ المنطقة العربية من قبل.

---

(١) واقع النظام العربي الحالي..بين العوامل الداخلية والعوامل الخارجية للتشرذم:بحث ألقاه جورج قرم في منتدى الفكر العربي المنعقد في الكويت من: ٣-٥ /تشرين الثاني/٢٠٠١م. وهذا البحث مأخوذ من موقع جورج قرم الشخصي على الشبكة العالمية للمعلومات: www.Georgescrom.com

وفي العلاقة الوطيدة بين الاستعمار الغربي وبين التيار الوطني ودعاة التغريب القريب منه يقول محمد عمارة: « إنّ جامعات الغرب ومؤسساته العلمية والفكرية كانت المصنع الذي هيّأ الكوادر السياسية والفكرية الوطنية التي أخذت تشارك السلطة المحتلة في إدارة مرافق الحياة...حتى أصبحنا ندرس على أيدي أعداء العروبة والإسلام كل شيء، بما في ذلك اللغة العربية وعقائد الإسلام. فكانت الثمرة تيار التغريب الذي علا صوته حتى تفرد بالساحة في المدرسة والجامعة والمنتدى والصحيفة والكتاب والديوان »(١).

هذا على مستوى الدولة والمؤسسات التابعة لها، أمّا على المستوى الجماهيري فإلى حد نهاية ثمانينات القرن الهجري الماضي تقريباً، كانت المنافسة محصورة بين التيار الإسلامي والتيار العلماني القومي. حيث أخذ التيار القومي منذ ذلك الوقت بالانحسار والتراجع لصالح الحركة الإسلامية، خاصة بعد خيبات الأمل الكبيرة، والنكبات والنكسات الشهيرة التي أصابت الشعوب العربية بحكوماتها وأنظمتها الوطنية والقومية العلمانية. حيث خسر العرب الحرب تلو الحرب مع إسرائيل، واستمرت الدول العربية بالتراجع والانحطاط في كل ميادين الحياة، اقتصادية كانت أم علمية، أم سياسية وعسكرية...الخ (٢).

وبدأت الكفة تميل لصالح الإسلاميين الذين سيطروا تقريباً على الشارع العربي، وبدأوا بإعادة طرح مشروعهم الحضاري النهضوي الإسلامي بثوب جديد، ورفع شعار الهوية الإسلامية لحركة التجديد والإصلاح والنهوض.

وفي هذا يقول المفكر العلماني البارز جورج قرم: « حيث برزت تيارات ترى أنّ التضامن الإسلامي هو البديل الأفضل للتضامن العربي المفقود... وأصبح

---

(١) الإسلام وقضايا العصر :محمد عماره/ص٣٧/مصدر سابق.

(٢) ينظر: عروبة الإسلام وعالميته: شبلي العيسمي/ص٥/مصدر سابق.

يستحيل على العالم أن يفرق بين العربي والإيراني والباكستاني والتركي، فالهوية الإسلامية طغت على الهوية العربية، في نظر الكثير من العرب إلى ذاتهم، وفي نظر الآخرين للعرب »[١].

ولكن ما إن بدأ التيار الإسلامي يهيمن على الساحة العربية، وبشهادة العلمانيين أنفسهم– كما رأينا –حتى بدأ خصم آخر بالظهور وإعلان التحدي. يريد فرض سيطرته ليس فقط على الساحة العربية بل على الساحة العالمية كلها. وهذه المرة جاء الخصم من الخارج علناً. يدعو الناس إلى تقبل أفكاره وإلى اعتناقها، وكالعادة وجد له أنصاراً يدعون له ويبشرون به من أبناء جلدتنا وممن يتكلمون بألسنتنا. هذا الخصم والمنافس القوي هو ما اصطلح وتعارف على تسميته بـ (العولمة).

المبحث الثاني

مفهوم الهوية والهوية الإسلامية

الهوية في اللغة:

جاء في لسان العرب: « قال ابن الأعرابي: هُوِيَّة أراد أهْوِيَّة فلما سقطت الهمزة رُدت الضمة إلى الهاء... وفي الحديث: إذا عرستم فاجتنبوا هُوِيَّ الأرض وهي جمع هُوَّة وهي الحفرة والمطمئن من الأرض »[٢].

(١) مشكلة الهوية والانتماء القومي عند العرب:جورج قرم/من على موقع جورج قرم الشخصي على الشبكة:www.Georgescrom.com

(٢) لسان العرب : محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري / دار صادر / بيروت / ط(١) / بدون (ت) / ج(١٥) / ص٣٧٦ .

وفي المنجد: « الهوية: (هو) ضمير للغائب المفرد المذكر، ويقال للمثنى (هما) وجمع المذكر (هم) ويقال للمؤنث المفرد (هي) وللمثنى (هما) وللجمع (هنَّ).

والهوية: حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية. وذلك منسوب إلى (هُوَ).

والهُوْهُوْ: لفظ مركب من هُوَهُوَ، جُعِل جُعِل، اسماً معرفاً باللام ومعناه: الاتحاد بالذات »[1].

الهوية في الاصطلاح:

يُعد موضوع مفهوم الهوية من المواضيع المثيرة للجدل...، حيث يذهب عدد من الباحثين في هذا المجال، إلى أن الهوية تخضع في تعريفها للعلم الذي يحقق فيها، وأنّ لكل علم تعريفه الخاص للهوية يختلف عن تعريفها في العلم الآخر، كعلم النفس وعلم الفلسفة والاجتماع والسياسة وعلم الكلام وغيرها من العلوم الإنسانية المختلفة.

فعلى سبيل المثال يعتقد شريف يونس أنّه: « في كل لحظة تاريخية معطاة، وبصدد كلّ مسألة مطروحة للنزاع بين اتجاهات مختلفة. يدعي كل منهم أنه هو المعبر عن الحقيقة بشأنها. توجد بقعة عمياء يعجز جميع الأطراف بالضرورة عن فحصها، أو الكلام عن حقيقتها، هي بالذات القيمة المشتركة التي يجري حولها النزاع. وفي حالة الهوية سيكون مفهوم الهوية ذاته هو هذه البقعة العمياء، لأنه

---

(١) المنجد في اللغة والأعلام : مجموعة من الباحثين / دار المشرق / بيروت / ط(٣٨) / ٢٠٠٠ / ص٨٧٥ .

سيكون محل تقديس لا تساؤل، فهو بالنسبة لكل الأطراف بديهي غير مختلف على أهميته ووضعه برغم اختلافهم على تعريفه أو وصفه »[١].

ويقول باحث آخر: « إنّ للهوية تعريفات متعددة، حسب العلم الذي يبحث فيها: علم النفس، أو علم الإناسة، أو علم الاجتماع... »[٢].

وتقول هويدا عدلي: « إن الباحث عندما يتعامل مع مفهوم الهوية- على وجه الخصوص- فانّه يتعامل مع مفهوم قلق من الناحية النظرية، يثير أسئلة أكثر مما يقدم إجابات....حيث أنه من أكثر مفاهيم العلوم الاجتماعية شائكية نظراً، لما يثيره من إشكاليات عديدة »[٣].

لكنني عندما رجعت إلى معاجم مصطلحات تلك العلوم الإنسانية، وجدت أنّ الحقيقة غير ذلك تماماً. فجميع العلوم تتبنى مفهوماً متقارباً للهوية، وأنّها جميعها متفقة على أهم شيء في تعريف الهوية، ألا وهو (الخصوصية والتميز عن الغير).

نعم قد يختلف كل علم عن غيره في استعمالات هذا المفهوم، وفي أسلوب صياغته، حسب اللغة الخاصة بكل علم. وهذا شيء طبيعي ولا يؤثر على المفهوم العام للهوية.

---

(١) الهوية وسلطة المثقف في عصر ما بعد الحداثة: شريف يونس/٢٢-١٢-٢٠٠٢م/من الموقع على الشبكة العالمية للمعلومات (الانترنت): www.rezgar.com

(٢) مسألة الهوية في الدستور الفلسطيني/ إبراهيم أبراش/٢٠٠٣م/من على موقع جامعة بيرزيت على الشبكة العالمية للمعلومات: www.hom.birseit.edu

(٣) العولمة والهوية الثقافية في أفريقيا:هويدا عدلي/مجلة دراسات/ليبيا/العدد(١٠)/الخريف ٢٠٠٢م/من على موقع المجلة على الشبكة: www.dirasaat.com

فعلماء الكلام والعقائد، يُعرفون الهوية على أنها: « الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق »[(١)].

وجاء في صدد شرحهم لمفهوم (المعاني) : « هي الصور الذهنية من حيث أنّه وضع بإزائها، الألفاظ، والصورة الحاصلة في العقل من حيث أنّها تقصد باللفظ تسمى مفهوماً، ومن حيث ثبوته في الخارج سميت حقيقة..ومن حيث امتيازها عن الأغيار تُسمى هوية »[(٢)].

وجاء في الكليات في تعريفه لحقيقة الشيء: « ما به الشيء هوهو باعتبار تحققه يسمى حقيقة وذاتاً، وباعتبار تشخصه يسمى هوية »[(٣)].

وفي علم النفس تُعرف الهوية على أنها: « كون الشيء نفسه أو مثيله من كل الوجوه، الاستمرار والثبات وعدم التغير »[(٤)].

وفي علم الفلسفة تُعرف الهوية على أنها: « حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره، وتسمى أيضاً وحدة الذات »[(٥)].

وفي علم الاجتماع كذلك لا يختلف مفهوم الهوية عن ما سبقه من العلوم، فالهوية عنده: «عملية تمييز الفرد لنفسه عن غيره، أي تحديد حالته

---

(١) التعريفات : علي بن محمد الجرجاني/ تحقيق: إبراهيم الأبياري/ دار الكتاب العربي / بيروت/ ط(١) /١٤٠٥هـ/ ج(١) /ص٣٢٠.

(٢) المصدر نفسه/ج(١)/ص٢٨١.

(٣) الكليات : أبو البقاء الكفوي / تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري/ مؤسسة الرسالة / بيروت/ ط(١) /١٩٩٢م/ص٩٦١.

(٤) معجم علم النفس:فاخر عاقل/دار العلم للملايين/بيروت/ط(١)/١٩٨٥م/ص٥٥.

(٥) المعجم الفلسفي: إصدار مجمع اللغة العربية/ الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية/ القاهرة/ ١٩٧٩م/ ص٢٠٨.

الشخصية »[١].

وهكذا نجد أنّ جميع التعريفات التي توردها تلك العلوم الإنسانية، متقاربة من حيث المعنى العام للهوية. غير أنّ الاختلاف الحقيقي في مفهوم الهوية هو عند أصحاب الأفكار والمذاهب السياسية والفكرية، والعلمية المختلفة، وحتى هؤلاء ليس اختلافهم في المفهوم العام للهوية، بقدر ما هو اختلاف في مقومات وعناصر الهوية، وترتيب هذه المقومات أو العناصر حسب الأولوية والأهمية. والإشكالية الأخرى في مفهوم الهوية تنشأ في عملية الانتقاء في التعريف، حيث يكون تعريف الهوية متحيزاً أو مبتسراً أي أنّه يركز على بعض الأمور ويتجاهل أخرى. وهذا يؤدي إلى استبعاد بعض مكونات الهوية أو مقوماتها، مما يترتب عليه استبعاد المنتمين لهذا الجزء، أو الأجزاء المستبعدة، وهذا ما يطلق عليه باكيو: « الوجه المظلم للهوية »[٢].

---

(١) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: أحمد زكي بدوي/ مكتبة لبنان/ بيروت/ ط(١)/ ١٩٧٧م/ ص١٨٥.

(٢)- Bhiku Parekh-Defining Britist National Identity – The political Quartery- Vol ٧١-no ١ – Jan-march ٢٠٠٠ – P. ٤-٥ .

نقلا عن : العولمة والهوية والثقافية في أفريقيا : هويدا عدلي/ مصدر سابق . (١) Sasja Tempelman – construction of cultural identity – multiculturalism and Exclusion – political studies vol ٤٧ – no١ march ١٩٩٩

نقلا عن : العولمة و الهوية و الثقافية في أفريقيا : هويدا عدلي / مصدر سابق .

ويتفق ساسجا مع باكيو – وكلاهما باحثان متخصصان في الـشؤون الـسياسية و الدولية – في أنّ عمليات الضم و الاستبعاد، هما جوهر إشكالية تعريف الهوية فـي أي مجتمع[١] .

وإننا إذ جئنا إلى الأدبيات المعاصرة، وجدنا أنّ كلمة (الهُوِيّة) تستعمل لأداء معنى كلمة (identite-identitiy) في اللغتين (الانكليزيـة و الفرنـسية) علـى التوالي – و التي تُعبِّر عن معنى خاصية المطابقة: « مطابقـة الـشيء لنفـسه أو مطابقته لمثليه ».

ولذلك فأننا إذا اعتمدنا على المفهوم اللغوي لكلمة (هُوِيّة)، أو اعتمدنا علـى استعمالاتها في معاجم العلوم الإنسانية المختلفة – كما ذكرنا سابقاً– فـأن المعنـى العام للهوية لا يتغير. ففي(لسان العرب) يُشار إلى أنّ (الهُوِيّة) جمع هُوّة ... وهـي الحفرة والمطمئن من الأرض. فنستطيع أن نستنتج من هذا القول أنّ الهويـة هـي الشئ الذي تسكن إليه وتطمئن إليـه، وتـشعر مـن خلالـه بالحمايـة والأمـان، والتميز،فهو يخصك أنت ولا يخص غيرك من غير المنتمين إليه.

وهذا المعنى هو ما تشير إليه تعريفات العلوم الإنسانية المختلفـة، لمفهـوم الهوية – التي أوردناها سابقاً– فهي تشتمل على الامتياز عـن الغيـر، والمطابقـة للنفس أو للمثيل، أي خصوصية الذات وما يتميز به الفرد والمجتمع عن الأغيـار، من خصائص وميّزات وقيم ومقومات. فميّزات الفرد هي هويته، وميزات الجماعة هي هوية الجماعة، فالهوية: «مصطلح استعمله العرب والمسلمون القـدماء. وهـو منسوب إلى هو. وهذه النسبة تشير إلى ما يحمله من مضمون.. وبعبـارة أخـرى نستطيع أن نقول أنّ الهوية الحضارية لأمّة من الأمم ، هيا القدر الثابت والجوهري

---

(١) الموسوعة الفلسفية العربية – معهد الإنماء العربي – بيروت – ط(١) – ١٩٨٦ المجلد (١) – ص ٨٢١ .

والمشترك من السمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمّة عن غيرها من الأمم والحضارات »[١] .

مفهوم الهوية الإسلامية:

إنّ تحديد المفاهيم من الوسائل المهمة في البحث العلمي، وذلك لأنّها تنشئ اللبنة الأولى في الأساس الذي تبنى عليه الحجج و البراهين التي تدعم الآراء و الأفكار المطروحة في البحث.

ومفهوم **الهوية الإسلامية** لا يخرج عن هذا النطاق، فإذا أردنا أن نعطي تعريفاً عاماً لهذه الهوية، فإننا نستطيع أن نقول أنّها تعني: **الإيمان بعقيدة هذه الأمة، و الاعتزاز بالانتماء إليها، واحترام قيمها الحضارية والثقافية، وإبراز الشعائر الإسلامية والاعتزاز والتمسك بها، والشعور بالتميز والاستقلالية الفردية و الجماعية، والقيام بحق الرسالة وواجب البلاغ و الشهادة على الناس و هي أيضاً محصلة و نتاج التجربة التاريخية لأمة من الأمم وهي تحاول إثبات نجاحها في هذه الحياة.**

وبما أنّ لكل هوية سماتها ومقوماتها، فإنّ من أهم سمات الهوية الإسلامية:

أولا: أنّها هوية متميزة عن غيرها من الهويات، وهذا التميز هو الذي يعطي كل جماعة أو أمّة مقومات بقائها ويحفظ لها ثقافتها وخصوصيتها، فلا يذوبون في ثقافات أو هويّات غيرهم من الأمم.

ثانيا: أنّ الهوية الإسلامية، تستوعب حياة المسلم كلها، وكل مظاهر شخصيته، فهي تامة الموضوع، محددة المعالم، واضحة الملامح. تحدد لحاملها وبكل دقة ووضوح، وظيفته وهدفه وغايته في هذه الحياة.

---

(١) الهوية الحضارية – محمد عمارة – مجلة المحاور – (النمسا) – ص٣٣

فوظيفة المسلم نجدها في قــوله تعــالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(١). فالعبادة بكل أنواعها المادية و المعنوية، هي الوظيفة الأولى و المطلب الأول من المسلم، القيام في هذه الحياة. **والهدف** نجده في قــوله تعــالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(٢). وقــوله تعــالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾(٣).

فهدف المسلم في هذه الحياة، هو النجاح في حمل الأمانة، أمانة الخلافة على هذه الأرض وعمارتها، وقيادة البشرية لما فيه الخير و السعادة لهم في الدنيا والآخرة.

وغاية المسلم من كل هذا، الفوز برضا الله سبحانه و تعالى و نيل ثوابه في الآخــرة، قــال الله تعــالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾(٤).

ثالثا: ومن سمات الهوية الإسلامية أيضا، أنّها تجمع وتوحد تحــت لوائهــا جميع المنتسبين إليها، و تربط بينهم برباط وثيق. قــال الله تعــالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(٥). ويقول ﷺ في خطبة له وســط أيام التشريق:

---

(١) سورة الذاريات / الآية (٥٦)

(٢) سورة البقرة / من الآية (٣٠)

(٣) سورة الأحزاب / الآية (٧٢) .

(٤) سورة الفتح / الآية (٥)

(٥) سورة الحجرات / من الآية (١٠)

(يا أيّها الناس ، ألا إنّ ربكم واحد، و إنّ أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي ، و لا لأحمر على أسود، و لا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى)[1]. ويقول ﷺ أيضاً: (مثل المؤمنين في توادهم و تراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى)[2].

أمّا مقومات الهوية الإسلامية التي نؤمن بها، فهي حسب الأهمية بالنسبة لمشروعنا الحضاري النهضوي الإسلامي، تتمثل بالاتي:

المقوم الأول: العقيدة الإسلامية كمرجع أول ومصدر أساسي لحضارتنا وفكرنا وسلوكنا وولائنا ونهضتنا، كون العقيدة الإسلامية المقوم الأهم والأكبر الذي يجمعنا مع مختلف شعوب وقوميات وأمم العالم الأخرى الداخلة في الدين الإسلامي حيث ينضوي تحت لوائها كل مسلم أياً كان لونه أو لغته أو المكان الذي يتواجد فيه، فتُحيل الجميع تحت معتقد واحد هو (الإسلام) وتحت مسمىً واحد هو(المسلمون).

المقوم الثاني: ومن مقومات هويتنا الإسلامية، عروبتنا ولغتنا العربية، لغة القرآن الكريم. نعم فالعروبة عامل يجمع ويشمل جميع المسلمين على اختلاف قومياتهم، ذلك إنّ كل مسلم هو عربي بالضرورة،

---

(١) مسند أحمد : أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني / مؤسسة قرطبة / مصر/ بدون (ت) / ج (٥) / ص٤١١ / رقم الحديث (٢٣٥٣٦) .

(٢) صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري / تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي / دار إحياء التراث العربي / بيروت / بدون (ت) / ج (٤) / ص١٩٩٩ / رقم الحديث (٢٥٨٦).

فلا يحتاج المسلم لأن يكون عربياً في النسب حتى تكمل عروبته في نظر الإسلام.

جاء في الحديث الشريف عنه ﷺ: (مولى القوم منهم)[1]. وقوله ﷺ: (والولاء لحمة كلحمة النسب) [2].

وعندما اختلف المهاجرون والأنصار في موضوع الصحابي الجليل سلمان الفارسي ﷺ كلٌ يريد أن يتشرف بانتساب سيدنا سلمان إليه فقال المهاجرون: سلمان منّا، وقال الأنصار: سلمان منّا، قال الرسول ﷺ : (سلمان منا أهل البيت) [3] .

ثم إن علاقة الإسلام بالعروبة ليست علاقة عادية، فالإسلام مرتبط بالعروبة، والعروبة مرتبطة بالإسلام. والعرب لهم خصوصية في نظر الإسلام، بحكم عروبة القرآن، وعروبة النبي صلى الله عليه وسلم وعروبة حملة الدعوة الأوائل ومن أنزل الدين فيهم ومن تحمل أعباءه وإيصاله إلى الناس كافة و قد وصلت درجة ومكانة العرب في الدين الإسلامي أن جعل حبهم والولاء لهم ، جزءاً من الإيمان ، ونقيض هذا يُعد جزءاً من النفاق.

من ذلك قوله ﷺ : (حب العرب إيمان وبغضهم نفاق) [4] وأيضاً قوله ﷺ لسلمان الفارسي ﷺ : (ثم يا سلمان ، لا تبغضني فتفارق دينك ، فقلت يا رسول

---

(١) السنن الكبرى:أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي / تحقيق : د. عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن / دار الكتب العلمية / بيروت / ط (١) / ١٤١١ هـ / ج (٢)/ ص ٥٨ / رقم الحديث (٢٣٩٤) .

(٢) المستدرك على الصحيحين : محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري / تحقيق : د. مصطفى عبد القادر عطا / دار الكتب العلمية / بيروت / ط (١) / ١٩٩٠م / ج (٤) / ص ٣٧٩ / رقم الحديث(٧٩٩٠) .

(٣) المرجع نفسه / ج (٣) / ص ٦٩١ / رقم الحديث (٦٥٤١) .

(٤) المرجع نفسه / ج (٤) / ص ٩٧ / رقم الحديث (٦٩٩٨) .

الله صلى الله عليه وسلم وكيف أبغضك وبك هداني الله عز وجل . قال تبغض العرب فتبغضني) [١].

كذلك يحث الإسلام على تعلم اللغة العربية، حيث أنّ لها فضلاً على سائر الألسن، ولأنّها لسان أهل الجنة، ويثاب المسلم على تعلمها وعلى تعليمها غيره[٢].

إلى درجة أنّ بعض العلماء قد قالوا بوجوب تعلم المسلم للغة العربية، فلا سبيل إلى فهم الدين و القيام بفرائضه إلاّ بها: « إنّ الله لمّا أنزل كتابه باللسان العربي و جعل رسوله مبلغاً عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي، و جعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به، لم يكن سبيل إلى ضبط الدين و معرفته إلاّ بضبط هذا اللسان و صارت معرفته من الدين »[٣].

فلا يتصور وجود مسلم لا يفقه ولو شيئاً قليلاً من اللغة العربية يقيم بها أركان دينه، وعليه تكون العروبة واللغة العربية معلماً أساسيا بارزاً من معالم الهوية الإسلامية يشترك فيها جميع المسلمين على اختلاف قومياتهم و أعراقهم.

المقوم الثالث: ثم يأتي بعد ذلك التأريخ المشترك الذي ساهم في صناعته أبناء الإسلام من العرب وغيرهم، لا بل كان لغير العرب من المسلمين ادوارٌ رئيسية وفاعلة في صياغة مجريات الأحداث التي مرت بها أمتنا الإسلامية. و كان لهم محطات مُضيئة

---

(١) المرجع نفسه / ج (٤) / ص ٩٧ / رقم الحديث (٦٩٩٥) .

(٢) ينظر : الموسوعة الفقهية / لمجموعة من العلماء / صادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / الكويت / ج(٣٠) / ص ٢٧٢ .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم : احمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني / تحقيق محمد حامد الفقي / مطبعة السنة المحمدية / القاهرة / ط (٢) / ١٣٦٩ هـ / ج (١) / ص ١٦٢.

ومواقف مشرفة، ساهمت و بشكل فعال ومؤثر في تغيير مجرى حياة الأمة الإسلامية.

فأيّ عربي مسلم، وأيّ مؤرخ منصف لا يستطيع أن يتجاوز أو أن يهمل أو يتناسى دور البربري المسلم طارق بن زياد الذي قاد جيش المسلمين من العرب وغيرهم وفتح بلاد الأندلس، وفتح بهذا صفحة جديدة في تأريخ الإسلام، بل وفي التأريخ الأوربي والإنساني أيضاً، إذ قامت هناك في جنوب أوربا دولة وحضارة إسلامية ما يقارب من ثمانية قرون عدها الكثير من المؤرخين والمفكرين واحدة من أرقى الحضارات التي عرفتها الإنسانية(١) .

ولا يستطيع أحد أن ينسى دور الفارسي المسلم محمد بن إسماعيل البخاري الذي ألّف كتاباً جمع فيه عدداً من أحاديث النبي ﷺ ، اعتمده العلماء العرب المسلمون، فيما بعد كأصحّ كتاب بعد القرآن الكريم، يعتمدون عليه في أمور دينهم.

وكل مسلم مازال إلى الآن يتغنى بالقائد الكردي المسلم صلاح الدين الأيوبي و يمني نفسه بظهور مثيل له يعيد إلى الأمّة كرامتها وعزتها كما فعل صلاح الدين.

إذن فتأريخ الإسلام ملك لجميع المسلمين لأنّهم جميعاً ساهموا فيه، و أيّ شخص من أيّة جنسية أو قومية يدخل إلى دين الإسلام، يحقّ له أن يتفاخر و يتغنى بتأريخ الإسلام العظيم، وأن يعد نفسه مساهماً فيه وجزءاً منه.

المقوم الرابع: التراث والذي يعد أحد المرتكزات الأساسية للهوية، ونعني بالتراث: «النتاج الحضاري الذي ينحدر من خصائص أمّة من الأمم المتفاعلة مع البيئة التي نشأت فيها، بكل ما تحتويه

(١) ينظر بخصوص هذا الموضوع: تأريخ الإسلام في الأندلس: محمد عبد الله عنان / مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة / ط (٣) / ١٩٦٠م .

من تجارب وأحداث صبغتها بصبغة خاصة، وأسبغت عليها ملامحها الثقافية ومميزاتها الحضارية التي تميزها عن الأمم الأخرى التي لها بدورها أنماط حياتها وأعرافها وتقاليدها»[1].

وبما أنّ التّراث في أيّة أمّة من الأمم يعني أيضاً: « مكوناتها التاريخية، وأنّه كلما أمتد هذا التراث عمقاً في التأريخ ترسخ وجود الأمّة طبيعياً في كينونتها وهويتها »[2].

فإنّ إهماله أو اختراقه من قِبَل الآخر، يعني بأنّ هذه الجماعة أو الأمّة، قد اخترقت هويتها وفي طريقها إلى الذوبان والاضمحلال.

وبما أنّ الجدل الواسع الذي دار و لا يزال يدور في أوساط المفكرين حول الموقف الصحيح من التراث والمعاصرة، ما بين متمسك بكل أشكال الماضي ورافض لكل أشكال المعاصرة، و ما بين داعٍ إلى نبذ ما يسمى بالتراث و الماضي وداعٍ إلى الأخذ بل وتقديس كل ما تأتي به الحداثة أو المعاصرة، وما بين طرف ثالث يحاول التوفيق – وأحيانا التلفيق – بينهما، فقد دعت الضرورة إلى موقف فكري محدد من المخزون التراثي الهائل لأمّتنا الإسلامية وكيفية التعاطي والتعامل معه في زمن الحداثة وما بعد الحداثة.

---

(١) تجديد الفكر الإسلامي : محسن عبد الحميد / المعهد العالمي للفكر الإسلامي / فيرجينيا / الولايات المتحدة الأمريكية / ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م / ص٢٦.

(٢) المستقبل يتعلق بالماضي / علي فهيم خشيم / مجلة الوحدة (المغرب) /السنة (١٠)/العدد (١٠٥)/مارس/١٩٩٤م. نقلاً عن : جدلية الثابت و المتحرك : عبد الله الفريجي/ مصدر سابق.

وهذا الموقف لا بد له في البداية من أمرين؛ **الأول** : الفهم العميـق للتـراث والمعرفة الواعية بمكنوناته .... **والأمر الآخر**: القدرة على استـشراف المـستقبل ومتابعة احتمالاته و إمكاناته اللانهائية .

فعلى سبيل المثال : إذا كان الحاضر والمستقبل العالمي ، أيّ روح العصر الحالي، يقوم على دعامة العلم و تطبيقاته المختلفـة فـي النـواحي التكنولوجيـة والمنهجية المعلوماتية؛ فإن موقفنا من التراث ينبغي له ألا يهدر هذه الحقيقة ومـن هنا كان تقسيمنا للتراث وفقاً لهذه الأشكال الثلاثة :

١- **التراث الفاعل**: وهو ذلك الجانب من التراث الذي من شـأنه أن يفعـل، ويمهد للفعل، في حاضرنا ومستقبلنا.. فإذا كنّا نعيش عصر العلم، ونتهيـأ لدخولـه والمشاركة فيه فإنّ التراث (الفاعل) في هذه الحالة هو التـراث العلمـي العربـي الإسلامي. صحيح أنّه لن يقدم إجابات عن تساؤلات العلم الحاليـة ولـن يـصوغ مخترعات تكنولوجية متقدمة، ولا نظم معلومات ، ولكن هذا التراث من شأنه أيضاً -أي التراث الفاعل- الإقلال من النزعة الدونية التي تسيطر على الوعي العربـي تجاه الغرب، بمعرفة إنّ العقلية العربية ساهمت في صياغة العلم الغربي المعاصر، وكانت إحدى مقدماته الأساسية .

٢- **التراث الخامل**: ونعني به ذلك التراث الذي فقد أهميته مع مـرور الـزمن واختلاف الأحوال الحضارية، وإن كان له في الماضي شأن عظيم أدى إلى اتساعه لكنّه اليوم (خامل) بالنسبة لمقتضيات العصر. ومثاله مباحث الـسيمياء والكيميـاء السحرية، لأنّ هذه المباحث اختلطت فيها المعارف الطبيعية بالرموز والإشـارات المبهمة والإيماءات التي لا تقع لها في معرفتنا الحالية على دلالة محـددة. ومـن التراث الخامل أيضاً مباحث علم الكلام الطويلة التي لا تنتهي، مثل مباحث الـذات الإلهية والصفات... والتي هي عبارة عن جدل في جدل.

فهذه تراثيات في ذمة التاريخ، ليس من شأنها أن تفعل فعلاً في عقلنا المعاصر، ولا تثمر دراستها في شيء، اللهم إلاّ من حيث كونها درس في التأريخ ومتحفياته الثقافية.

٣- **التراث القاتل:** ونعني به ذلك الجانب من التراث، الذي لا يؤدي إلى فعالية في العقلية المعاصرة (كما هو الحال في التراث الفاعل) ولا يؤدي إلى ضياع الوقت والجهد دون ثمار مرجوة (كما هو الحال في التراث الخامل) وإنّما يؤدي إلى أذى بالغ بالتكوين الفكري العلمي والحضاري بوجه عام لهذه الأمّة ومن أمثلة هذا التراث القاتل: فنون السحر والشعوذة والتنجيم. فهذا النوع من التراثيات ليس ما شأنه سوى تخدير العقلية المعاصرة والإلقاء بها في متاهة الخرافة(١).

فموقفنا من التراث يجب أن يكون منطلقاً من هذه النظرة له، والتي توفق برأي الباحث- بين المحافظة على التراث، والاستفادة منه في بناء الحاضر والمستقبل، وبين متطلبات ومستجدات العصر.

المقوم الخامس: الوحدة الثقافية المشتركة بين أبناء هذه الأمّة، وهذه الوحدة الثقافة هي بالأساس نابعة من المقومات الأربعة السابقة، ومستندة عليها، فالأمّة التي يربطها ويجمعها ويوحد بينها دين واحد ولغة واحدة وتأريخ مشترك وتراث ساهم الجميع في صنعه، لا بد وأن تكون لها ثقافتنا الخاصة وفلسفتها المتميزة في النظر إلى الكون وخالقه والحياة والمجتمع والآفاق، وحتى طبيعة سير هذه الحياة والقوانين والسنن التي تحكمها، والمصير الذي ستنتهي إليه(٢) .

---

(١) ينظر: التراث العربي من التثقيف إلى المثاقفة: يوسف زيدان/ بتصرف بسيط / من على موقعه الشخصي على الشبكة:www.ziedan.com

(٢) ينظر: مذهبية الحضارة الإسلامية وخصائصها : محسن عبد الحميد / ص ٢٥-٣٥ / مصدر سابق .

فهذه الوحدة أو العوامل الثقافية، يشترك فيها ويجتمع عليها جميع أبناء الأمّة الإسلامية، وهي بهذا تميزهم عن غيرهم من باقي الأمم والشعوب والحضارات.

المقوم السادس: ومن مقومات الهوية الإسلامية أيضا، هو ما يمكن أن نطلق عليه اسم (التكوين النفسي المشترك)[(١)]. ويشمل العادات والتقاليد والأخلاق والمشاعر والأحاسيس والأعياد ومناسبات الأفراح والأحزان ومقاييس الذوق والجمال والحب والطعام والشراب واللباس والروابط الأسرية التي تصل -في كثير من الأحيان - درجة التقديس، كل هذه وغيرها من الأمور التي تتصف وتتميز بها الجماعة التي تحمل الهوية الإسلامية وتنتمي إليها، والتي كان للدين الإسلامي الدور الأعظم في تشكيلها وصقلها وتهذيبها[(٢)].

صحيح أنّ كثيراً من هذه الصفات والشمائل مشتركة مع بعض الهويات الأخرى وبنسب متفاوتة من حيث الكم والنوع والتطبيق. وصحيح أنّها تختلف قليلاً من قومية إلى أخرى ومن شعب إلى آخر ومن بيئة إلى أخرى. إلاّ أنّ درجة التقارب والتشابه الكبيرة لهذه الصفات والعادات بين أبناء الأمّة الإسلامية في كافة أنحاء المعمورة على اختلاف قومياتهم وأوطانهم، وأيضاً درجة التمسك والاعتزاز

---

(١) الأمة العربية وقضية الوحدة : محمد عمارة / دار الوحدة / بيروت/ ط(٣) / ١٩٨١م / ص ١٤٦.

(٢) يذهب المفكر الإسلامي محمد عمارة إلى أن ٩٩% من العادات والتقاليد الموجودة الآن في البلاد العربية والإسلامية ترجع إلى الإسلام..ويرى-الباحث-بأن هذه النسبة وهذه النظرة المتفائلة فيها مبالغة، ذلك أن الكثير من العادات والتقاليد الموجودة الآن في البلاد العربية والإسلامية والتي تطيع عليها الناس، لا تمت إلى الإسلام بصلة، إن لم تكن مخالفة لتعاليمه. ينظر: الأمة العربية وقضية الوحدة : محمد عمارة /ص١٥١/مصدر سابق.

الكبيرة بهذه الصفات والعادات، يجعلنا نثق ونطمئن لضمها إلى جانب المقومات الأخرى للهوية الإسلامية. مع التنبيه إلى أنّ هذا النوع من المقومات يقبل التغيير والتطوير والتعديل، حسب الأحوال والظروف والأزمنة والأمكنة والمصالح.

المقوم السابع: من مقومات الهوية الإسلامية، التمسك والاعتزاز بهذه الهوية، وهو من الركائز الأساسية، والذي بدونه أو بهشاشته تكون الهوية معرضة لخطر الذوبان في الهويات الأخرى، وبالتالي السقوط الحضاري لهذه الأمّة. « فما من مدنية تستطيع أن تزدهر أو أن تظل على قيد الوجود، بعد أن تخسر إعجابها بنفسها وصلتها بماضيها »[١] .

إذن فأي تضييع أو تهاون في موضوع الهوية، يودي بالأمة إلى حالة من الشعور (بمركب النقص) تجاه الآخر المنتصر أو الغالب، حيث أنه يعتقد فيه الكمال. كما يذهب إلى ذلك العلامة ابن خلدون[٢]. وهذا ما يقود الأمّة إلى ما أسماه مالك بن نبي (القابلية للاستعمار)[٣] والذي هو الخطوة الأكبر و الأعظم في طريق السقوط الحضاري للأمّة.

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق : محمد أسد / ترجمة عمر فروخ و مصطفى الخالدي / دار العلم للملايين / بيروت / ط(٤) /١٩٦٢م / ص ٨٤ .

(٢) ينظر : مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون / دار القلم / بيروت / ط (٥) / ١٩٨٤م / ص١٤٧.

(٣) وجهة العالم الإسلامي : مالك بن نبي / مصدر سابق / ص١٠٥

المبحث الثالث:

الأدلة الشرعية على

فريضة التمسك والاعتزاز بالهوية الإسلامية

يقول الرسول ﷺ في الحديث الشريف موجهاً كلامه إلى الأمّة الإسلامية في كل زمان وكل مكان: (إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يُردا عليّ الحوض)(١).

لو رجعنا إلى القرآن الكريم وإلى السُنّة النبوية المطهرة فسوف نجد الكثير من الآيات والأحاديث التي تدعوا إلى ضرورة التمسك والاعتزاز بالهوية الإسلامية وتؤكد عليها. وهذا يدل على الموقع المهم، الذي يريد الإسلام أن يشغله هذا الموضوع في حياة الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمّة الإسلامية ككل.

ففي القرآن الكريم نجد سورة البقرة غنية وغزيرة بهذه المعاني، فالآيات من (١٠٤-١٤٥) جميعها تتحدث لنا عن وجوب التمسك و الاعتزاز بديننا وشريعتنا، وهويتنا الخاصة، والتمسك والاعتزاز أيضاً بمنهجنا وسلوكنا الخاص الذي وضعه لنا ربنا ﷻ أو سنّه لنا نبينا ﷺ وعلمنا إيّاه. ويحذرنا في الوقت نفسه من خطورة ترك هذا المنهج والسلوك والتشبه بالكافرين والمشركين ليس فقط في الاعتقاد بل حتى في التشريع والأفعال والأقوال لما في ذلك من خطر كبير علينا، قد يصل إلى درجة الخروج عن هذا الدين وهو ما يريده المشركون، ولا يرضون بديلاً عنه.

---

(١) المستدرك على الصحيحين : محمد بن عبد الله الحاكم / ج (١) / ص ١٧٢ / رقم الحديث (٣١٩) / مصدر سابق.

ونلاحظ إنّ هذه الآيات منها ما يتحدث عن موضوعنا بصورة مباشرة ومنها ما يتّحدث عنه بصورة غير مباشرة، فيدور في فلكه ويتبعه، وقد وجدت أنّ الشهيد سيد قطب في تفسيره قد أكدّ على أنّ موضوع التمسك بالهوية الإسلامية و الاعتزاز بها هو الموضوع الرئيسي الذي تتحدث عنه هذه الآيات، إذ يقول: « فأمّا المادة الأساسية لهذا الجزء، ولبقية السورة، فهي إعطاء الجماعة المسلمة خصائص الأمّة المستخلفة، و شخصيتها المستقلة. المستقلة بقبلتها وبشرائعها المصدقة لشرائع الديانات السماوية قبلها والمهيمنة عليها، وبمنهجها الجامع الشامل المتميز كذلك.. وقبل كل شيء بتصورها الخاص للوجود والحياة، ولحقيقة ارتباطها بربها، ولوظيفتها في العارض وما تقتضيه هذه الوظيفة من تكاليف في النفس والمال، وفي الشعور والسلوك، و من بذل وتضحية... »[1].

وإذا أخذنا على سبيل المثال من هذه الآيات قوله ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] .

نجد أنّ الدعوة هنا واضحة و صريحة من الله ﷻ للمؤمنين بالنهي عن التشبه بالمشركين أو تقليدهم، فيدعوهم إلى منهج وسلوك وأفعال وحتى أقوال، خاصة بهم. ففي هذه الآية: « يتجه الخطاب إلى (الذين آمنوا) يناديهم بالصفة التي تميّزهم، والتي تربطهم بربهم ونبيهم، والتي تستجيش في نفوسهم الاستجابة والتلبية.

(١) في ظلال القران : سيد قطب/دار الشروق/ بيروت/القاهرة/ط (١٥)/ ١٤٠٨ هـ/ م (١) / ج (٢) /ص ١٢٣ .

(٢) سورة البقرة / من الآية ١٠٤ .

وبهذه الصفة ينهاهم أن يقولوا للنبي ﷺ (راعنا) - من الرعاية والنظر- وأن يقولوا بدلاً منها مرادفها في اللغة العربية (أنظرنا) .. ويـأمرهم بالـسمع بمعنـى الطاعة...والسبب في ذلك النهي. أنّ سفهاء اليهود كانوا يميلون ألسنتهم في نطـق هذا اللفظ، وهم يوجهونه إلى النبي ﷺ، حتى يؤدي معنى آخر مشتقاً من الرعونة... ومن ثم جاء النهي للمؤمنين عن اللفظ الذي يتخـذه اليهـود ذريعـة، وأُمـروا أن يستبدلوا به مرادفه في المعنى ، الذي لا يملك السفهاء تحريفه وإمالته، كي يفوتـوا على اليهود غرضهم السفيه الصغير »[1].

وأيضـاً نجـد في قـوله ﷻ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[2].

نجد التنبيه والتحذير وأيضاً التهديد والوعيد من الله ﷻ للرسول ﷺ ، ولأمته بأنّهم لا يجدر بهم ولا يحق لهم أن يتبعوا أو يقتفوا أثر أهل الكتاب لأنّهم على باطل ولأنّ شريعتك يا محمد هي الحقّ ، فأنت أحقّ أن تُتّبع. وأنّهم مهما تـوددت إلـيهم وحاولت معهم ولنت لهم فلن يتبعوك ولن يرضوا عنك، إلاّ إذا تبعتهم أنت ووافقتهم على ما يريدونه ويهوونه هم، لا ما يريده الله سبحانه ويشاءه، وهذا محال منك يـا محمد ومن أمتك.

وقد وعى الرسول ﷺ هذا الأمر، نجد هذا في الحديث الشريف: (أنّ عمر بن الخطاب ﷺ أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقال يا رسـول الله:

---

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب / م(١) / ج(١) /ص١٠٠ / مصدر سابق .

(٢) سورة البقرة / الآية (١٢٠) .

إنّي أصبت كتاباً حسناً من بعض أهل الكتاب. قال: فغضب. وقال: أمتهوكون فيها يا أبن الخطاب فوالذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلاّ أن يتبعني)[١].

ويقول العلاّمة ابن كثير عن هذه الآية: « وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله سبحانه، في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحقّ... وقل يا محمد إنّ هدى الله الذي بعثني به هو هذا الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل... وفي قوله تعالى، ولئن أتبعت أهواءهم... تهديد ووعيد شديد للأمّة عن إتباع طرائق اليهود والنصارى، بعد ما علموا من القرآن والسنّة – عياذاً بالله من ذلك – فإن الخطاب مع الرسول ﷺ ، والأمر لأمته »[٢].

وهناك أيضاً حادثة تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، التي تُعد من أهم الأدلة على فريضة التميز والاختصاص– وهما لبّ وجوهر موضوع الهوية – الذي يريده الله ﷻ ويريده رسوله، للأمّة المسلمة . قال ﷻ :﴿ **قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** ﴾[٣].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبه : أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبه الكوفي/ تحقيق : كمال يوسف الحوت / مكتبة الرشد / الرياض / ط(١) / ١٤٠٩هـ / ج(٥) / ص٣١٢ / رقم الحديث (٢٦٤٢١) .

(٢) تفسير القرآن العظيم:إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء/دار الفكر/بيروت/١٤٠١هـ/ج(١)/ص١٦٤.

(٣) سورة البقرة / الآية (١٤٤).

لقد كان ﷺ، يحبُّ ويتمنى أن تتحول القبلة إلى المسجد الحرام لكي يخالف اليهود والنصارى، ويصبح للمسلمين قبلتهم الخاصة، وهي قبلة أبيهم إبراهيم عليه السلام من قبل، فهم أحقّ بها، لأنّهم على منهجه وعقيدته، وهم الأحقّ بوراثة قبلته، من أهل الكتاب الذين ابتعدوا عن دين إبراهيم وعن ديانة التوحيد، التي جاء بها كل الأنبياء. وقد نال موضوع تغيير القبلة أهمية ومكانة خاصة سواء في القرآن الكريم – حيث وردت أكثر من آية تتحدث عن هذا الموضوع – أم في فكر النبي ﷺ. جاء في تفسير البيضاوي حول هذه الآية: « قد نرى تقلب وجهك في السماء، تردد وجهك في جهة السماء تطلعاً للوحي. وكان رسول الله ﷺ يقع في روعه ويتوقع من ربه أن يحولّه إلى الكعبة، لأنّها قبلة أبيه إبراهيم، وأقدم القبلتين، وأدعى للعرب إلى الإيمان، ولمخالفة اليهود، وذلك يدل على كمال أدبه حيث انتظر ولم يسأل »[1].

وجاء في تفسير ابن كثير: « إنّ رسول الله ﷺ ، لما هاجر إلى المدينة أمره الله سبحانه، أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود! فاستقبلها رسول الله ﷺ ، بضعة عشر شهراً، وكان ﷺ ، يُحِبّ قبلة إبراهيم ، فكان يدعو الله ، وينظر إلى السماء فأنزل الله ﷻ فولّوا وجوهكم شطره.. »[2].

وحول موضوع تحويل القبلة، ودوره في تثبيت التميز والاختصاص للأمّة المسلمة، وأن يكون لها هويتها الخاصة، وخصوصيتها المستقلة ليس فقط في المنهج والاعتقاد ولكن حتى في السلوك والعبادات الظاهرة وأشكال الحياة المختلفة، حول

(١) تفسير البيضاوي : ناصرالدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي / دراسة وتحقيق: عبد القادر عرفان العشا / دار الفكر / بيروت / (١٤١٦هـ-١٩٩٦م) / ج(١) / ص٤٢٠ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : مصدر سابق / ج(١) / ص١٩٠ .

هذا الموضوع تكلم الأستاذ الشهيد سيد قطب بكلام نفيس، جاء فيه: « إنّ الاختصاص والتميز ضروريان للجماعة المسلمة: الاختصاص والتميز في التصور والاعتقاد، والاختصاص والتميز في القبلة والعبادة. وهذه كتلك لا بد من التميز فيها والاختصاص. وقد يكون الأمر واضحاً فيما يختص بالتصور والاعتقاد، ولكنه قد لا يكون بهذه الدرجة من الوضوح فيما يختص بالقبلة وشعائر العبادة.. وهنا تُعرَض التفاتة إلى قيمة أشكال العبادة. إنّ الذي ينظر إلى هذه الأشكال مجردة عن ملابساتها، ومجردة كذلك عن طبيعة النفس البشرية وتأثراتها.. ربما يبدو له أنّ في الحرص على هذه الأشكال بذاتها شيء من التعصب الضيّق، أو شيءً من التعبد للشكليات ! ولكن نظرة أرحب من هذه النظرة، وإدراكاً أعمق لطبيعة الفطرة، يكشفان عن حقيقة أخرى لها كل الاعتبار.

« إنّ في النفس الإنسانية ميلاً فطرياً- ناشئاً من تكوين الإنسان ذاته من جسد ظاهر وروح مُغيّب – إلى اتخاذ أشكال ظاهرة للتعبير عن المشاعر المضمرة. فهذه المشاعر المضمرة لا تهدأ ولا تستقر حتى تتخذ لها شكلاً ظاهراً تدركه الحواس ، وبذلك يتم التعبير عنها . يتم في الحس كما تم في النفس. فتهدأ حينئذ وتستريح، وتُفرغ الشحنة الشعورية تفريغاً كاملاً، وتحس بالتناسق بين الظاهر والباطن، وتجد تلبية مريحة لجنوحها إلى الأسرار والمجاهيل وجنوحها إلى الظواهر والأشكال في ذات الأوان. وعلى هذا الأساس الفطري أقام الإسلام شعائره التعبدية كلها – فهي لا تؤدى بمجرد النية، ولا بمجرد التوجه الروحي- ولكن هذا التوجه يتخذ له شكلاً ظاهراً: قياماً واتجاهاً إلى القبلة وتكبيراً وقراءةً وركوعاً وسجوداً في الصلاة. وإحراماً من مكان معين..الخ. وهكذا في كل عبادة حركة، وفي كل حركة عبادة. ليؤلف بين ظاهر النفس وباطنها، ويُنسّق بين طاقاتها، ويستجيب للفطرة بطريقة تتحقق مع تصوره الخاص..

ولم يكن بُدّ من تمييز المكان الذي يتجه إليه المسلم بالصلاة والعبادة وتخصيصه كي يتميز هو ويتخصص بتصوره ومنهجه واتجاهه.. فهذا التميز تلبية للشعور بالامتياز والتفرد، كما أنه بدوره يُنشئ شعوراً بالامتياز والتفرد.

ومن هنا كذلك كان النهي عن التشبه بمن دون المسلمين في خصائصهم ، التي هي تعبير ظاهر عن مشاعر باطنه كالنهي عن طريقتهم في الشعور والسلوك سواء . ولم يكن هذا تعصباً ولا تمسكاً بمجرد شكليات. وإنّما كان نظرة أعمق إلى ما وراء الشكليات - كان نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الإشكال الظاهرة - وهذه البواعث هي التي تُفرّق قوماً عن قوم، وعقلية عن عقلية، وتصوراً عن تصور، وضميراً عن ضمير، وخُلقاً عن خُلق، واتجاهاً في الحياة عن اتجاه ...

فالرسول ﷺ نهى عن تشبهٍ في مظهر أو لباس . ونهى عن تشبهٍ في حركة وسلوك. ونهى عن تشبهٍ في قول أو أدب. لأنّ وراء هذا كله، ذلك الشعور الباطن الذي يميز تصوراً عن تصور، ومنهجاً في الحياة عن منهج، وسمة للجماعة عن سمة...

نعم هو نهيٌ عن التلقي من غير الله ومنهجه الخاص الذي جاءت هذه الأمّة لتحققه في الأرض. نهيٌ عن الهزيمة الداخلية أمام أيّ قوم آخرين في الأرض. فالهزيمة الداخلية تجاه مجتمع ما هي التي تندس في النفس لتقلد هذا المجتمع المعين. والجماعة المسلمة قامت لتكون في مكان القيادة البشرية، فينبغي لها أن تستمد تقاليدها- كما تستمد عقيدتها- من المصدر الذي اختارها للقيادة...

والجماعة المسلمة التي تتجه إلى قبلة مميزة يجب أن تدرك معنى هذا الاتجاه. إنّ القبلة ليست مجرد مكان أو جهة تتجه إليها الجماعة في الصلاة، فالمكان أو الجهة ليس سوى رمز. رمز للتميز والاختصاص. تميز التصور، وتميز الشخصية، وتميز الهدف، وتميز الاهتمامات، وتميز المكان...والأمّة المسلمة اليوم

في حاجة إلى التميز بشخصية خاصة لا تتلبس بشخصيات الجاهلية السائدة، والتميز بأهداف واهتمامات تتفق مع تلك الشخصية وهذا التصور، والتميز براية خاصة تحمل اسم الله وحده، فتعرف بأنّها الأمّة الوسط التي أخرجها الله للناس لتحمل أمانة العقيدة وتراثها »[1].

وإذا انتقلنا إلى آية أخرى في نفس السورة، في قوله ﷻ :﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[2].

نجد في هذه الآية الأمر الإلهي بتحريم النكاح بين المسلمين والمشركين لكي يكتمل التمايز والاستقلال بين الجماعة المسلمة الموّحِدة وبين المشركين، ذلك أنّ « النكاح هو أعمق وأقوى وأدوم رابطة تصل بين اثنين من بني الإنسان، وتشمل أوسع الاستجابات التي يتبادلها فردان. فلا بدّ إذن من توحد القلوب، والتقائها في عقدة لا تحل ولكي تتوحد القلوب يجب أن يتوحَد ما تنعقد عليه، وما تتجه إليه. والعقيدة الدينية هي أعمق وأشمل ما يعمر النفوس، ويؤثر فيها، ويُكيف مشاعرها، ويُعين طريقها في الحياة كلها.. فلمّا أن أراد الله سبحانه للجماعة المسلمة أن تستقل في المدينة، وتتميز شخصيتها الاجتماعية كما تميزت شخصيتها الاعتقادية، بدأ

---

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب / م(١) / ج(٢) / ص١٢٧-١٢٩ / مصدر سابق.

(٢) سورة البقرة / الآية (٢٢١).

التنظيم الجديد يأخذ طريقه، ونزلت هذه الآية تُحرِم إنشاء أيّ نكاح جديد بين المسلمين والمشركين »[1] .

وفي قوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

نجد هنا التأكيد مرة أخرى من الله ﷻ للمسلمين يحذرهمْ فيها وينهاهم عن طاعة أهل الكتاب والتلقي عنهم ويصفه بأنّه كفر وخروج عن الملة وتكذيب واستهانة بمنهج الله الذي بين أيديهم، « لقد جاءت هذه الأمّة المسلمة لتنشئ في الأرض طريقها على منهج الله وحده، متميزة متفردة ظاهرة....وإنّ طاعة أهل الكتاب والتلقي عنهم، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم تحمل ابتداءً معنى الهزيمة الداخلية، والتخلي عن دور القيادة الذي من أجله أنشئت الأمّة المسلمة؛ كما تحمل معنى الشك في كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها والسير بها... ولقد كان رسول الله ﷺ، يتشدد مع أصحابه- رضوان الله عليهم – في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج. بقدر ما كان يفسح لهم في الرأي والتجربة في شؤون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة، كشؤون الزرع وخطط القتال وأمثالها من المسائل العملية البحتة التي لا علاقة لها بالتصور الاعتقادي ولا بالنظام الاجتماعي ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الإنسان. وفَرّق بين هذا وذاك، فمنهج الحياة شيء

---

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب / م(١) / ج(٢) / ص٢٣٩ / مرجع سابق .

(٢) سورة آل عمران / الآيات (١٠٠-١٠١) .

والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شيء آخر... فلا ضير وفق روح الإسلام وتوجيهه من الانتفاع بجهود البشر كلهم من العلوم البحتة علماً وتطبيقاً »[1].

أمّا في قوله ﷻ: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

فإنّها واضحة وضوح الشمس ولا تحتاج إلى شرح أو تفسير، فالخطاب صادر من الله ﷻ إلى الرسول ﷺ وأمته، بأنّكم على الحقّ وعلى الطريق المستقيم، وأنّ لكل أمّة من الأمم شريعتهم الخاصة، وحضارتهم الخاصة، وثقافتهم الخاصة، وهويتهم الخاصة وأنتم لستم بدعاً من الأمم، فأنتم مثلهم لكم شريعتكم وحضارتكم وثقافتكم وهويتكم الخاصة أيضاً. فدع عنك يا محمد - والخطاب يشمل أمته كذلك - جدالهم ونقاشهم ولا تحزن عليهم إذا هم لم يستجيبوا لك - إذ أنت تريد هداهم وتريد الخير لهم- فأنّهم سيبقون على ما هم عليه- إلاّ من رحم الله تعالى- وتبقون على ما أنتم عليه.

وإن سُنّة الله وإرادته في هذه الحياة أن يكون الناس مختلفين في الشرائع وفي التوجهات وفي الأفكار... ولا يمكن أن يكونوا أمّة واحدة على شريعة واحدة ومنهج واحد وعقيدة واحدة وفكر واحد... فهذا مخالف لسُنة الله تعالى، يقول ﷻ: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[3]. ومثلها قوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ

(١) في ظلال القرآن / سيد قطب / م(١) / ج(٤) / ص٤٣٧-٤٣٩ / مصدر سابق .

(٢) سورة الحج / الآية (٦٧).

(٣) سورة المائدة / من الآية (٤٨).

رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[١].

جاء في تفسير القرطبي لهذه الآية: وقوله ﷻ: ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ «قال سعيد بن جُبير: على ملة الإسلام وحدها، وقال الضحاك: أهل دين واحد، أهل ضلالة أو أهل هدى . ولا يزالون مختلفين: أيّ على أديان شتى..ولذلك خلقهم، قال الحسن ومقاتل وعطاء ويمان: الإشارة للاختلاف أيّ وللاختلاف خلقهم»[٢].

إذن فلكل أمّة شرعة ومنسك ومنهج خاص بها، والأمّة التي تريد المحافظة على وجودها، واجب وفرض عليها أن تتمسك وأن تعتز وتفتخر بمنهجها ومنسكها وشريعتها وعقيدتها وبالتالي هويتها، سيّما إذا كانت تعتقد أنّها على الحقّ وعلى الطريق المستقيم وأنّها خير أمّة أخرجت للناس. قال ﷻ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[٣].

وهناك أيضاً سورة كاملة هي سورة (الكافرون) تتحدث بأكملها عن التميز والاستقلال الذي ينبغي أن يكون عليه المسلمين عن غير المسلمين ابتداءً من أعظم

---

(١) سورة هود / الآيات (١١٨-١١٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي / تحقيق : أحمد عبدالعليم البردوني / دار الشعب / القاهرة / ط(٢) / بدون (ت) / ج(٩) / ص١١٤-١١٥ .

(٣) سورة الجاثية / الآيات (١٨-١٩).

شيء وهو الدين والعقيدة وإلى ما دونها من الأمور- كما مر علينا سابقاً - : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾(١).

إنّ هذه السورة « إجمال لحقيقة الافتراق الذي لا التقاء فيه، والاختلاف الذي لا تشابه فيه، والانفصال الذي لا اتصال فيه، والتميز الذي لا اختلاط فيه... ولقد كانت هذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهري الكامل، الذي يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق. الاختلاف في جوهر الاعتقاد، وأصل التصور ،وحقيقة المنهج،وطبيعة الطريق... فهي البراءة الكاملة، والمفاصلة التامة، والحسم الصريح ، لكم دينكم ولي دين»(٢).

وللأهمية العظمى، والمكانة الكبيرة، التي يريد الله ﷻ ، أن يشغله هذا الموضوع في حياة الفرد المسلم ، والجماعة المسلمة . فإنّه سبحانه قد فرض على كل مسلم أن يدعوه بلسانه، في كل يوم وليلة سبعة عشر مرة على الأقل، بأن يهديه إلى الطريق المستقيم، والمنهج القويم، المغاير بالضرورة لمنهج الآخرين، نجد ذلك في قوله ﷻ : ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾(٣).

وهاتان الآيتان هما أوضح وأهم الآيات التي تتحدث عن ضرورة تميز المسلم عن غيره، وأن تكون له هويته الخاصة في هذا المجتمع الإنساني الذي

(١) سورة الكافرون.

(٢) في ظلال القرآن : سيد قطب / م(٦) / ج(٣٠) / ص٣٩٩٢ / مصدر سابق .

(٣) سورة الفاتحة / الآيات (٦-٧) .

يعيش فيه. وحكمة أخرى أيضاً نجدها في سرّ وجود هذه المعاني في هذه السورة بالذات، حتى يبقى تميز المسلم عن غيره ثابتاً في كل حين، والدعوة لهذا التميز هي لكل المسلمين في كل زمان ومكان.

أمّا في السُنة النبوية المطهرة فإننا نجد كثرة من الأحاديث، التي تدعو المسلمين إلى ضرورة أن يكون لهم منهجهم الخاص وأسلوبهم الخاص وبالتالي هويتهم الخاصة، وهذه الأحاديث ليست مقتصرة على موضوع واحد، وإنّما نجدها تدخل في مواضيع شتى ومناسبات مختلفة، والهدف والغاية واحدة فيها جميعاً، وهو مخالفة الآخرين وخاصة بالأمور الدينية التعبدية، وأيضاً في الأمور التي يلحقنا من وراءها ضرر وأذى، أو استهانة وشماتة، واستهزاء من الآخر إذا ما عرف أننا نتبعه ونقلده فيما هو عليه أو نطيعه فيه.

ونجد من خلال هذه الأحاديث الكثيرة – والتي سنورد بعضاً منها – مدى الأهمية الكبيرة التي يشغلها هذا الموضوع في فكر النبي ﷺ ، فقد كان ﷺ يحب مخالفة المشركين، ويحث المسلمين على ذلك وخاصة – كما قلنا – في الأمور الدينية التعبدية ، فعن السيدة عائشة رضي الله عنها : (أنّ الرسول ﷺ كان أكثر ما يصوم من الأيام السبت والأحد ويقول: إنّهما يوما عيد للمشركين وأنا أحب أن أخالفهم)[١].

ولما وجد النبي ﷺ، أنّ اليهود يعظمون يوم السبت ويصومونه قال لأصحابه: (لا تصوموا يوم السبت إلاّ فيما افترض عليكم وإن لم يجد أحدكم إلاّ لحاء عنبة أوعود شجرة فليمضغها)[٢].

---

(١) المستدرك على الصحيحين : محمد بن عبد الله الحاكم / ج(١) / ص٦٠٢ / رقم الحديث (١٥٩٣) / مصدر سابق.

(٢) المرجع نفسه / ج(١) / ص٦٠١ / رقم الحديث (١٥٩٢) .

أمّا قصة صيام يوم عاشوراء، فإنّ فيها معنى كبيراً، وفائدة عظيمة، نستطيع أن نخرج بها. فهي تعطينا دلالة واضحة على أنّ النبيّ ﷺ ، لا يحب مخالفة غيره- المشركين وأهل الكتاب - والتميز عنهم حقداً أو كراهية أو لمجرد المخالفة. وإنّما الهدف من هذه المخالفة هو إضفاء منهج وسلوك وهوية للمسلمين خاصة بهم، وأيضاً بناء شخصية مستقلة لهذه الأمّة ليس فيها تقليد أو تشبه بغيرها، قد يوحي للمقابل بضعف أو إعجاب به أو بمنهجه، فإنّ مثل هذا الشعور تجاه الآخر يضعف الأمّة ويهزمها نفسياً وداخلياً- أولاً وقبل كل شيء- وأيضاً يجعل الآخر يشعر بالتفوق والغلبة، وأنّ المقابل له ضعيف ومهزوز، وهذا خطر ليس أكبر منه يهدد الأمّة بأكملها بالسقوط والانهزام.

وقصة صيام يوم عاشوراء تعطينا الدلالة على ذلك، فالنبي ﷺ لمّا قدم المدينة، وأختلط باليهود وتعرف عليهم، وجدهم يصومون هذا اليوم فسألهم عنه، فقالوا: (هذا يومٌ عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه. فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه. فقال ﷺ : فنحن أحق وأولى بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه)[1].

ولمّا كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يعرفون مدى حرص النبي ﷺ على مخالفة أهل الكتاب، وخاصة في الأمور التعبدية. قالوا له: يا رسول الله- ﷺ - إنّه يومٌ تعظمه اليهود والنصارى. فقال ﷺ: (فإذا كان العام المقبل إن شاء الله تعالى، صمنا اليوم التاسع)[2].

---

(١) صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج / ج(٢) / ص٧٩٦ / رقم الحديث (١١٢٩) / مصدر سابق .

(٢) المصدر نفسه / ج(٢) / ص٧٩٧ / رقم الحديث (١١٣٤) .

من هذا الحديث يتبين لنا أنّه لو كان الموضوع موضوع كراهية وحقد، أو مجرد حب للمخالفة، لكان من المنطقي أن يعود النبي ﷺ عن صيام هذا اليوم، وأن ينهى المسلمين عن صيامه. ولكن الأمر ليس كذلك.

فالنبيّ ﷺ تصرّف إزاء هذا الموضوع تصرفاً عقلانياً، فكان منه أن أخذ هذا الأمر عن اليهود وأقتبسه منهم، ولكنه أجرى عليه تغييرات وتعديلات، نحى به منحى آخر، حتى لا يفرح اليهود ويقولوا أنّ محمداً ﷺ قلدنا واتبع شريعتنا في هذا الأمر. وقد كان التغير والتعديل الذي طرأ على الموضوع تغييراً إيجابياً وليس تغييراً سلبياً، ذلك أنّه ليس من مبادئ ولا فكر ولا سُنّة النبي ﷺ أن يرفض أو يستبعد الحقّ والصواب أو الحسن والصالح من الأعمال التي تصب في منفعة المسلمين، لمجرد أنّها أتت من الطرف الآخر- أو لنوسع المعنى أكثر فنقول لمجرد أنها أتت من العدو وهو القائل ﷺ : (الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها)[1].

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فهكذا ينبغي أن يكون تفكيرنا، وهكذا ينبغي أن تكون نظرتنا إلى الأمور، وطريقتنا في التعامل مع الأحداث والمستجدات التي تطرأ علينا.

وتتضح الدلالة على هذا الموضوع بصورة أكبر في قصة الآذان، ذلك أنّ النبي ﷺ ، شعر أنّ طريقة مناداة المسلمين للصلاة ليست عملية- وذلك قبل أن يُشرع الآذان كما هو عليه الآن- حيث كان أسلوب المناداة للصلاة عند المسلمين هو أن يسير رجل في الطريق فينبه الناس على حضور وقت الصلاة، وخاصة

---

(١) سنن الترمذي : محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي / تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون / دار إحياء التراث العربي / بيروت / بدون (ت) / ج(٥) / ص٥١ / رقم الحديث (٢٦٨٧) .

عندما رأى ﷺ طريقة النداء للصلاة عند اليهود والنصارى، وكانوا متفوقين على المسلمين في هذا الموضوع من الناحية النفسية والعملية. عند ذلك عزم النبي ﷺ على أن يكون للمسلمين طريقة للنداء إلى الصلاة، ولكن أسلوبها من الضروري أن يكون مخالفاً لما هو عليه الأمر عند اليهود والنصارى. فعن أنس بن مالك ﷺ أنّه قال: (كانت الصلاة على عهد رسول الله ﷺ ، يسعى رجل في الطريق فينادي الصلاة الصلاة، فأشتد ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله لو اتخذنا ناقوساً. قال: ذلك للنصارى. قالوا: لو اتخذنا بوقاً. قال: ذلك لليهود)[1].

وفي رواية أخرى: (... وقد كان رسول الله ﷺ حين قدمها- أي المدينة- إنّما يجتمع الناس إليه للصلاة بحين مواقيتها بغير دعوة. فهمّ رسول الله ﷺ أن يجعل بوقاً كبوق اليهود الذي يدعون به لصلواتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس فَنُحِتَ لُيضرب به للمسلمين إلى الصلاة. فبينما هم على ذلك أُري عبد الله بن زيد بن عبد ربه أخو الحارث بن الخزرج النداء. فأتى رسول الله ﷺ ، فقال له: يا رسول الله، إنّه طاف بي هذه الليلة طائف، مرّ بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده فقلت: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس. فقال: وما تصنع به. قلت: ندعو به إلى الصلاة. فقال: ألا أدلك على خير من ذلك. قلت: وما هو. قال: تقول: الله أكبر، الله أكبر،... فقال ﷺ : إنّها لرؤيا حقّ إن شاء الله تعالى. فقم مع بلال فألقها عليه فإنّه منك. فلما أذّن بلال، سمع عمر بن الخطاب ﷺ وهو في بيته.

(١) صحيح ابن خزيمة : محمد بن اسحق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري / تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي / المكتب الإسلامي / بيروت / ١٣٩٠هـ / ج(١) / ص١٩١ / رقم الحديث (٣٦٩) .

فخرج إلى رسول الله ﷺ ، وهو يجر رداءه، وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل ما رأى. فقال : فلله الحمد، فذاك أثبت)[١].

من قصة الآذان نستنتج، أنّ الرسول ﷺ، عندما رأى أنّ المسلمين ينقصهم ويعوزهم شيء، وهذا الشيء موجود عند الطرف الآخر المقابل للمسلمين، أو حتى المعادي للمسلمين، لم يتحرج ولم يتردد أبداً في سد هذا النقص عند المسلمين، عن طريق الاستفادة مما هو موجود عند الطرف الآخر. ولكن هذا الاقتباس لم يكن حرفياً، بحيث يبدو الأمر وكأنّه- طاعة الأدنى للأعلى، وتبعية المغلوب للغالب، وتقليد العاجز الضعيف للقوي المنتصر. فهذا كان أبعد ما يكون عن فكر ورؤية النبي ﷺ، وما هو عليه دائماً في مثل تلك الأمور ولكنه ﷺ اقتبس منهم الفكرة فقط، فطوّرها وعدّلها، ونحى بها منحى جعل منها شيئاً خاصاً للمسلمين، يتميزون به عن غيرهم، لا بل ويتفوقون عليهم فيه.

والحقيقة أنَّ تميز المسلمين عن غيرهم، وتمسكهم بهويتهم الخاصة واعتزازهم بها، كان موضوعاً يشغل النبي ﷺ كثيراً، ولهذا نجد هناك أحاديث كثيرة جداً- فضلاً عن التي ذكرناها- كلها تتحدث وبصورة واضحة ومباشرة وصريحة، عن أهمية احتفاظ المسلمين بهويتهم الخاصة، وخصوصياتهم المستقلة، التي تميزهم عن غيرهم.

ومن تلك الأحاديث قوله ﷺ في موضوع صبغ الشعر: (إنّ اليهود والنصارى لايصبغون فخالفوهم)[٢]. وقوله ﷺ، في موضوع الصلاة بالنعال

---

(١) المصدر نفسه / ج(١) / ص١٩٢ / رقم الحديث (٣٧٠) .

(٢) صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج / ج(٣) / ص١٦٦٣ / رقم الحديث (٢١٠٣) / مصدر سابق.

والخف: (خالفوا اليهود، فإنهم لا يصلون في خفافهم ولا نعالهم)[١]. وأيضاً قوله ﷺ : (ليس منا من تشبه بغيرنا، لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى، فإنّ تسليم اليهود الإشارة بالأصابع، وتسليم النصارى الإشارة بالأكف)[٢]. وقال ﷺ، في مرضه الذي لم يقم منه: (لعنة الله على اليهود والنصارى إتخذوا قبور أنبياءهم مساجد)[٣]. محذراً المسلمين من أن يصنعوا صنيعهم ويقلدونهم في هذه البدعة السيئة.

وقد بلغت درجة حرص النبي ﷺ على مخالفة أهل الكتاب والمشركين، وعلى أن يكون للمسلمين هويتهم الخاصة. أنّه في موضوع حيض المرأة، حيث كان اليهود إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها.. فسأل أصحاب النبي ﷺ عن هذا. فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾[٤]. فقال رسول الله ﷺ: (اصنعوا كل شيء إلاّ النكاح. فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلاّ خالفنا فيه)[٥].

ولكن وعلى الرغم من كل هذه الأوامر والنواهي والتحذيرات والتعليمات فإنّه ﷺ، تنبأ لأمته بأنّها ستترك هويتها وتستهين بها وستركض وراء الآخر ركضاً

---

(١) المستدرك على الصحيحين : محمد بن عبد الله الحاكم / ج(١) / ص٣٩١ / رقم الحديث (٩٥٦) / مصدر سابق .

(٢) سنن الترمذي : محمد بن عيسى الترمذي / ج(٥) / ص٥٦ / رقم الحديث (٢٦٩٥) / مصدر سابق .

(٣) صحيح البخاري : محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري / تحقيق : مصطفى ديب البنا / دار ابن كثير / اليمامة / ط(٣) / ١٤٠٧ هـ / ج(١) / ص١٦٨ / رقم الحديث (٤٢٥) .

(٤) سورة البقرة / من الآية (٢٢٢) .

(٥) صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج / ج(١) / ص٢٤٦ / رقم الحديث (٣٠٢) / مصدر سابق .

تقلده وتتشبه به وتذر ما هي عليه وراء ظهرها نجد ذلك في قوله ﷺ : (لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضبٍّ لسلكتموه. قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى. قال: فمن)[١].

ولكن طبعاً هذا الحديث لا ينطبق على حال وواقع الأمّة الإسلامية في كل زمان ومكان.وإنّما بالتأكيد في أزمنة دون أخرى وأمكنة دون أخرى وبدرجات متفاوتة.

مما سبق نخرج بنتيجة مفادها أن الله ﷻ ورسوله ﷺ، يريدون الخير والعزة لهذه الأمّة، ويريدون لها أن تنال شرف الشهادة على النّاس، بأنّها خير الأمم التي أخرجت للناس، بشرط أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، ولا تستطيع الأمّة القيام بهذا الواجب إلاّ إذا كان لها شخصيتها المستقلة وهويتها الخاصة،حتى تستطيع أن تؤثر في المقابل، وبدون هذه العزة فستفشل هذه الأمّة حتماً في الوصول إلى هذه المرتبة العظيمة التي أرادها الله ﷻ لها.

إذن فموضوع التمسك والاعتزاز بالهوية الإسلامية، ليس بدعاً من المواضيع والأمور في حكم الشريعة الإسلامية، وإنما هو فرض وواجب على الفرد المسلم وعلى الأمة المسلمة ككل.

---

(١) صحيح البخاري : محمد بن إسماعيل البخاري / ج(٣) / ص١٢٧٤ / رقم الحديث (٣٢٦٩) / مصدر سابق .

المبحث الرابع

نماذج من الممارسات التطبيقية للتمسك والاعتزاز بالهوية الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي والنتائج المؤدية إليها

إنّ إرادة بناء أي أمّة وتشييدها والنهوض بها، لا يتم إلاّ بأن يتوفر في هذه الإرادة ميزة الفخر والاعتزاز بهذه الأمّة وقيمها ومبادئها وعقيدتها التي قامت عليها. وأي شعور بمركب نقص لدى أبناء هذه الأمّة سيُفشل حتماً كل جهودهم ومساعيهم الرامية إلى النهوض بأمتهم وحضارتهم.

وقد أفرد العلاّمة ابن خلدون فصلاً في مقدمته بيّن فيه أنّ علامة الأمّة المغلوبة هي الإقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك: « أنّ النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه.. لما تغالط من إنّ انقيادها ليس لغلب طبيعي، وإنّما هو لكمال الغالب ولما أنتحله من العوائد والمذاهب »[1].

وقد استمات المسلمون الأوائل من أجل إقامة حضارتهم الإنسانية، فكانوا يحرصون أشد الحرص على أن لا يمكنوا لعدوهم من أن يحتويهم أو أن يصهرهم في بوتقته الحضارية الخاصة به. فيسعون دائماً إلى أن يكون لهم طابعهم المستقل، ومنهجهم المتميز، وهويتهم الخاصة، التي تميزهم أينما كانوا وأينما ذهبوا، لأنّهم يعلمون أنّها سرّ قوتهم ومصدر عزيمتهم وكبريائهم.

ويذكر لنا التأريخ الإسلامي نماذج كثيرة وعظيمة على التمسك والاعتزاز والفخر الكبير، الذي كان يحمله المسلمون الأوائل لدينهم ولمبادئهم وقيمهم التي

(١) مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون / ص١٤٧ / مصدر سابق .

ربّاهم عليها الإسلام. ومن تلك النماذج الكثيرة التي حفظها لنا التأريخ الإسلامي نذكر: قصة الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي ﷺ، كما يرويها لنا الإمام الذهبي وذلك: « أنّ عمر بن الخطاب ﷺ، وجه جيشاً إلى الروم، فأسروا عبد الله بن حذافة، فذهبوا به إلى ملكهم، فقالوا: إنّ هذا من أصحاب محمد ﷺ فقال له الملك: هل لك أن تتنصر وأعطيك نصف ملكي. فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملك العرب ما رجعت عن دين محمد ﷺ طرفة عين. قال: إذن أقتلك. قال: أنت وذاك. فأمر به، فصلب، وقال للرماة: ارموه قريباً من بدنه، وهو يعرض عليه ويأبى. فأنزله، ودعا بقِدْر، فصبّ فيها ماء، حتى احترقت، ودعا بأسيرين من المسلمين فأمر بأحدهما، فألقي فيها، وهو يعرض عليه النصرانية. وهو يأبى. ثم بكى. فقيل للملك: إنّه بكى، فظن أنّه قد فزع. فقال: ردّوه. ما أبكاك. قال: قلت هي نفس واحدة تُلقى الساعة فتذهب، فكنت أشتهي أن يكون بعدد شعري أنفس تلقى في النار في الله... فأمر به ملكهم فجُرِب بأشياء فصبر عليها. ثم جعلوه في بيت ومعه الخمر ولحم الخنزير، ثلاثاً لا يأكل، فاطّلعوا عليه. فقالوا للملك: قد انثنى عنقه، فإن أخرجته وإلاّ مات. فأخرجه. وقال له: ما منعك أن تأكل وتشرب. قال: أمّا أنّ الضرورة كانت قد أحلتها لي ولكن، كرهت أن أشمتك بالإسلام...»[1].

لقد أراد الملك أن يتعرف من خلال هذه الأفعال على سرّ قوة هؤلاء القوم وعظمتهم، وكيف استطاعوا وهم الحفاة العراة الرعاة، القادمون من الصحراء، أن ينتصروا كل هذه الانتصارات الكبيرة على أقوى وأعتى دولتين في ذلك الزمان– فارس والروم–.

---

(١) سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي / تحقيق : شعيب الأرناؤوط / محمد نعيم العرقسوسي / مؤسسة الرسالة / بيروت / ط(٩) / ١٤١٣هـ / ج(٢) / ص١٤.

فلجأ في بادئ الأمر إلى أسلوب الترغيب والترهيب، لكي يفك من عزيمته ويفل من عضده، فيرده عن دينه، ويصبح بعدها تابعاً له ذليل، ولكن هذا الأسلوب لم يزد الصحابي الجليل إلاّ عزيمةً وإصراراً وتمسكاً بما هو عليه. فلجأ الملك عندها إلى أسلوب آخر، هو أسلوب الحرب النفسية، لكي يكسر نفسيته، ويحطم معنوياته، ويقلل من شأنه وشأن دينه وقيمه ومبادئه التي يحملها، في حالة إخلاله بهذه المبادئ والقيم، طوعاً أو كرهاً، بحسن نية أم بغيرها. ولكن الصحابي الجليل فطن إلى ما يريده الملك، فأصرّ على موقفه، وتمسك بهويته وقيمه ومبادئه كونه مسلماً ملتزماً بالإسلام معتزاً فخوراً به. فكانت النتيجة أن انقلبت هذه الحرب النفسية على الملك، فشعر بالهزيمة واليأس داخل نفسه، ورضخ هو لطلبات ذلك الأسير وشروطه، مقابل شيء يسير لا يذكر مقارنة بما سيتحقق لذلك الصحابي وللمسلمين عامة. فقال له الملك، بعد أن حلّ به اليأس: « هل لك أن تقبّل رأسي وأخلي عنك. فقال عبد الله : وعن جميع المسلمين. قال: نعم. قال: أمّا هذه فنعم »[1].

ونموذج آخر على تلك التطبيقات العملية- للتمسك والاعتزاز بالهوية الإسلامية – التي حفظها لنا تأريخنا الإسلامي، ما حدث قُبيل معركة اليرموك، وذلك أنّه: « لمّا جمع هرقل للمسلمين الجموع، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك، ردّوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا : قد شُغِلنا عن نُصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم »[2].

---

(١) المصدر نفسه / ج(٢) / ص١٥.

(٢) فتوح البلدان : أبي الحسن البلاذري / تحقيق : رضوان محمد رضوان / مطبعة السعادة / مصر / ١٩٥٩م / ص١٤٣.

لقد جسّد المسلمون بهذا العمل، هويتهم ومباداءهم وقيمهم التي تربوا عليها وحولوها إلى واقع عملي. فالعدل مع الناس- مسلمين أو غير مسلمين- مَعْلَم بارز من معالم ديننا وهويتنا الإسلامية، ولا يمكن أن يتصور مسلم وظالم في نفس الوقت، فالعادل مرادف المسلم ونقيض الكافر، والظالم مرادف الكافر ونقيضٌ المسلم. وعندما تمسك المسلمون بهذا المَعلَم من معالم هويتهم مع أهل حمص كانت النتيجة خيراً كثيراً، إذ دُهش أهل حمص مما سمعوا من المسلمين، فكان جوابهم: « لولايتكم وعدلكم أحبّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعنّ جند هرقل عن المدينة مع عاملكم. ونهض اليهود فقالوا: والتوراة، لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلاّ أن نُغلب ونَجهد. فأغلقوا الأبواب، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النّصارى واليهود، وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه، وإلاّ فأنّ أمرنا ما بقي للمسلمين »[1].

ومثل هذه الحادثة، أو قريب منها، تكررت مع أهل سمرقند، في زمن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيزﷺ وذلك أنّ مدينة سمرقند قد فُتحت عنوةً على يد القائد قُتيبة بن مسلم الباهلي، قبل أن يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، فلما تولاّها وشاع عدله بين الناس، وأشتهر صيته في الأمصار، طمع أهل سمرقند في أن ينالوا نصيبهم من العدل على يد هذا الرجل المبارك، وأن يُنصفوا ممن ظلمهم. والقصة كما يرويها الإمام الطبري: « قال أهل سمرقند لسليمان: إنّ قتيبة غدر بنا وظلمنا، وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والإنصاف، فأذَن لنا، فيقدمنا وفد إلى أمير المؤمنين، يشكون ظلامتنا فإن كان لنا حقّ أُعطيناه، فانّ بنا إلى ذلك حاجة. فأذِن لهم. فوجهوا منهم قوماً، فقدموا على عمر. فكتب لهم عمر إلى سليمان بن أبي السري. إنّ أهل سمرقند قد شكوا إلي ظلماً أصابهم، وتحاملاً من قُتيبة عليهم، حتى

(١) المصدر نفسه / ص١٤٣ .

أخرجهم من أرضهم. فإذا أتاك كتابي، فأجلس لهم القاضي، فلينظر في أمرهم، فإن قضى لهم، فأخرجهم إلى معسكرهم، كما كانوا وكنتم قبل أن يظهر عليهم قتيبة. قال: فأجلس لهم سليمان، جميع بن حاضر القاضي، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم، وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة »[1].

فعندما كان المسلمون على هذه الشاكلة، يرفضون إلاّ أن يُحكِّموا شرائعهم ومبادئهم، وقيمهم وأخلاقهم التي ربّاهم عليها الإسلام، وعلمّهم بها، كانوا على خير كثير، فكانت نتيجة هذا العدل الفريد في تأريخ البشرية،أن كان جواب أهل سمرقند:« قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم، فقال أهل الرأي:بل نرضى لِما كان ولا نجدد حرباً وتراضوا بذلك»[2].

والله ﷻ يأمر بالعدل في كل شيء ومع كل أحد سواء أكان مؤمناً أم كافراً بل حتى وإن كان ظالماً.

يقول الله ﷻ في حديثه عن عهده لإبراهيم عليه السلام: ﴿ **قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾[3].

جاء في الظلال حول هذه الآية: « إماماً يتخذونه قدوة، ويقودهم إلى الله ويقدمهم إلى الخير، ويكونون له تبعاً، وتكون له فيهم قيادة... ولكن هذه الإمامة هي لمن يستحقونها بالعمل والشعور، وبالصلاح والإيمان، وليست وراثة أصلاب وأنساب... والظلم أنواع وألوان: ظلم النفس بالشرك، وظلم الناس بالبغي...والإمامة

---

(١) تأريخ الأمم والملوك : محمد بن جرير الطبري أبو جعفر / دار الكتب العلمية / بيروت / ط(١) / ١٤٠٧هـ / ج(٤) / ص٦٩ .

(٢) المصدر نفسه / ص٦٩ .

(٣) سورة البقرة / من الآية (١٢٤) .

الممنوعة على الظالمين تشمل كل أنواع الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة..وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة. فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أيّة صورة من صورها. ومن ظلم- أيّ لون من الظلم - فقد جرد نفسه من حقّ الإمامة وأسقط حقه فيها، بكل معنى من معانيها.

وهذا الذي قيل لإبراهيم عليه السلام وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض.. قاطع في تنحية اليهود عن القيادة والإمامة، بما ظلموا، وبما فسقوا، وبما عتوا عن أمر الله، وبما انحرفوا عن عقيدة جدّهم إبراهيم عليه السلام .

وهذا الذي قيل لإبراهيم عليه السلام وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض، قاطع كذلك في تنحية من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم، بما ظلموا، وبما فسقوا، وبما بعدوا عن طريق الله ﷻ ، وبما نبذوا من شريعته وراء ظهورهم »[1].

وقد استحق المسلمون- في ذلك الزمان- الإمامة- بكل أنواعها-على الناس لأنّهم طبّقوا المنهج الذي يكون الناس بموجبه تبع لهم، ويكونون هم القادة في كل مجالات الحياة.

ومن النماذج الأخرى التي توضح مدى اعتزاز جيل الصحابة- وهو الجيل الأنموذج والقدوة لبقية الأجيال المسلمة- بهويتهم الإسلامية وحرصهم الكبير على التمسك بها، ومقاومة أي نوع من أنواع الانصهار أو الذوبان أو الخضوع للهويات الأخرى. فتذكر لنا كتب التأريخ الإسلامي، أنّ رستم قائد الفرس في معركة القادسية طلب من المسلمين أن يرسلوا له رسولاً لكي يفاوضه ويسأله عن الإسلام، وعمّا جاء بهم. والحقيقة أنّ رستم أراد أن يعرف أيّ قوم يحارب، وما هو سر قوتهم.

---

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب / م(١) / ج(١) / ص١٠٥-١٠٧ / مصدر سابق .

فأرسل له القائد سعد بن أبي وقاص ﷺ، الصحابي ربعي بن عامر ﷺ، فدخل عليهم وقد زينوا مجلسهم بالنمارق والزرابي والحرير، وأظهروا اليواقيت واللآليء الثمينة العظيمة، ولبسوا أفخر ثيابهم، وجلس رستم على سرير من الذهب وعليه تاج مرصع بالجواهر. كل هذا لكي يظهروا بمظهر العظمة أمام هذا الإعرابي القادم من الصحراء، الذي لا يملك سوى رمحه وفرسه، وخلق من الثياب يلبسها. فعلوا هذا ظانين أنّه سيندهش وينبهر ويستعظم أمرهم، وسينقل لقومه خبرهم وأيّ قوم هم. ولكن كل هذه المظاهر الكاذبة الفارغة لم تكن لتخيف أو حتى تؤثر في ذلك المسلم الذي تحمل الجوع والعطش، وسار كل هذه المسافة، من أجل أن يحقق ما جاء من أجله، وما نذر حياته له، ألا وهو تبليغ أعظم رسالة سماوية للبشر، كي تخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام.

فأدرك هذا الصحابي بذكائه وفطنته ما يريده الفرس من وراء الظهور بهذا المظهر من العظمة أمامه، وأنّ هذا كله ليس إلاّ نوع من أنواع الحرب النفسية أو المعنوية يهدف العدو من وراءها إلى إشعار المقابل- المسلمين - بقوة وعظمة من جاءوا لمحاربته، فيكسرون بهذا معنوياتهم ويضعفون من عزيمتهم قبل اللقاء.

فأراد الصحابي الجليل، أن يقلب هذه الحرب النفسية عليهم، وأن يجسد في هذا اللقاء عزة المسلم وشموخه واستعلائه فوق كل تلك المظاهر الكاذبة، وأن يوضح ويبين لهم أنّ هدف وغاية المسلمين هي أسمى وأغلى من تلك العظمة والأبهة الفارغة، التي يعتقدها ويؤمن بها الفرس.

فأقبل عليهم بثيابه الرثة وفرسه القصيرة الزباء، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك السواري، وأقبل على رستم بسلاحه ودرعه وبيضته على رأسه فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم وإنّما

جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلاّ رجعت. فقال رستم: ائـذنوا لـه. فأقبل يتوكأ على رمحه فوق تلك النمارق حتى خرق عامتها.

ثم دار حوار بينهما انتهى بإعجابهم وانبهارهم بفطنته وذكائه واعتداده بنفسه وقومه، وشدة اعتزازه وتمسكه بدينه وقيمه ومبادئه ورسالته التي يحيا من أجلها[1].

فلما ذهب أراد رستم أن يلتقي بالمزيد من المسلمين حتى يتعرف أكثر عليهم. فبعث له سعد بن أبي وقاص ﷺ، الصحابي المغيرة بن شعبةﷺ ، ففعلوا معه مثل ما فعلوا مع الأول، من إظهار عظمتهم وغناهم وقوتهم أمامه، غير أنّهم لم يلقوا منه إلاّ قوة من الأول من الاستخفاف والاستهزاء بهم والاستهانة بقوتهم، والاعتداد بالنفس، واعتزازه الشديد بهويته وقيمه ومبادئه.

نجد هذا في الحوار الذي دار بينه وبين رستم، والذي ينقله لنا ابن الأثير: « فأقبل إليهم، وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب... حتى جلس مع رستم على سريره، فوثبوا عليه وأنزلوه ومعكوه. فقال: قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوماً أسفه منكم. إنا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضاً إلاّ أن يكون محارباً لصاحبه، فظننت أنّكم تواسون قومكم كما نتواسى، فكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أنّ بعضكم أرباب بعض، فإنّ هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد، وإنّي لم آتكم ولكن دعوتموني، فاليوم علمت أنّ أمركم مضمحل وأنّكم مغلوبون، وأنّ ملكاً لا يقوم على هذه السيرة، ولا على هذه العقول... فتكلم رستم فقال: ... لم يكن في الأمم أمّة أصغر عندنا أمراً منكم، كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة وكنتم تقصدوننا إذا قحطت بلادكم فنأمر لكم بشيء من التمر والشعير، ثم نردّكم. وقد

---

(١) ينظر: الكامل في التأريخ : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم المعروف بـ (ابن الأثير) / دار الكتب العلمية / بيروت / ط(١) / ١٩٨٧م / ج(٢) / ص٣١٢ / بتصرف بسيط .

علمت أنّه لم يحملكم على ما صنعتم إلاّ ما أصابكم من الجهد في بلادكم، فأنا آمــر لأميركم بكسوةٍ وبغل وألف درهم، وآمر لكل واحد منكم بوقر تمــر، وتنــصرفون عنّا، فإنّي لست أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم.

فتكلم المغيرة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال :«... أمّا الذي ذكرت فينــا مــن سوء الحال والضيق، فنحن نعرفه ولسنا ننكره.. ولكن الشأن غير ما تذهبون إليــه، أو كنتم تعرفوننا به. إن الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولاً-ثم ذكر مثل ما ذكر من قبله وعرض عليه إمّا الإسلام وإما الجزية وإمّا السيف-...وقال المغيرة: إنّ عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم فقالوا: لا صبر لنا عنه. فقال رستم: إذن تموتون دونها. فقال المغيرة : يدخل من قتل منّا الجنة، ومن قُتل منكم يدخل النار. ويظفر من بقي منّــا بمن بقي منكم.

فاستشاط رستم غضباً، ثم حلف بالشمس أن لا يرتفع الصبح غداً حتى نقتلكم أجمعين...»(١).

أمّا نتيجة هذا الاعتداد بالنفس والاعتزاز بالهوية الإســلامية، الــذي جسّده هذين الصحابيين الجليلين، فنراه واضحاً من كلام رستم نفسه مع قومه عن هــؤلاء القوم وما رآه ويعتقده فيهم: «... فقالوا : صدق والله العربي، والله لقد رمى بكــلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل الله أولينا، ما كان أحمقهم حين كانوا يــصغرون أمر هذه الأمّة.... فخلا رستم برؤساء قومه. فقال: ما ترون، هل رأيتم كلاماً قــطّ أعز وأوضح من كلام هذا الرجل. فقالوا معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟. فقال: ويحكم لا تنظروا إلى الثياب، ولكن أنظــروا إلــى الــرأي والكلام والسيرة، إنّ العرب تستخف باللباس والمأكل وتصون الأحــساب، ليــسوا مثلكم...ثم قال لهم: أين هؤلاء منكم، هؤلاء والله الرجال صادقين كانوا أم كــاذبين،

---

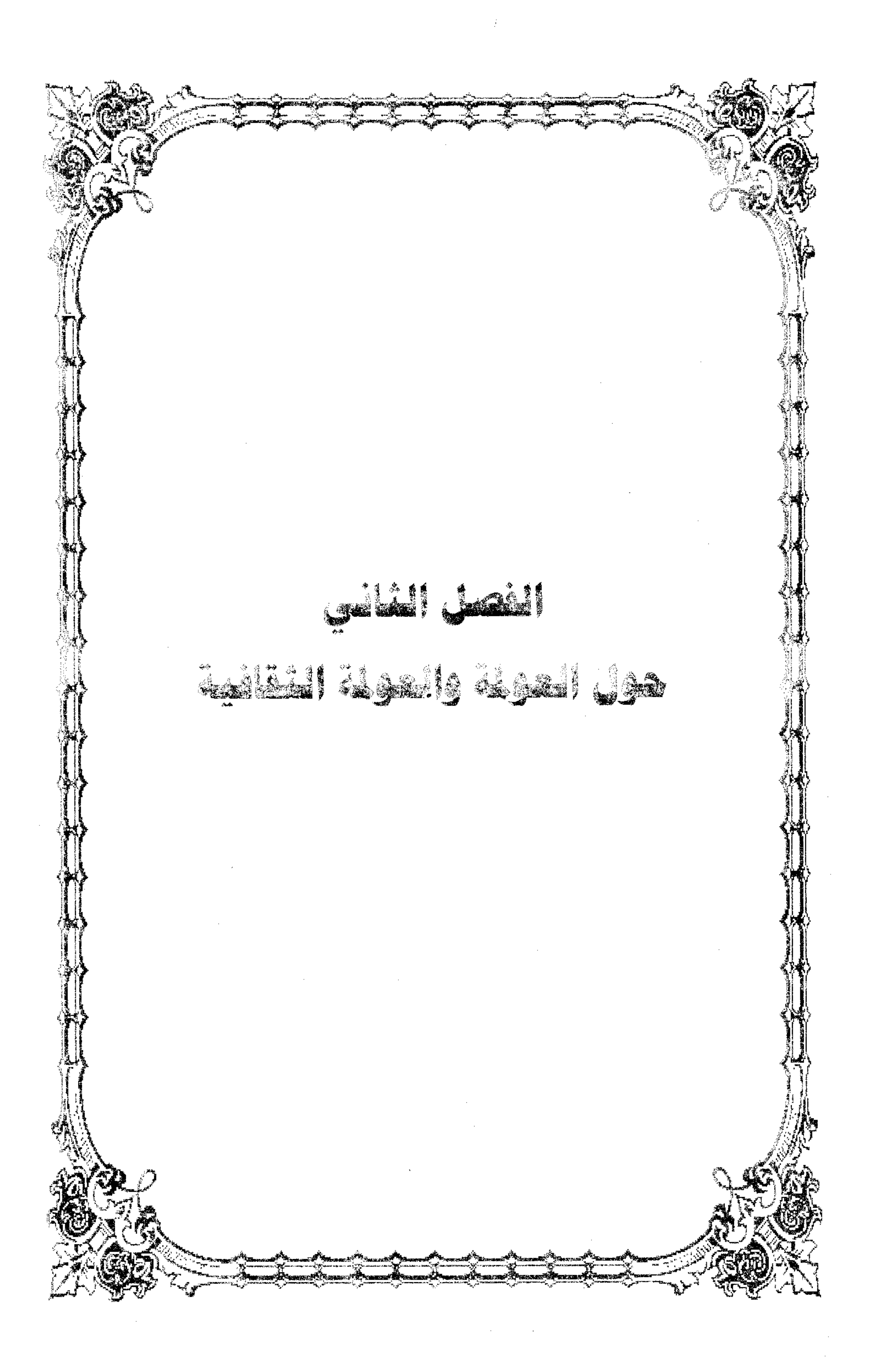
(١) المصدر نفسه / ج(٢) / ص٣١٣-٣١٤ .

والله لئن بلغ من عقلهم وصونهم لسرهم أن لا يختلفوا، فما قوم أبلغ لما أرادوا منهم، ولئن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شيء »[1].

لقد أعلن رستم الهزيمة لقومه، قبل أن تبدأ المعركة، ولو لم يكن للمسلمين مثل هذا الاعتزاز بذاتهم وبهويتهم الإسلامية، ومثل هذه الثقة بربهم، وأنّه ناصرهم ماداموا معه، لما هانت عليهم أنفسهم، ولما هانت عليهم الدنيا وزخرفها وبهرجها، ولما استطاعوا أن يفتحوا الفتوحات العظيمة، وأن ينشروا دين الله في أرضه، ويقيموا حضارتهم العريقة في أرجاء واسعة من المعمورة.

---

(١) المصدر نفسه / ج(٢) / ص٣١٢-٣١٤ .



الفصل الثاني

حول العولمة والعولمة الثقافية



المبحث الأول

نشأة العولمة وظهورها والظروف المحيطة بها

العولمة تلك الكلمة السحرية التي شغلت الناس منذ بداية التسعينات من القرن الميلادي الماضي ولغاية هذا اليوم، هذه الظاهرة التي استطاعت أن تتغلغل في كل مجال من مجالات الحياة المعاصرة الفكرية والعلمية والسياسية والثقافية والاقتصادية...الخ مثيرة فيها جدالاً ونقاشاً محتدماً، وتساؤلات شتى، وخلافات كثيرة، حول ماهيتها وحقيقتها، قبولها أم رفضها، الاستسلام لها أم محاربتها، الدخول والمشاركة فيها أم التعامل معها بحذر وريبة وتوجس. كل هذا ولا يزال الجدل حولها قائماً لم ينته بعد، ليس فقط في عالمنا العربي والإسلامي وإنّما على مستوى العالم أجمع.

وبدءً لا يستطيع أيّ باحث أو دارس للعولمةُ أن يحيط بها أو يتحدث عن مفهومها وأهدافها وغايتها، دون البدء بالحديث عن نشأتها، والعوامل التي أدت إلى ظهورها وبروزها، والظروف العالمية المحيطة بها. ذلك أن مفهوم العولمة وفهمها مرتبط أشد الارتباط بنشأتها، ثم ظهورها وبروزها، وأيضاً طبيعة النظام الدولي أو العالمي الموجود حينها.

فالغالبية العظمى من الباحثين في موضوع العولمة، يرون أنّ هذه الظاهرة ليست حديثة أو بنت هذا العقد من الزمان، بل هي قديمة، وبعضهم يراها موغلة في القدم(١).

---

(١) ينظر: كيف يقرأ المثقفون العرب العولمة : إدريس هاني/مجلة الكلمة/العدد(١٩)/السنة(٥)/ربيع ١٩٩٨م/من على موقع المجلة على الشبكة:www.kalema.net

فالعولمة ما هي إلاّ:« لفظ جديد لظاهرة قديمة نشئت- ظهرت- في دنيا أصبحت بحجم قرية إلكترونية صغيرة ترابطت بالأقمار الصناعية والاتصالات الفضائية وقنوات التلفزيون الدولي»(١). والعولمة من الناحية الزمانية لابد من أن تكون لها بداية، ولكن الاختلاف هو حول تحديد نقطة هذه البداية.

ففي أول ندوة علمية أكاديمية جادة تعقد في المنطقة العربية حول موضوع العولمة(٢)، يذهب جميل مطر إلى أنّ العولمة ظاهرة قديمة متصلة بالمسيرات الإمبراطورية عبر التأريخ، أيّ بالهيمنة السياسية من جانب دولة مهيمنة أو مركز إمبراطوري سواء أكان هذا المركز أثينا، أو روما، أو فارس، أو لندن، أو برلين، والآن هي في الولايات المتحدة الأمريكية(٣).

أمّا السيد يسين فيتبنى النموذج الذي صاغه رولاند روبرتسون في موضوع النشأة التاريخية للعولمة، والذي ينص على أنّ نقطة البداية هي عند ظهور الأفكار المتعلقة بالدولة القومية الموحدة في أوربا في القرن الخامس عشر الميلادي، على

---

(١) العولمة في مرآة الثقافة العربية : الفريد فرج / جريدة الأهرام/١٥-١٠-١٩٩٨م/نقلاً عن: إعلام العولمة وتأثيره في المستهلك/السيد أحمد مصطفى عمر/ مجلة المستقبل العربي/العدد(٢٥٦)/ السنة(٢٣) /حزيران-٢٠٠٠م/ص٧٢.

(٢) والمقصود بها ندوة (العرب والعولمة) التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت بتأريخ ١٨-٢٠ / كانون أول / ١٩٩٧م - وقد قام المركز بطباعة ونشر أعمال هذه الندوة في كتاب بعنوان (العرب والعولمة) .

(٣) إنّ الباحث يتبنى وجهة النظر هذه ويؤمن بها ويبني عليها آراءه في هذه الأطروحة.
ينظر: مداخلة جميل مطر ضمن المناقشات التي دارت حول بحث السيد يسين/ في مفهوم العولمة/المقدم إلى ندوة (العرب والعولمة)/مركز دراسات الوحدة العربية/بيروت/ط(٣)/نيسان ٢٠٠٣م/ص٦٠ .

أساس أنّ هذه النشأة تسجل نقطة تاريخية فاصلة في تأريخ المجتمعات المعاصرة[(١)].

في حين أنّ إسماعيل صبري عبد الله يذهب إلى أنّ العولمة (الكوكبة في اصطلاحه) نشأت وتنامت في النصف الثاني من القرن العشرين[(٢)].

ولكن سيار الجميل يستبعد كل هذه الآراء ويُصِرّ على أنّ العولمة هي نظام عالمي جديد بحد ذاته، نشأ مع نهاية القرن العشرين، وبالتحديد في حقبة التسعينيات[(٣)].

والحقيقة إنّ العولمة ظاهرة قديمة، كانت تمارس بين الحين والآخر وبدرجات متفاوتة في القوة والنجاح، وهو شأن كل الحضارات والإمبراطوريات القوية الظالمة التي تسعى إلى فرض هيمنتها على الشعوب الأخرى، وبسط نفوذها عليها، ونشر ثقافتها وفكرها نمط حياتها على الآخرين، والعمل على تهميش حضارة وفكر وثقافة المقابل وتحييدها، أو محاربتها وإلغائها والقضاء عليها إذا تطلب الأمر[(٤)].

ولكن العقد الأخير من القرن الميلادي الماضي، قد شهد مناخات وظروف وأجواء مثالية لظهور وتطبيق فكرة العولمة، لم يشهدها تأريخ الإنسانية من قبل.

---

(١) ينظر: في مفهوم العولمة: السيد يسين/بحث مقدم لندوة (العرب والعولمة) / ص٣٠ / مصدر سابق .

(٢) ينظر: العرب والعولمة: العولمة والاقتصاد والتنمية العربية (العرب والكوكبة)/ إسماعيل صبري عبد الله / بحث مقدم لندوة (العرب والعولمة) / ص٣٦٣ / مصدر سابق .

(٣) ينظر: تعقيب سيّار الجميل على بحث السيد يسين / ندوة (العرب والعولمة) / ص٣٨ / مصدر سابق .

(٤) ينظر: تهديدات العولمة للوطن العربي : مها ذياب / مجلة المستقبل العربي / العدد (٢٧٦) / السنة (٢٤) / شباط ٢٠٠٢م / ص١٤٨ .

ولكي نصل إلى حقيقة هذا الأمر ونتعرف على ملابساته، فسوف نستعرض باختصار أهم الأحداث الخطيرة والكبيرة التي مرت على الساحة العالمية، والتي أدّت في النهاية إلى بروز ظاهرة العولمة بهذه الدرجة المخيفة من القوة والقدرة والإمكانيات الهائلة.

يكاد يكون هناك إجماع بين الباحثين والمفكرين على أنّ حرب الخليج وسقوط النظام الشيوعي، وبالتالي تفكك الإمبراطورية السوفيتية إلى دول عدة، قد أدّى إلى نهاية شيء تعارف على تسميته بـ (العالم الثاني) أو القطب العالمي الآخر المنافس والموازي للقطب العالمي الأمريكي أو (العالم الأول).

هذا الحدث الخطير والكبير قد أدى بدوره إلى إنفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالسيطرة والهيمنة على الساحة الدولية، ليس فقط كقوة عسكرية أو اقتصادية أو سياسية عظمى، وإنّما أيضاً كإيديولوجيا ليبرالية رأسمالية - أو على الأقل هذا ما يسعى الأمريكيون إلى إثباته، بل وفرض الاعتراف به على الآخرين- . ونتيجة لهذا سعى الأمريكيون إلى بناء نظام دولي جديد، يسود العالم ويحكمه. ففي الرابع والعشرين من يناير ١٩٩٠م، حدد الرئيس الأمريكي جورج بوش، المفهوم الأمريكي للنظام الدولي الجديد، في خطابه السنوي الذي يقدمه كل رئيس أمريكي في بداية كل عام أمام الكونغرس، فقال: « إنّ الولايات المتحدة تقف على أبواب القرن الواحد والعشرين ولابد أن يكون هذا القرن الجديد أمريكياً، بمقدار ما كان القرن الذي سبقه وهو القرن العشرون قرناً أمريكياً »[١].

لقد تمّ طرح مصطلح النظام الدولي الجديد، لأول مرة رسمياً على لسان الرئيس الأمريكي جورج بوش، في خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في

---

(١) حرب الخليج...أوهام القوة والنصر:محمد حسنين هيكل/مركز الأهرام للترجمة والنشر/القاهرة/١٩٩٢م/ص٥٥ .

أيلول ١٩٩٠م إثر اندلاع أزمة الخليج التي أفرزت خلال معالجتها في الأمم المتحدة بعض عناصر الدعوة لهذا النظام الجديد. وقد تضمن خطاب بوش بعض معالم هذه الدعوة بقوله: « إنّ النظام الدولي الجديد يولد في عالم يختلف كلياً عن الذي نعرفه، عالم يسود فيه القانون بدلاً من شريعة الغاب، وتقر الأمم المتحدة بمسؤوليتها في سبيل الحرية والعدالة، عالم تُحترم فيه بشدة حقوق الضعفاء »[١].

وكان الرئيس السوفيتي غورباتشوف قد بشّر قبله بمولد هذا النظام الدولي الجديد، وذلك في خطابه أمام جمعية الصحافة العالمية بموسكو في ١١ نيسان ١٩٩٠م بقوله: « نحن الآن في بداية عملية تكوّن نظام دولي جديد »[٢].

كما دخل هذا المصطلح في لغة مجلس الأمن الدولي لأول مرة رسمياً أثناء انعقاد مؤتمر القمة لأعضائه في نيويورك(للمدة من ٣١ /كانون الثاني- ولغاية ١ /شباط /١٩٩٢)[٣].

والحقيقة إنّ موضوع النظام الدولي الجديد قد بدأت ملامحه منذ منتصف الثمانينات من القرن الماضي، وبالتحديد منذ وصول غورباتشوف إلى سدة الحكم في الاتحاد السوفيتي السابق، ومناداته بالإصلاحات الجذرية المعروفة بـ

---

(١) النظام الدولي الجديد وحقوق الإنسان:باسيل يوسف/وهو بحث مقدم إلى الندوة الفكرية التي عقدتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بالتعاون مع مجلة (آفاق عربيسة) بتأريخ ١٩٩٢/١٢/١٧م. تحت عنوان (النظام الدولي الجديد ومخاضاته) وقد قامت دار الشؤون الثقافية العامة/ بغداد /بطباعة أعمال الندوة في كتاب تحت عنوان: (النظام الدولي الجديد..آراء ومواقف) / ط(١) / ١٩٩٢م / ص٤٧ .

(٢) المصدر نفسه/ ص٤٧.

(٣) ينظر: النظام الدولي الجديد والقانون الدولي: محمد الدوري/ بحث مقدم إلى الندوة الفكرية (النظام الدولي الجديد...آراء ومواقف) / ص١٦ / مصدر سابق .

(البيرويسترويكا)[1]. هذه التغيرات السريعة والخطيرة التي كانت تحدث في تلك الحقبة جعلت كثيراً من المراقبين والمحللين يصابون بحالة من الانبهار وعدم القدرة على التحليل الدقيق والسليم، تلك الحالة دفعت بكاتب مرموق مثل فوكوياما إلى أن يصف ما يحدث بأنّه نهاية للتأريخ في مقالته الشهيرة – التي نشرت سنة ١٩٨٩م – والتي تحمل العنوان نفسه، حيث تنبأ فيها بهزيمة النظام الشيوعي وسقوطه، وعليه – حسب فوكوياما – فإنّ النظام الليبرالي الديمقراطي بما أنّه خرج منتصراً من هذه المعركة، فهو الأحقّ والأجدر بأن يكون هو النظام الذي يتبناه العالم أجمع، فالتأريخ قد توقف وانتهى–عند فوكوياما–وليس بإمكان العقل البشري أن يأتي بنظام أفضل من النظام الديمقراطي، لأنّ البديل الشيوعي الذي كان يؤمّل منه تحقيق السعادة البشرية،قد فشل بعد تطبيق دام (٧٢) عاماً وبذلك فإنّ النظام الليبرالي الرأسمالي هو الذي سيحقق للبشرية ما تريده من الرفاه والحرية والنمو السريع المطرد في مستوى المعيشة وأنّه قد أصبح دين الإنسانية الذي لا مفر منه والذي سيعيشه إلى الأبد[2].

لقد آمن بهذه النظرية الساسة الأمريكيون، وراحوا يزهون ويتباهون بها معلنين إيمانهم المطلق بمحتواها، ومبشرين العالم أجمع بنظام دولي جديد يسود المعمورة.

ولكي نصل إلى فهم أفضل وأكثر وضوحاً حول موضوع النظام الدولي الجديد، لابد من إيراد بعض التوضيحات حول هذا الموضوع.

---

(١) ينظر: البيريسترويكا : ميخائيل غورباتشوف / دار الشروق / بيروت / ط(٢) / ١٩٨٨م .

(٢) ينظر: نهاية التأريخ : فرانسيس فوكوياما / ترجمة: حسين الشيخ / دار العلوم العربية / بيروت / ط(١) /١٩٩٣م / ص٦٠-٦٤ .

والشيء الأول الذي يجب أن نعرفه، أنّ مصطلح (**النظام الدولي الجديد**) ليس مصطلحاً مخترعاً أو مبتكراً، لحالة جديدة يعيشها العالم. وإنّما هذا المصطلح هو في الحقيقة يطلق على كل مرحلة جديدة تعقب مرحلة سابقة عاشتها الدول. وهذه المرحلة الجديدة تتطلب نظاماً جديداً في العلاقات الدولية، فيطلق على هذا النظام الدولي وصف (الجديد) تمييزاً له عن النظام الدولي السابق (القديم) الذي كان يحكم في السابق العلاقات بين دول العالم.

ولو رجعنا إلى التأريخ ونحن نبحث مراحل تطور(النظام الدولي) فسوف نجد أنّ هذا الموضوع قد ظهر لأول مرة بصورة رسمية في القرن السابع عشر وبالتحديد في (معاهدة وستفاليا)(١)، سنة ١٦٤٨م وتأتي أهمية هذه المعاهدة ، كونها

---

(١) (معاهدة وستفاليا) : هو الصلح الذي أنهى الحرب الدينية أو(حرب الثلاثين عاماً) في أوربا، ويعد هذا الصلح من التسويات الفائقة الأهمية في تاريخ أوربا الحديث لأنّه ظل الأساس الذي تستند عليه الدول الأوربية في علاقاتها الرسمية منذ وقت إبرامه سنة ١٦٤٨م وإلى قيام الثورة الفرنسية ١٧٨٩ م. كذلك تبدو أهمية هذه الوثيقة التاريخية الهامة أنّها تناولت مسائل متنوعة، سواء أكانت داخلية خاصة بألمانيا أم دولية خاصة بالدول المعنية الأخرى. وكانت أبرز نتائج هذه المعاهدة :

١- حل المشكلة الدينية من خلال الاعتراف بالمذهب الكالفيني ، وإعطاء حرية اعتناق المذاهب الأخرى .

٢- تقرر أن تحتفظ الكنيستان الكاثوليكية والبروتستانتية بجميع الأملاك التي كانت تسيطر عليها لحين سنة ١٦٤٢ م .

٣- اقتسام الغنائم بين المنتصرين على حساب ألمانيا .

ينظر بخصوص هذا الموضوع :معالم التأريخ الأوربي الحديث : جلال يحيى وجاد طه / منشأة المعارف / الإسكندرية / ١٩٧٤م / ص٢٢٩-٢٤٧ .

أول سعي جاد ومنظم لإقامة نظام دولي على أسس قانونية وتعاون مشترك بين أعضائها، بدلاً من الحروب والمنازعات.

وبعد ذلك بدأت مرحلة جديدة من مراحل النظام الدولي، بسبب عجز وفشل النظام الدولي السابق المتمثل بمعاهدة وستفاليا، هذا النظام الجديد تمثّل بـ (معاهدة فيّنا)[1] سنة ١٨١٥م، والتي عملت على إعادة التوازن الدولي للمجموعة الأوربية.

ولكن (معاهدة فيّنا) هي الأخرى لم تحقق نجاحاً كبيراً، إذ حصلت خروقات كثيرة لبنودها وقامت نزاعات وحروب كثيرة، توجّت بنشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م، وإعلان موت(معاهدة فيّنا) وأنّها أصبحت نظاماً دولياً قديماً لا يصلح العمل بها.وعليه قام نظام دولي جديد بعد انتهاء الحرب سنة ١٩١٨م. أعلن عنه في(مؤتمر فرساي)[2] سنة ١٩١٩م.

---

(١) (معاهدة فينا) : وهي معاهدة وقعتها الدول الأوربية المتحالفة ، للقضاء على الإمبراطورية الفرنسية ووضع حد لحروب نابليون وأطماعه ، بعد أن أخضع نصف أوربا لسيطرته وحكمه، وقد سعت هذه المعاهدة إلى إعادة التوازن الدولي وتسوية الخلافات بين الدول الأوربية ، وكانت أبرز نتائج هذه المعاهدة :

١- حصول كل دولة عظمى على الأراضي التي كانت بحوزتها لحد عام ١٨٠٥م .

٢- خضوع فرنسا لسيطرة قوات الحلفاء حتى عام ١٨١٨م ، وإعادة حدودها إلى ما كانت عليه عام ١٧٩٠م .

٣- إعلان منافاة تجارة الرق للمبادئ الإنسانية وتحريمها .

ينظر: أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين / أ.ج. جرانت وهارولد تمبرلي / ترجمة بهاء فهمي / دار الحمامي / القاهرة / تُرجم إلى اللغة العربية عن الطبعة(٦) / بدون (ت) / ص٢٨٠-٢٨٥ .

(٢) (مؤتمر فرساي) : وهي المعاهدة التي تم بمقتضاها الصلح بعد الحرب العالمية الأولى ، التي انتهت بانتصار دول الحلفاء على دول المحور. ومن أهم النتائج التي تمخضت بموجب هذه المعاهدة :=

هذا النظام الدولي الجديد لم يستمر بدوره هو الآخر طويلاً، إذ سرعان ما أعلن عن موته، بتصاعد وانتشار العقيدة النازية والفاشية وتنامي قوتها وخطرها، ومن ثم نشوب الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩م.

وفي نهاية سنة ١٩٤٤م، وقُبيل نهاية الحرب أيقن الحلفاء بالنصر، وشعروا بالحاجة الملحة إلى وضع نظام دولي جديد يسود العالم ويحكمه، ويمنع قيام مثل هكذا حروب سافرة ومدمرة مرة أخرى، فعقدوا من أجل ذلك مؤتمري يالطا وبوتسدام في (نوفمبر ١٩٤٤م - مايو ١٩٤٥م)[1]. وكلا المؤتمرين اقتصر

=١- إنشاء ما عُرف بـ (عصبة الأمم) وهي منظمة دولية رسمية كانت تلعب دور الأمم المتحدة اليوم .

٢- اقتطاع بعض الأجزاء من ألمانيا، وإلزامها بدفع تعويضات الحرب .

٣- تقسيم الحدود بين بلدان أوربا الشرقية والشرقية الجنوبية - والذي كان أحد الأسباب المهمة التي مهدت للحرب العالمية الثانية فيما بعد - .

٤- تقاسم المستعمرات في آسيا وأفريقيا بين (فرنسا - إنكلترا) .

ينظر: الحرب العالمية الثانية / صلاح العقاد / مكتبة الانجلو المصرية / القاهرة / بدون (ت) / ص٧-١٦ .

(١) (يالطا و بوتسدام): وهما المؤتمران اللذان عُقدا باشتراك الدول المتحالفة الكبرى التي خرجت بعد الحرب منتصرة وقوية وهي(الاتحاد السوفيتي-الولايات المتحدة الأمريكية- بريطانيا) وقد خصص المؤتمرين لبحث الأوضاع الدولية في فترة ما بعد الحرب ، وأيضاً تقسيم الغنائم بين المنتصرين وإعادة رسم الحدود. ومن أبرز نتائج المؤتمرين:

١- عُدت مقررات مؤتمري يالطا وبوتسدام الأساس الذي قامت عليه منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي.

٢- كان من إفرازات الحرب العالمية الثانية،ظهور حقيقة وجود قوتين عظمتين على الساحة لا ثالث لهما،وهما القطب الأمريكي الليبرالي الرأسمالي والقطب السوفيتي الشيوعي=

حضوره على الدول العظمى القوية الثلاث التي خرجت منتصرة بعد الحرب، وكانت قرارات هذين المؤتمرين هي الأساس الذي قام عليه النظام الدولي الجديد، الذي انتهى بدوره هو الآخر سنة ١٩٩١م بانهيار النظام الشيوعي وتفكك الإمبراطورية السوفيتية، ونشوب حرب الخليج التي كانت الإعلان الحقيقي عن ولادة النظام الدولي الجديد، فأصبح العالم يعيش بعد هذه الحرب وللمرة الأولى في تاريخه هيمنة قطب واحد أو قوى واحدة عليه -على الأقل لغاية هذا اليوم-(١).

=الماركسي،هذان القطبان ظلا متناحرين ومتنازعين في حرب غير عسكرية عُرفت بـ(الحرب الباردة) حتى سنة١٩٩١م.وكان وجودهما سبباً في استقرار الأوضاع نوعاً ما.

٣- إلزام ألمانيا بدفع تعويضات الحرب وإرهاقها بها، وفرض العقوبات السياسية والاقتصادية والعسكرية عليها ومن ثم تقسيمها إلى شطرين كما أوربا كما العالم كله شطر شرقي موالٍ أو خاضع للإتحاد السوفيتي وشطر غربي موالٍ أو خاضع للولايات المتحدة الأمريكية.

٤- رفض الأمريكان وبشدة إعادة توازن القوى بين دول أوربا الذي نادت به بريطانيا، على أساس أنّ هذا الحل-والذي كان يعمل به في كل مرة - هو السبب الأساسي في قيام الحروب طيلة الفترة السابقة ، فكانت فكرة أمريكا البديلة هي وجود قوة عظمى وحيدة في أوربا - الغربية - تكون محايدة ، وتعمل على نشر السلم وفضّ الخلافات والمنازعات. وطبعاً هذه القوة العظمى هي(أمريكا) وهذا ما حصل فعلاً، عندما اكتشفت بريطانيا أنّها أضعف سياسياً وعسكرياً واقتصاديا - بعد الحرب - من أن تكون داخل محور- الدول العظمى- ينظر: الحرب العالمية الثانية:صلاح العقاد / ص٣٨٢-٤٠٢ / مصدر سابق .

(١) بالنسبة لمراحل نشوء وتطور النظام الدولي/ ينظر: النظام العالمي الجديد والعالم الإسلامي: سعيد بن عبدالله المهيري/ مجلة رسالة التقريب/ العدد (٢٧) من على موقع المجلة على شبكة: www.taghrib.org

والأمر الذي نلاحظه ونحن نتتبع مراحل تطور النظام الدولي، أنّ بين كل نظام دولي قديم وآخر جديد هناك حرب كبرى، أو سلسلة حروب كبرى عالمية وشبه عالمية تفصل بينهما.

وأمرٌ آخر يلاحظه "جميل مطر" في ما يتعلق بدور الولايات المتحدة الأمريكية في موضوع النظام الدولي في القرن الماضي فيقول: « في مرات ثلاث خلال قرن واحد وقعت أحداثٌ دولية هائلة وأعقبها جميعاً حالة سيولة في العلاقات الدولية واختلال موازين القوى. وفي المرات الثلاث من دون استثناء، خرجت الولايات المتحدة الأمريكية على العالم معلنة نفسها القطب الأوحد، ومبشرة بنظام دولي جديد. حدث هذا الأمر في أعقاب الحرب العالمية الأولى وحدث في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وحدث في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي، القطب الأعظم الثاني في النظام الدولي السابق.

في المرتين الأولى والثانية لم يدم استمتاع الولايات المتحدة بزعمها أو بزعامتها طويلاً ففي المرة الأولى تغلب تيار الانعزالية في السياسة الأمريكية، فتخلت عن أي دور لها في تفاعلات ما بين الحربين، وفي المرة الثانية وكانت أقوى قوة عسكرية وأقوى قوة اقتصادية، لم تمض أعوام إلا وكان الاتحاد السوفيتي قد زحف متقاسماً القمة الدولية مع الولايات المتحدة»[١].

وهاهي الآن تعود إلى الإعلان عن ذات الشيء بثقة أكبر وإمكانيات أعلى، وما زال العالم ينتظر ويتأمل قيام قطب آخر أو أقطاب، تنافس هذه القوة العظمى الطاغية .

---

(١) مستقبل النظام الإقليمي العربي : جميل مطر / مجلة المستقبل العربي / العدد(١٥٨) / نيسان ١٩٩٢م / ص١٤.

وأمرٌ آخر يجب أن ننتبه إليه، وهو أنّ هناك فرقاً بين النظام الدولي، والنظام العالمي، حيث أنّ كثيراً من الباحثين يخلطون بين المفهومين ولا يفرقون بينهما.

فقد تميز النظام الدولي الذي نعيشه حالياً عن غيره من الأنظمة الدولية السابقة بظهور مؤسسات وهيئات ومنظمات عالمية غير رسمية، أصبح لها نفوذ واسع وتأثير كبير على القرارات الدولية في شتى المجالات، ولها أيضاً شعبية واسعة وأنصار كُثر بين جماهير العالم، مثل منظمات حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الطفل وأنصار البيئة ومنظمة العفو الدولية...الخ. وهذا ما حدا الباحثين إلى أن يتركوا مصطلح (النظام الدولي الجديد) ويستبدلوه بمصطلح (النظام العالمي الجديد)، وهو الذي طغى في نهاية الأمر في الخطابات السياسية وفي الأدبيات الرسمية للأمم المتحدة أو حكومات الدول. ذلك أن القرار لم يعد حكراً على الدول أو الحكومات، وإنما تشترك في صياغته وإقراره تلك المؤسسات والمنظمات العالمية غير الرسمية، والتي أصبح لها حصة وتأثير في مضمون ونتيجة القرار الدولي(١).

وعلى الرغم من كل هذا، فإنه يوجد من ينكر وجود نظام دولي أو عالمي جديد، ويذهب إلى أن ما يسمى بالنظام العالمي الجديد ما هو إلاّ استمرار للقديم أي للهيمنة والتكبر الغربي ولكن بثوب جديد. ومن هؤلاء: محمد حسنين هيكل، فهو منذ البداية اعتقد: « أنّ ما ظهر بعد انتهاء الحرب الباردة لم يكن نظاماً عالمياً جديداً ، وإنّما كان أقرب إلى ترتيبات جديدة، يستحدثها نظام عالمي قديم يعيد بها دوره في ظروف متغيرة »(٢).

---

(١) ينظر: تداعيات أحداث سبتمبر على النظام الدولي / نظام بركات / ١١-٩-٢٠٠٢م / من على موقع قناة الجزيرة الفضائية على الشبكة: www.aljazeera.net

(٢) حرب الخليج .. أوهام القوة والنصر: محمد حسنين هيكل / ص٥٥ / مصدر سابق .

ونحن إذا ما قارنا اعتقاد هيكل هذا، مع تصور واعتقاد جورج بوش عن هذا النظام الجديد – وقد صدر كلاهما في بداية ظهور هذا المصلح – حين قال: « إنّ لدينا رؤية تقوم على المشاركة الجديدة للدول، وهي مشاركة تتجاوز الحرب الباردة وتستند إلى التشاور والتعاون والعمل الجماعي، وبخاصة من خلال المنظمات الدولية والإقليمية... مشاركة يوحدها المبدأ وسيادة القانون ويدعمها الاقتسام المتساوي للتكاليف والالتزامات... وتهدف إلى زيادة الديمقراطية والازدهار والسلام وتخفيض الأسلحة »[1].

فبعد مرور ما يزيد على العشر سنوات على كلا الرأيين، فإن أي مراقب أو متتبع للأحداث العالمية التي جرت خلال تلك الحقبة، لا يملك إلاّ أن يقول:**«كذب بوش وصدق هيكل!!»**.

ذلك أننا إذا عمدنا إلى تحليل رؤية جورج بوش حول النظام العالمي الجديد الذي يبشر به، فإننا سنجد الإجراءات العملية التي أتخذها ومن بعده، على النقيض تماماً مما يدعو إليه.

فيما يتعلق بوعود بوش حول نشر الديمقراطية، وفق رؤيته للنظام العالمي الجديد الذي ينبغي أن يسود العالم، فقد ثبت بالوقائع أن الانتخابات الحرة النزيهة، إذا أفرزت أنظمة حكم لا تتفق مع مصالح الغرب، فإنّ الغرب لن يتردد أو يتأخر في إجهاض هذه الديمقراطية، لا بل التدخل المباشر لوأدها، وما مثال الانتخابات التي جرت في الجزائر سنة ١٩٩١م، وفوز جبهة الإنقاذ الإسلامية، ومن ثم إلغاء

---

(١) من خطاب الرئيس الأمريكي جورج بوش أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١-١٠-١٩٩٠م / نقلاً عن : العالم الثالث والنظام الدولي الجديد : رياض عزيز هادي / بحث مقدم إلى الندوة الفكرية (النظام الدولي الجديد...آراء ومواقف) / ص٢١٥ / مصدر سابق .

هذه الانتخابات، والأحداث الدامية المأساوية التي جرت بعد ذلك، إلا دليل حي على كذب ادعاءات الغرب بهذا الخصوص[١].

وفيما يتعلق بكلامه عن الازدهار فالتقارير تشير إلى أنّ (واحداً) من كل (ثمانية) أمريكيين يعيش دون مستوى خط الفقر، (٢٠%) منهم من الأطفال...وما يزيد عن (٤٠) مليوناً من الأمريكيين محرومون من الرعاية الصحية... وأنّ ما نسبته (١%) من العائلات الأمريكية المنتمية إلى الشريحة العليا تمتلك ثروات تفوق إجمالي ما يمتلكه (٩٥%) من العائلات الأخرى المنتمية إلى الشريحة القاعدية[٢].

أمّا على المستوى العالمي فهناك (١,٢) بليون نسمة يعيشون على أقل من دولار واحد في اليوم، و(٨٢٨) مليون نسمة ينامون جائعين، و(١١٤) مليون طفل في عمر الدراسة الابتدائية لا يذهبون إلى المدرسة، و(١١) مليون طفل يموتون سنوياً لأسباب يمكن تفاديها، و(١,٨) بليون نسمة يعيشون في بلدان تفتقر إلى العناصر الأساسية للديمقراطية[٣].

أما نكتة الحلم الأمريكي عن السلام العالمي الموعود، فيكفي أن نشير إلى قول كلايد برستوفتز: « وحسب ما أعلم لم تكد سنة واحدة تمر، منذ توقيع الدستور ١٧٨٩م وحتى اليوم، لم تكن الولايات المتحدة فيها متورطة في عملية عسكرية ما، فيما وراء البحار.. يصل المجموع الكلي لها إلى (٢٣٥) حادثة

---

(١) ينظر بخصوص هذا الموضوع: في أصل الأزمة الجزائرية (١٩٥٨م-١٩٩٩م) : عبدالحميد الإبراهيمي / مركز دراسات الوحدة العربية / بيروت / ط(١) / ٢٠٠١م / ص٢٢٠-٢٥٦ .

(٢) ينظر: المسح السكاني/ ملحق آذار/ الصادر عن مكتب الإحصاء الأمريكي/ ١٥-١٢-١٩٩٩م / نقلاً عن : الدولة المارقة : أحادية الدفع في السياسة الخارجية الأمريكية : كلايد برستوفتز / تعريب فاضل جتكر / شركة الحوار الثقافي / بيروت / ط(١) / ٢٠٠٣م /. ص٥٤ .

(٣) ينظر : تقرير التنمية البشرية للعام ٢٠٠٤م / ص٣٠ / الصادر عن البرنامج الإنمائي التابع لمنظمة الأمم المتحدة / من على موقع المنظمة على الشبكة: www.undp.org

منفصلة، من الممكن عدّ (٢٥-٣٠) منها حروباً بالمعنى الكامل لكلمة الحرب »[١]. وبلغ عدد النزاعات عام ١٩٩١م، على سبيل المثال (٤٨) نزاعاً مسلحاً في مختلف أنحاء العالم، وفي بداية عام ٢٠٠٣، كان (٢٢) منها لا يزال مستمراً[٢]. وتتبخر الوعود الأمريكية بتخفيض الأسلحة في الهواء عندما نعلم: « أنّ حصة الولايات المتحدة من الإنفاق الدفاعي الإجمالي في العالم تصل إلى (٤٠%) وهي نسبة متزايدة، أي أنّها تنفق ما يوازي إنفاق البلدان التسعة التي تأتي بعدها مجتمعة. وهذا الأمر لم يسبق للعالم أنّ كان شاهداً على مثله أبداً »[٣].

والولايات المتحدة هي التي تنشر (١٢٠) ألف جندي أمريكي في أوربا، و(٩٢) ألف في شرق آسيا والمحيط الهادئ و(٣٠) ألف في نصف الكرة الغربي خارج الولايات المتحدة[٤].

وخلال العشر سنوات الأخيرة أقدمت الولايات المتحدة على رفض أو الانسحاب من: معاهدة حظر الألغام الأرضية، ومعاهدة حظر الاتجار بالأسلحة الخفيفة، ومعاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية، ومعاهدة حظر الصواريخ العابرة (البالستية)، ومعاهدة الحرب الكيميائية، ومعاهدة الحرب البيولوجية[٥]. وعليه، فإنّ باسيل يوسف كان على حق حين قال: « نحن أمام عهد دولي جديد، ولسنا أمام نظام دولي جديد »[٦].

---

(١) الدولة المارقة : كلايد برستوفتز / ص٢٢٤ / مصدر سابق .

(٢) ينظر : تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٤ / ص٤٠ / مصدر سابق .

(٣) الايكونوميست / ٢٩-٢-٢٠٠٢م / نقلاً عن : الدولة المارقة / ص٣٨ / مصدر سابق .

(٤) فاينانشال تايمز/ ١٨-٢-٢٠٠٢م / نقلاً عن : الدولة المارقة / ص٣٧ / مصدر سابق .

(٥) الدولة المارقة / ص١٨٨ / مصدر سابق .

(٦) النظام الدولي الجديد وحقوق الإنسان : باسيل يوسف / ص٤٨ / مصدر سابق .

وبما أنّ لكل مرحلة من مراحل النظام الدولي، ميزات وسمات، تختلف عـن المرحلة السابقة، فإنّ النظام الدولي السابق، قد شاعت فيـه مفـاهيم ومـصطلحات ومواضيع، سيطرت على العلاقات الدولية وطغت في الخطابـات الـسياسية وفـي المؤتمرات والندوات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية... ومن تلك المـصطلحات: مصطلح الحرب الباردة، عالم القطبين، حلف وارشو، منظمة عدم الانحياز، السيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، القومية، الأممية... وغيرها مـن المـصطلحات والمفاهيم التي لم يعد لها وجود في عالمنا الجديد - أو على الأقل خفت بريقها إلـى حد كبير-. وظهرت بدلاً عنها مصطلحات ومفاهيم ومواضيع جديـدة، هـي الآن الشغل الشاغل للمجتمع الدولي من مثل: مصطلح حقوق الإنسان، نشر الديمقراطية، الإرهاب، عالم القطب الواحد، الحرب الاستباقية ومن ثم الوقائية، نهايـة التـأريخ، صراع الحضارات، التجارة الحرة...وأخيراً وليس آخـراً المـصطلح والظـاهرة الأقوى والأخطر والأشهر من ظواهر النظام (العهد) العـالمي الجديـد، ألا وهـي ظاهرة (العولمة) .

هذه الظاهرة التي بلغ من سيطرتها وتأثيرها وهيمنتها على مجمل العلاقات والنشاطات والخطابات الدولية الرسمية وغيـر الرسـمية، وعلـى كافـة الـصُعُد والميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكريـة.. إلـى درجـة أنّ بعـض الباحثين باتوا يعتقدون أنّ ما يسمى بـ (**النظام العالمي الجديد**) الذي ولد في بداية التسعينات من القرن الماضي، قد مات وهو في مهده، وحل محله نظام جديد آخـر يطلق عليه اسم (**العولمة**)[1].

(١) ينظر بخصوص هذا الموضوع على سبيل المثال: الخصوصيات الحضارية وعالمية حقـوق الإنسان : هيثم مناع من على الموقع علـى الـشبكة : WWW.bredband.net. وينظـر أيضاً:(The Lexus And The olive Tre-Tomas Fredman) / نقلاً عن: عولمـة=

ولكن الحقيقة هي أنّ العولمة ليست إلاّ ظاهرة من ظواهر هذا العهد الدولي الجديد وواجهة من واجهاته وسلاح من أسلحته، التي يسعى من خلالها وبها، إلى تحقيق أهدافه وغاياته ومصالحه.

في ظل هذه الظروف والأوضاع الدولية والعالمية، ظهرت وبرزت العولمة، كواحدة من أخطر تجليات العهد الدولي الجديد، ولكن هذا الظهور- كما سبق وبينا- لا يعني أنّها ظاهرة جديدة، لم تكن موجودة من قبل، وإنّما القصد من ذلك أن الساحة العالمية لم تشهد أجواءاً مناسبة وظروفاً مثالية، تبرز وتنتشر فيها ظاهرة العولمة، كالتي شهدتها فترة ما بعد الحرب الباردة وهيمنة القطب الأوحد الأمريكي على الساحة العالمية، ومن أهم الأمور الأخرى التي ساهمت في ظهور وانتشار العولمة، ثورة الاتصالات الهائلة، وسيولة المعلومات، وسهولة الحصول عليها، والتي أدت إلى تقلص حجم العالم، وجعله أكثر اندماجاً وتشابكاً.

فأخبار المجتمع والسياسة والثقافة والمعلومات المالية والصور المرئية... أصبحت تنتقل من خلال تطوّر الحواسيب الإلكترونية والأقمار الصناعية وشبكة الإنترنت، في كثير من أرجاء المعمورة في اللحظة ذاتها. وأصبح عالمنا المعاصر أشبه بـ (القرية الكونية) الصغيرة، التي تنبأ بها (ماك لوهان) في نهاية الستينات من القرن الماضي(١). لا بل هو كذلك الآن.

=السياسة والعولمة السياسية : عبد الخالق عبد الله / مجلة المستقبل العربي / العدد (٢٧٨) / السنة(٢٤) / نيسان ٢٠٠٢م / ص٢٦ .

(١) ينظر: سيناريو أبستمولجي حول العولمة : هشام البعّاج / مجلة المستقبل العربي / العدد (٢٤٧) / السنة(٢٢) / أيلول ١٩٩٩م / ص٤٥ .

فقد صرحت إحدى الشركات الأمريكية بأنّها سوف تطلق قمراً صناعياً يبث (١٥٠٠) قناة تلفازية في آنٍ واحد، أمّا كفاءته فإنّها تعادل مجموعة الأقمار الصناعية الحالية... وشبكة الإنترنت القادمة ستصل سرعتها إلى (٢٠٠٠) مثل الشبكة الحالية، وأنّ الإنسان بإمكانه الآن مشاهدة مئات القنوات التلفزيونية وهو في مكتبه أمام الكمبيوتر، وقد اتفقت (١٥) شركة أمريكية وأوربية ويابانية على مشروع يؤدي إلى تطويق الكرة الأرضية بكوكبه من الأقمار الصناعية، تساعد هذه الأقمار أيّ شخص في أيّ مكان في العالم، على الاتصال بأيّ شخص آخر في العالم، والتقاط البث الفضائي مباشرة من دون الحاجة إلى الأطباق[١].

وأبلغ تعبير يصف هذه الحالة هو قول (كينشي أومـاي)[٢]: « إنّ أكثر ما يُميّز عالم العولمة اليوم أنّه عالم بلا حدود »[٣].

---

(١) ينظر: جدلية العولمة بين الاختيار والرفض : عبد الجليل كاظم الوالي / مجلة المستقبل العربي / العدد(٢٧٥) / السنة(٢٤) / كانون الثاني٢٠٠٢م / ص٧٠ .

(٢) رئيس شركة (مال كينزي) الشهيرة والمسمى في الغرب بـ (نبي العولمة) .

(٣) عالم بلا حدود : كينشي أوماي / نقلاً عن : عولمة السياسة والعولمة السياسية / عبد الخالق عبد الله / ص٢٤ / مصدر سابق.

المبحث الثاني

مفهوم العولمة والعولمة الثقافية

مفهوم العولمة:

« فرق كبير بين أن يحار المرء في كيفية الوصول إلى مدخل لكلامه عن مشكلة ما أو أمر ما، وبين أن يكون منبع الحيرة كثرة المداخل »[1].

بدون شك إنّ مفهوم العولمة هو أحد هذه الموضوعات التي تثير في النفس هذا النوع الأخير من الحيرة.

والحقيقة التي يجب أن نعرفها، أنّ هذا المصطلح بصيغته اللغوية، الإنكليزية أم الفرنسية أم بترجمته العربية، لم يكن له وجود في المعاجم والقواميس العالمية، حتى مطلع التسعينات من القرن العشرين المنصرم[2].

ولفظة – العولمة – هي الترجمة العربية التي اعتمدها سمير أمين للفظة– Globalization– باللغة الإنكليزية أو–Mondialization– باللغة الفرنسية[3].

---

(١) انهيار مزاعم العولمة..قراءة في تواصل الحضارات وصراعها..البعد المفهومي والتاريخي : عزت السيد أحمد /من منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق/٢٠٠٠م/من على موقع الإتحاد على الشبكة: www.awu-dam.org

(٢) ينظر: العولمة .. الموضوعي والذاتي في المشهد العربي الراهن : سيار الجميل / من محاضرة له ألقاها في الملتقى الفكري لمعرض الشارقة الدولي الثاني والعشرون للكتاب /مساء يوم الأثنين٨-١١-٢٠٠٣م / نقلاً عن جريدة الزمان/العدد(١٧١٩)/ ٢٦-١-٢٠٠٤م / من على موقع الجريدة على الشبكة: www.azzaman.com

(٣) ينظر: التحديات المستقبلية للتكتل الاقتصادي العربي ... العولمة والتكتلات الإقليمية البديلة : إكرام عبد الرحيم /مكتبة مدبولي/ القاهرة / ٢٠٠٢م / ص١٢٢.

بينما ترجمها إسماعيل صبري عبد الله إلى -الكوكبة- [1]. أمّا سيار الجميل فقد ترجمها إلى- الكوننة – [2].

ولكن في النهاية طغت لفظة (العولمة) على غيرها، وأصبحت الأكثر شيوعاً وانتشاراً، وذلك لقربها من اللفظتين الشائعتين في اللغتين الإنكليزية والفرنسية[3].

وهذا المصطلح شأنه شأن معظم المصطلحات الناشئة خارج وطننا العربي والإسلامي، لم تصل إلى ساحتنا الفكرية إلاّ بعد ما حظيت بما حظيت من الدرس والبحث والتمحيص في الكواليس الغربية. ففي حين أنّه قد مضى على مصطلح – العولمة – ما يقرب من عقد ونصف من السنين من الاهتمام الغربي به، حيث عقدت الندوات، وصدرت البحوث والدراسات عنه، فإنّ التفاتنا إليه لم يبدأ إلاّ في نهاية التسعينات من القرن الماضي، وبالتالي فإنّ تعاملنا معه لن يعدو التلقي، إلاّ بتفاوت أساليب هذا التلقي ومستوياته، أمّا المشاركة والإضافة فأغلب الظن أنّها مسألة بعيدة المنال الآن، إن لم تكن من قبيل المحال[4].

ولكي نصل إلى فهم أفضل للفظة (العولمة) لابد وأن نستعرضها لغوياً، « فالعولمة لغة: ومثلها القوننة، والحوقلة، والرودنة، والقوقعة، والهوجلة، على وزن فوعلة. وهي من المصادر القياسية في اللغة العربية، وبالتالي فهي مصطلح

---

(١) العرب والعولمة .. العولمة والاقتصاد والتنمية العربية (العرب والكوكبة) : إسماعيل صبري عبد الله / ص٣٦١ / مصدر سابق .

(٢) العولمة .. الموضوعي والذاتي في المشهد العربي الراهن : سيار الجميل / مصدر سابق .

(٣) ينظر: المصدر نفسه .

(٤) ينظر: انهيار مزاعم العولمة .. في النشأة والبعد التاريخي : عزت السيد أحمد / مصدر سابق.

سليم من النحت والتركيب. والمصادر في اللغة العربية وفي كثير من اللغات غيرها تختص دون غيرها من المفردات باتساع اتجاهاتها الدلالية من حيث إمكان اتجاهها أكثر من وجهة. فهي قد تنوب مناب الفعل فيكون معناها أداء الفعل الذي مادته الجذر اللغوي الذي هو (العالَم) هنا. وبذلك يكون معنى العولمة جعل الشيء - مادة العولمة- عالمياً أو على مستوى العالم. وقد يكون المصدر مفعولاً مطلقاً فيكون بذلك مؤكداً لفعله .. والمصدر في الأصل: اسم دال على حدث جار على فعله.

وأيّاً كان الأمر فإنّ الدلالة اللغوية لن تنأى عن كون الجذر والمصدر منه وهي الإشارة إلى إسباغ صفة العالمية على موضوع ما هو (فعل العولمة) »[١].

وعليه فأنّ لفظة (العولمة) غير موجودة في المعاجم والقواميس اللغوية العربية وإنّما هي- وحسب التعريف اللغوي - مصدر قياسي، قِيسَ على غيره من الكلمات أشتق من جذر كلمة هي (العالَم).

وفيما يخص مفهوم العولمة من الناحية الاصطلاحية، فأن الإشكالية التي نواجهها هي التعدد والتنوع الكبير في مفهوم العولمة ذلك أنّ: « نقل معنى ودلالات مصطلح من علم إلى علم ، أو من حضارة إلى حضارة أو من ثقافة إلى ثقافة ، أو من لغة إلى لغة ، يسبب التباساً وغموضاً فيدرك دارسوا العلوم الإسلامية أنّه حينما تنقل مصطلحاً من علم الأصول إلى علم الحديث ينجم عن ذلك اختلال دلالي وهكذا إذا أخذنا مصطلحاً من الأنثربولوجيا ونقلناه إلى دائرة العلوم السياسية فلابد أنّ تعاد صياغته حتى يصبح متسّقاً مع المجال الذي أدخل فيه »[٢].

---

(١) انهيار مزاعم العولمة .. البعد المفهومي والتاريخي : عزت السيد أحمد / مصدر سابق .

(٢) التباسات المفاهيم في الفكر الإسلامي المعاصر : ندوة فكرية نظمتها مجلة (قضايا إسلامية معاصرة) الصادرة عن مركز دراسات فلسفة الدين / بغداد / وقد شارك فيها مجموعة من=

ونستطيع أن نعزو أسباب هذا التعدد والتنوع والاختلاف في صياغة مفهوم للعولمة إلى عدة أمور، أهمها تنوع وتعدد التخصصات الفكرية التي يحملها الباحثون في مفهوم العولمة، حيث يحاول كل واحد منهم أن يُعرِّف العولمة من وجهة نظر تخصصه ويحاول إعطاء مسحة شمولية وعامة لتعريفه هذا، وبالتالي يأتي التعريف ناقصاً من وجهة نظر أصحاب التخصصات الأخرى.

وهناك أيضاً عامل مهم آخر، هو القناعات والمرجعيات الفكرية التي يتبناها الباحثون في مفهوم العولمة حول موضوع العولمة ذاته، من ناحية رفضها أم قبولها معاداتها أم تأييدها، فهذا العامل يؤثر كثيراً في صياغة تعريف للعولمة. هذا فضلاً عن تعدد صور العولمة فهناك عولمة سياسة وهناك عولمة اقتصادية وعولمة ثقافية وعولمة اجتماعية.. وبالتالي يصعب على الباحث أعطاء تعريف شامل وعام لمفهوم العولمة.

ولكن في النهاية، يرجع السبب في التعدد والتنوع الكبير في مفهوم العولمة، والاختلاف في صياغة تعريف متفق عليه- برأي الباحث - إلى انقسام الباحثين في مفهوم العولمة إلى قسمين:

القسم الأول: (المثاليون) وهم الذين يعرفون العولمة على أساس نظري، أو على أساس ما ينبغي أن تكون عليه العولمة. وينتمي إلى هذا القسم على الأغلب الداعون للعولمة، المبشرون بها، والمؤيدون لها، وأيضاً المؤسسات الدولية الرسمية والمجاميع اللغوية والمعجمية العالمية. نذكر من هذه التعريفات، التعريف الذي قدّمه

=الأكاديميين المتخصصين والنص المقتبس لـ (أبوبكر قادر) أستاذ علم الاجتماع بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة / العددان(٢٤،٢٥) / لندن / صيف وخريف٢٠٠٣م / ص١١٤.

معجم ويبسترز للمصطلح (Globalization) وهو: « إكساب الشيء طابع العالمية وبخاصة جعل نطاق الشيء أو تطبيقه عالمياً »(١).

وقد جاء قرار مجمع اللغة العربية بالقاهرة بإجازة استعمال العولمة بمعنى **(جعل الشيء عالمياً)**(٢). وقدمتها موسوعة الإدارة والأعمال على أنّها: « عملية زيادة الالتحام في الحضارة العالمية »(٣).

ويجري العُرف السائد في الأدبيات الغربية على تعريف العولمة بأنّها: « زيادة درجة الارتباط المتبادل بين المجتمعات الإنسانية من خلال عمليات انتقال السلع ورؤوس الأموال وتقنيات الإنتاج والأشخاص والمعلومات »(٤).

وهي عند علي حرب تعني: « جعله عمليات تاريخية متداخلة تتجسد في تحريك المعلومات والأفكار والأموال والأشياء وحتى الأشخاص، بصورة لا سابق لها من السهولة والآنية والشمولية والديمومة، أنّها قفزة حضارية تتمثل في تعميم التبادلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، على نحو يجعل العالم سوقاً للتبادل أو مجالاً للتداول أو أفقاً للتواصل... ونحن نجد أنفسنا اليوم إزاء حدث كوني ندخل

---

(١) WEbstir's Nuth New Collegiate Dictionary-١٩٩١-P.٥٢١ / نقلاً عن: الهوية والعولمة من منظور حق التنوع الثقافي :عبد العزيز بن عثمان التويجري / مصدر سابق .

(٢) العولمة والحياة الثقافية في العالم الإسلامي-عبد العزيز بن عثمان التويجري-من على موقع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة على الشبكة: www.isesco.org

(٣) TheinternationalEncyclopadiaOfBusiness-Management.١٩٩٦.Vol.P.١٦٤٩. / نقلاً عن : انهيار مزاعم العولمة .. البعد المفهومي والتاريخي : عزت السيد أحمد / مصدر سابق .

(٤) ينظر: تعقيب عمرو محي الدين على بحث السيد يسين/ ندوة (العرب والعولمة) /ص٣٥/ مصدر سابق.

معه في العصر الكوكبي بآفاقه ومجالاته، بثرواته وتحولاته، وهذا العصر تختصره أربعة عناوين كبرى لفتوحات وابتكارات وقدرات وتكتلات تُؤثِرُ في حياة البشر وتهيمن على مُقدّراتِهم ومصائرهم هي: الاقتصاد الإلكتروني، والمجتمع الإعلامي، والمجال التلفزيوني أو البصري، والفضاء البرّاني الذي يعني القدرة على السمع والرؤية واللمس والتحكم من على بعد »[١].

والمضمون الرئيسي للعولمة عند برهان غليون هو أنّ المجتمعات البشرية التي كانت تعيش كل واحدة في تأريخها المستقل الخاص، وحسب تراثها الخاص ووتيرة تطورها ونموها المستقل نسبياً، أصبحت تعيش في تأريخانية واحدة وليس في تاريخ واحد، فهي تشارك في نمط أنتاج واحد يتحقق على مستوى الكرة الأرضية وهي تتلقى التأثيرات المادية والمعنوية ذاتها من ثقافة وأزمات اقتصادية وأوبئة صحية ومسائل اجتماعية وأخلاقية ورفاه اقتصادي وحرية سياسية، فالبشرية تجري في مكانية ثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية موحدة، فالعولمة يمكن تلخصيها بكلمتين، كثافة انتقال المعلومات وسرعتها إلى درجة إننا أصبحنا نشعر أننا نعيش في عالم واحد وموحد أو قرية كونية صغيرة بتعبير أدق، فهناك أذن أثر وتأثير متبادلان مستمران يؤديان إلى توحيد القيم وتوحيد الوعي وتوحيد طرائق السلوك وأنماط الإنتاج والاستهلاك أي إلى قيام مجتمع إنساني واحد[٢].

---

(١) صدمة العولمة في خطاب النخبة : علي حرب / جريدة السفير / لبنان / العدد(٨٠١٢) / السبت٦-٦-١٩٩٨م / نقلاً عن : انهيار مزاعم العولمة .. البعد المفهومي والتاريخي / عزت السيد أحمد / مصدر سابق .

(٢) ينظر: ثقافة العولمة : برهان غليون / من كتابه المشترك مع سمير أمين بعنوان(ثقافة العولمة وعولمة الثقافة) / الصادر عن دار الفكر / دمشق / ط(٢) / ٢٠٠٢م / ص٢٠-٢١ .

وعند السيد يسين:« العولمة توصف وتعرّف مجموعة من العمليات التي تغطي أغلب الكوكب أو التي تشيع على مستوى العالم...وهي من ناحية أخرى تتضمن تعميقاً في مستويات التفاعل والاعتماد المتبادل بين الدول والمجتمعات والتي تشكل المجتمع العالمي...وإذا أردنا أن نقترب من صياغة تعريف شامل للعولمة، فلابد من أن نضع في الاعتبار ثلاثة عمليات تكشف عن جوهرها: **(العملية الأولى)**: تتعلق بانتشار المعلومات بحيث تصبح مشاعة لدى جميع الناس. و**(الثانية)**: تتعلق بتذويب الحدود بين الدول. و**(الثالثة)**: هي زيادة معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات والمؤسسات... وأيّاً كان الأمر، فيمكن القول بأنّ جوهر عملية العولمة يتمثل في سهولة حركة الناس والمعلومات والسلع بين الدول على النطاق الكوني »(١).

وهي عند المنظمات الدولية: « عبارة عن انفتاح الاقتصادات الوطنية والإقليمية على بعضها البعض في إطار تبادل غير قصير للسلع والخدمات ورؤوس الأموال، وذلك وفق إستراتيجيات بعيدة المدى تدار من قطب مُعيّن، أو من مراكز رئيسة يمكن من خلالها تحقيق عمليات التجانس والتقارب والاندماج الدولي للاقتصاديات الوطنية عبر مجموعة من التكتلات والمؤسسات، وبالاعتماد على قواعد وأنظمة محدودة »(٢).

القسم الثاني: " الواقعيون " وهم الذين يستندون في تعريفهم للعولمة على الواقع العملي لها الذي يشاهدونه بل ويعايشونه، وهم على الأغلب، الرافضين لها، أو

---

(١) في مفهوم العولمة: السيد يسين / ص٢٧ / مصدر سابق .

(٢) العولمة.. مفهومها، أسسها، نشؤها وآثارها ومواجهاتها: هوشيار معروف / اتحاد الصناعات العراقي / بغداد / ١٩٩٨م / ص٢ / نقلاً عن: تهديدات العولمة للوطن العربي: مها ذياب / ص١٥٣ / مصدر سابق.

لبعض أنواعها، أو على الأقل المتخوفين منها ومن نتائجها. ونذكر من هذه التعريفات التعريف الذي يقدمه صادق جلال العظم بكونها: « حقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء، في ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وتحت سيطرتها، وفي ظل سيادة نظام عالمي للتبادل غير المتكافئ »[١].

وهي عند محمد عابد الجابري: « نظام أو نسق ذو أبعاد تتجاوز دائرة الاقتصاد. فالعولمة الآن نظام عالمي، أو يراد لها أن تكون كذلك، يشمل مجال المال والتسويق والمبادلات والاتصال.. كما يشمل أيضاً مجال السياسة والفكر والايدولوجيا. وهي تعني تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله... والعمل على تعميم نمط حضاري يخص بلداً بعينه، هو الولايات المتحدة الأمريكية بالذات، على بلدان العالم أجمع.. وهي أيضاً أيديولوجيا تعبّر بصورة مباشرة عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته »[٢].

والعولمة عند عماد الدين خليل: « مصطلح يعني في ظاهره ازدياد العلاقات المتبادلة بين الأمم، سواء المتمثلة في تبادل السلع والخدمات، أو انتقال رؤوس الأموال، أو في انتشار المعلومات والأفكار. أمّا في حقيقة الأمر فإنّ معناه: تفكيك الأمم والدول والجيوش والمجتمع والأسرة، وتجريد الفرد من القيم والأخلاق

---

(١) ما هي العولمة: صادق جلال العظم / ورقة عمل بحثية (تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم/١٩٩٦م) / نقلاً عن: العرب والعولمة: مشكلات الحاضر وتحديات المستقبل: مهيوب غالب أحمد / مجلة المستقبل العربي / العدد(٢٥٦) / السنة(٢٣) / حزيران-٢٠٠٠م / ص٦١ .

(٢) العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات-محمد عابد الجابري-ندوة العرب والعولمة-ص٣٠٠-مصدر سابق.

والمبادئ الدينية المقدسة، ورفع الحواجز والحدود، أمام المؤسسات والشركات متعددة الجنسية »[١].

وتقدمها نادية مصطفى على أنّها: « عملية إرادية تعكس اتجاه نموذج حضاري للهيمنة بسبل أكراهية وقسرية على النماذج الأخرى ، ليس على الأصعدة الاقتصادية والسياسية فقط، ولكن على الصعيد الثقافي بالضرورة »[٢].

وعند رجاء جارودي العولمة: « هي نظام يمكن الأقوياء من فرض الدكتاتوريات اللاإنسانية التي تسمح بافتراس المستضعفين، بذريعة التبادل الحر، وحرية السوق »[٣].

ويعرف عبد الإله بلفزيز العولمة على أنّها: « الدرجة العليا في علاقات الهيمنة/التبعية الإمبريالية، وهي لحظة التتويج لانتصار النظام الرأسمالي العالمي كونيا، الذي خرج من رحم الدولة الوطنية، وما برحت هذه تعيد إنتاجه: داخل حدودها وخارجها على السواء»[٤].

إنّ المتتبع للأحداث العالمية والمهتم بشؤون العولمة، عندما يقرأ المفاهيم والأفكار الخاصة بمفهوم العولمة – عند أصحاب القسم الأول – يجد أنّها أشبه

---

(١) تحديات النظام العالمي الجديد .. جوهر العولمة وبديلها : عماد الدين خليل / ٦-٨-٢٠٠٣م / من على الموقع: www.Islamonline.net

(٢) حوار الحضارات على ضوء العلاقات الدولية الراهنة : نادية مصطفى / مجلة رسالة التقريب / العدد(٣١) / ص١٣١ / من على موقع المجلة على الشبكة: www.taghrib.org

(٣) العولمة المزعومة .. الواقع، الجذور، البدائل : رجاء جارودي / تعريب محمد البيطلي / دار الشوكاني للنشر والتوزيع/صنعاء/١٩٩٨م/ ص١٧ / نقلاً عن:العولمة من المنظور الإسلامي:محسن عبدالحميد / ص٧ /مصدر سابق.

(٤) العولمة والهويةالثقافية .. ثقافة العولمة أم عولمة الثقافة:عبد الإله بلقزيز/ندوة (العرب والعولمة)/ص٣١٠/مصدر سابق.

باليوتوبيات[1] الفاضلة الجميلة، وأنّها بعيدة عن واقع العولمة وتأثيرها على حياة الدول والشعوب. فهي من وجهة نظرهم: « شكل من أشكال تبسيط العلاقات وتجاوز العقد التاريخية والنفسية والنظر إلى العالم باعتباره وحدة متجانسة واحدة، وأنّها نظام رشيد يضم العالم بأسره، فلم يعد هناك انفصال أو انقطاع بين المصلحة الوطنية والمصالح الدولية وبين الداخل والخارج. وهي تحاول أن تضمن الاستقرار والعدل للجميع بما في ذلك المجتمعات الصغيرة، وتضمن حقوق الإنسان للأفراد. وسينجز ذلك من خلال مؤسسات دولية رشيدة مثل هيئة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة والبنك الدولي وقوّات الطوارئ الدولية »[2].

ويتضح لنا الوهم الذي يعيشه أصحاب هذه النظرة، وصواب ما يذهب إليه أصحاب القسم الثاني، إذا أخذنا بالحقائق والأرقام الآتية:

- إنّ الغالبية العظمى للشركات الدولية ليست شركات عولمية حقيقية، فأغلب القيمة المضافة (٧٠-٧٥%) من إنتاجها العالمي يتم في موطنها الأصلي، كما أنّ

---

(١) اليوتوبيا (Utopia) : أو الطوباوية وهي لفظ معرب مؤلف من لفظين يونانيين هما : طوبوس (Topos) ومعناه المكان، و(آو= Ou) ومعناه ليس، فهو (ما ليس في مكان) وهو الخيالي أو المثالي.. ويطلق على المثل العليا السياسية والاجتماعية التي يتعذر تحقيقها لعدم بنائها على الواقع، أو لبعدها عن طبيعة الإنسان وشروط حياته .ينظر: المعجم الفلسفي : جميل صليبا / دار الكتاب اللبناني / بيروت / ١٩٨٢م / ج(٢) / ص٢٤.

(٢) لدرء العولمة هل بوسع العالم أن يقول لا للرأسمالية العالمية : عبد الحي يحيى زلوم / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / ١٩٩٩م / ص٤٥ / نقلاً عن : تهديدات العولمة للوطن العربي / ص١٥٣ / مصدر سابق .

أغلب أصولها الثابتة موجودة في الوطن الأم، وأغلب مبيعاتها أو جزء كبير منها في الوطن الأم(١).

- إنّ عولمة رأس المال المتمثل في الاستثمارات الأجنبية المباشرة محدودة جداً، فلو كانت هناك عولمة حقيقية لرأس المال لما اعتمدت الغالبية العظمى من استثمارات أيّة دولة على ادخاراتها الوطنية... ولتوضيح هذا يمكن أن نذكر أنّه خلال عام ١٩٩٦م بلغ تدفق هذه الاستثمارات إلى البلدان النامية (مضافاً إليها هونغ كونغ والمناطق الحرة في بعض أقاليم الصين، وسنغافورة، وكوريا الجنوبية، وتايوان) حوالي(١٠٥)مليار دولار. وهذا الرقم أقل من (٢%) من الناتج المحلي الإجمالي بالأسعار الجارية لهذه البلدان في العام ١٩٩٥م(٢).

- إنّ شبكة المعلومات العالمية ليست عالمية على الإطلاق، بدليل أنّ (٦٠%) من مستخدمي هذه الشبكة يقيمون في أمريكا الشمالية، وأنّ سكانها يمثلون (٥%) من سكان العالم، وأفريقيا قارة كاملة ليس فيها سوى (١٤) مليون خط هاتف، أي أقل مما لدى طوكيو. والهند رغم شهرتها كسوق ناشئ في مجال البرمجيات وتكنولوجيا المعلومات، إلاّ أنّ نحو ربع مليون قرية من قراها ليس فيها خط تعني واحد(٣).

- إنّ العديد من الأبحاث والدراسات الصادرة في الولايات المتحدة نفسها تندد بما أصبح يسمى بـ (العولمة المتوحشة)، بعد أن أصبح في العالم ثلاثة مليارات

---

(١) ينظر: العرب والعولمة .. ما العمل : محمد الأطرش / ندوة (العرب والعولمة) / ص٤١٨ / مصدر سابق .

(٢) ينظر: المصدر نفسه / ص٤١٩ .

(٣) ينظر: جدلية العولمة بين الاختيار والرفض : عبد الجليل كاظم الوالي / ص٧١ / مصدر سابق.

نسمة، أي نصف سكان العالم من الفقراء. وأنّ (٤٧%) من سكان العالم يعادل ناتجهم المحلي الإجمالي سنوياً ثروات (٢٢) غنياً على مستوى العالم، وأنّ نصيب الدول الأكثر فقراً من التجارة العالمية هو(٤%)، في حين أن (١٠%) من القابعين على قمة العالم في الإتحاد الأوربي والأمريكي يستحوذون على (٥٠%) من تجارة العالم[١].

- إنّ منظمة التجارة العالمية (WTO) والتي هي واحدة من أبرز وأخطر تجليات العولمة وافرازاتها، قد وضعت القوانين اللازمة لحماية براءات الاختراع، وخاصة في المجالات الحيوية - كالزراعة والدواء - حيث فرضت فيها عقوبات صارمة على الدول والمؤسسات والشركات التي تخرق هذه القوانين، وهذا يعني أنّ الدول النامية (الفقيرة) لا تستطيع مثلاً أن توفر لأبنائها المصابين بمرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز)، الدواء اللازم لمعالجته، بسبب ارتفاع كلفته - (١٥) ألف دولار- وعدم السماح لها بإنتاجه بكلفة أقل - وقد استطاعت ذلك فعلاً بكلفة(٣٠٠) دولار- بسبب نظام براءات الاختراع هذا. الأمر الذي يفضح دعاوى حرية انتقال العلم والمعرفة في عصر العولمة، ودعاوى الانتقال إلى فضاء الإنسانية الواسع[٢].

---

(١) ينظر: قضايا العولمة بين القبول والرفض : ثناء فؤاد عبد الله / مجلة المستقبل العربي / السنة(٢٣) / العدد(٢٥٦) / حزيران-٢٠٠٠م / ص٩٢.

(٢) ينظر: العولمة والسيطرة على الثقافة : يوسف القرضاوي / برنامج(الشريعة والحياة) / ١٨-١١-٢٠٠١م / من على موقع قناة الجزيرة الفضائية على الشبكة : WWW.aljazeera.net/.
وينظر أيضاً : ثالوث العولمة القاهر: العسكرة والاقتصاد والثقافة .. الاقتصاد المحرك الرئيسي للعولمة : منير شفيق / من على الموقع : www.islamonline.net

والمعنى نفسه ينطبق هنا على موضوع حرية انتقال الأشخاص وسهولته كما يذهب دعاة العولمة ومؤيدوها، حيث يُشرع الغرب - معقل العولمة ومنبتها - القوانين الصارمة للحد من هذا الأمر ومعالجته[1].

- وفي موضوع حرية انتقال السلع والبضائع وفتح الحدود والأسواق أمامها، فإن العولمة هنا انتقائية بل ومنحازة إلى حد كبير للغرب ضد الشرق وللشمال ضد الجنوب، فالأسواق في الدول الصناعية ما زالت غير مفتوحة أمام المنتجات الزراعية والمنسوجات التي تمتلك فيها الدول النامية مزايا مهمة. والقوانين التي تمنع دخول هذه المنتجات إلى أسواق الغرب ومنافسة منتجاته-وإن كانت أفضل وأرخص- لا مجال للمناقشة فيها. وهذا ما يفند المقولات السابقة حول عصر تلاشي الحدود ونهاياتها وانفتاح الأسواق العالمية أمام مختلف البضائع كونها سوق حرة تعمل وتسير بموجب قوانين العولمة[2].

---

(١) ينظر : أوربا تحصين القلعة ضد الهجرة الوافدة : رائدة شبيب / ١٧-٣-٢٠٠١م / من على الموقع على الشبكة : WWW.Islamonline.net/ وينظر أيضاً : أوربا تدرس تشديد قوانين الهجرة : جريدة البيان / الثلاثاء ١٨-يونيو-٢٠٠٢م / من على موقع الجريدة على الشبكة : www.albayan.co.ae

(٢) ينظر: الدولة .. والعولمة في الوطن العربي في ضوء مفهوم(الدولة الوطنية): محمد عبدالشفيع عيسى/ وهو في الأصل ورقة قدمت إلى ندوة (الدولة الوطنية وتحديات العولمة في الوطن العربي) والتي نظمها مركز البحوث العربية (القاهرة) ومركز الدراسات والبحوث الستراتيجية بجامعة دمشق وعُقدت بمقر الأخير في(٥-٧/ آيار/٢٠٠١م). وقد قام مركز دراسات الوحدة العربية بنشر هذه الدراسة ضمن مجموعة أخرى من البحوث في كتاب تحت عنوان (العولمة وتداعياتها على الوطن العربي)/ لبنان/ ط (١) / ٢٠٠٣م / ص١٠١-١٢٠.

مفهوم العولمة الثقافية:

العولمة بوصفها اصطلاحاً، لصيق النشأة بالجانب الاقتصادي، « بل لقد استخدم هذا المصطلح أساساً، لوصف بعض الأوجه الرئيسة للتحول الحديث في النشاط الاقتصادي العالمي »(١). وجُلّ الذين تحدّثوا عنها في البداية لم يكونوا يجِدون لها ميداناً آخر غير هذا الميدان(٢).

ولكن القائمين عليها أدركوا أنّه لا يمكن إحداث هذه التغييرات الاقتصادية، ما لم تسندها أو تسبقها تحولات وتغييرات كبرى في مجال السياسة والثقافة والاجتماع والإعلام... فأصبح من المألوف الحديث الآن عن عولمة سياسية، وأخرى ثقافية، وثالثة اجتماعية، وإعلامية وعسكرية...

ولكن تبقى العولمة الثقافية، أهم وأخطر هذه الأنواع، وأكثرها إثارة للجدل والخلاف. فالثقافة من وجهة نظر دعاة العولمة هي السبب الرئيسي للانقسام بين الشعوب، وإنّ الحل هو في اندماج الثقافات في ثقافة واحدة، تكون لها سمة العالمية !؟ ثم إنّ قبول العولمة أو رفضها- من وجهة نظرهم أيضاً - يتوقف على مدى إزالة التوترات بين القيم الثقافية المحلية، والقيم الثقافية التي تنادي بها العولمة(٣).

---

(١) جيران في عالم واحد : لجنة إدارة شؤون المجتمع الدولي / ترجمة مجموعة من الباحثين / المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب / سلسلة عالم المعرفة / الكويت / العدد(٢٠١) / ١٩٩٥م / ص٣٠ / نقلاً عن: انهيار مزاعم العولمة..البعد المفهومي والتاريخي : عزت السيد أحمد / مصدر سابق .

(٢) ينظر : انهيار مزاعم العولمة .. البعد المفهومي والتاريخي : عزت السيد أحمد / مصدر سابق.

(٣) ينظر: إعلام العولمة وتأثير في المستهلك : السيد أحمد مصطفى عمر / ص٧٨ / مصدر سابق.

وبالطبع النتيجة يجب أن تكون بالكامل لصالح القيم الثقافية التي تنادي بها العولمة!؟.

وقد ارتبط المفهوم الثقافي للعولمة بفكرة (التنميط) أو (التوحيد) الثقافي للعالم–حسب تعبيرات لجنة اليونسكو–[1] فقد رأت اللجنة أنّ التنميط الثقافي يتم باستغلال ثورة وشبكة الاتصالات العالمية، وهيكلها الاقتصادي الإنتاجي، والمتمثل في شبكات نقل المعلومات... من أجل توصيل الأفكار الثقافية – العولمية – التي يراد لها الذيوع والانتشار[2].

فجوهر عملية العولمة ينطوي على ثلاثة عمليات: « **الأولى:** تتعلق بانتشار المعلومات بحيث تصبح متاحة لدى جميع الناس. والعملية **الثانية:** تتصل بتذويب الحدود بين الدول. أمّا العملية **الثالثة:** فتتعلق بزيادة معدلات التشابه والتجانس بين الجماعات الإنسانية. أي أنّ هناك اتجاهاً لصياغة ثقافة كونية عالمية لها قيمها ومعاييرها، الغرض منها ضبط سلوك الأمم والشعوب... وبالتالي دفع العالم نحو التوحيد في السمات والخصائص »[3].

ويرى عبد الإله بلقزيز بأنّ ماهية الثقافة التي تبشر بها العولمة – ثقافة العولمة في اصطلاحه – هي ليست الثقافة التقليدية المعروفة بـ (الثقافة المكتوبة)، وإنّما هي ثقافة ما بعد المكتوب أو (ثقافة الصورة)[4].

---

(١) هذه التعبيرات استخدمتها لجنة اليونسكو العالمية للإعداد لمؤتمر السياسات الثقافية من أجل التنمية والذي عُقد في استكهولم سنة ١٩٩٨م : برئاسة خافيير دي كويلار الأمين العام السابق لمنظمة الأمم المتحدة / ينظر: إعلام العولمة وتأثيره في المستهلك / ص٧٤ / مصدر سابق .

(٢) ينظر / المصدر نفسه / ص٧٤ .

(٣) العولمة والهوية الثقافية في أفريقيا : هويدا عدلي / مصدر سابق.

(٤) العولمة والهوية الثقافية .. عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة : عبد الإله بلقزيز / ص٣١٤ / مصدر سابق .

فالصورة هي اليوم المفتاح السحري للنظام الثقافي العولمي الجديد، نظام إنتاج وعي الإنسان بالعالم، إنّها المادة الثقافية الأساس التي يجري تسويقها على أوسع نطاق جماهيري، فالصورة لا تحتاج إلى المصاحبة اللغوية كي تنفذ إلى إدراك المتلقي، لأنّها - بحد ذاتها - خطاب ناجز مكتمل، يمتلك سائر مقومات التأثير الفعال في مستقبله، أو لنقُل بأنّ الصورة لغة - بحد ذاتها - تستغني عن الحاجة إلى غيرها(١).

ويعطي بلقزيز بعد هذا تعريفاً للعولمة الثقافية، فيقول بأنّها:« فعل اغتصاب ثقافي، وعدوان رمزي، على سائر الثقافات.إنّها رديف الاختراق الذي يجري بالعنف- المسلح بالتقانة - فيُهدر سيادة الثقافة في سائر المجتمعات التي تبلغها عملية العولمة... وهي لا تعني سوى سيطرة الثقافة الغربية على سائر الثقافات، وبواسطة استثمار مكتسبات العلوم والتقانة في ميدان الاتصال. وهي التتويج التاريخي لتجربة مديدة من السيطرة بدأت منذ انطلاق عمليات الغزو الاستعماري منذ قرون، وحققت نجاحات كبيرة في إلحاق التصفية والمسخ بثقافات جنوبية عديدة، وبخاصة في أفريقيا وأمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية...»(٢).

وهي عند طلال عتريسي تعني: « توحيد القيم حول المرأة والأسرة، وحول الرغبة والحاجة وأنماط الاستهلاك في الذوق والمأكل والملبس. إنّها توحيد طريقة التفكير والنظر إلى الذات وإلى الآخر وإلى القيم وإلى كل ما يعبر عن السلوك »(٣).

---

(١) المصدر نفسه / ص٣١٤ / بتصرف بسيط .

(٢) المصدر نفسه / ص٣١٨ .

(٣) ينظر: تعقيب طلال عتريسي على ورقة السيد يسين / ندوة العرب والعولمة / ص٤٥ / مصدر سابق .

ولكن يوجد في الطرف الآخر من الموضوع من لــه نظــرة مختلفــة إلــى العولمة الثقافية، ولنأخذ برهان غليون نموذجاً، حيث يرى بأنّ العولمة الثقافيــة: « نظام جديد من العلاقات بين الثقافات، كما هو الحــال بــين الجماعــات والــدول والأسواق، نشأ في سياق صراع التكتلات الرأسمالية الكبرى على الهيمنة العالمية. وأنّ الأمركة هي أحد أركان هذا النظام... بشرط أنّ نفهم من الأمركة أنّهــا تعنــي أرجحية المساهمة الأمريكية في الإنتاج الثقافي، المادي والمعنــوي، الــذي يمــلأ الفضاء العالمي الجديد، الذي أنشأته ثورة المعلومات.لا أنها تعني تحويــل ثقافــات الشعوب والطبقات جميعاً إلى ثقافة أمريكية»[1]. فبرهان غليون يعتقــد أنّ الفــضاء العالمي الجديد، الذي أنشأته ثورة المعلومات مفتوح لكل مــن لــه القــدرة علــى المساهمة أو الصراع داخله وأنّ الثقافة الأصلح (الأقوى) هي التي ستسيطر وتهيمن في النهاية،وبالتالي تكــوين مــا أســماه بـــ - ثقــافـــة النخبــة المعولمــة أو الكسموبوليتيه-[2][3]. وأنّ الذي يرفض دخول هذا الصراع لن يحــصل إلاّ علــى السلبيات من نتائج هذا النظام الثقافي الجديد، ويتم تهميشه وربما الاســتغناء عنــه نهائياً.

فلا بد إذن من دخول الحَلبة، ما دام هناك مقعد لكل من يريد أن يدلو بدلوه، وأن يمتحن نفسه بصورة حقيقية، ويتعرف على مواطن القوة والضعف فيه.

---

(١) ثقافة العولمة وعولمة الثقافة : برهان .غليون وسمير أمين / ص٤٥-٤٦ / مصدر سابق .

(٢) الكسموبوليتيه : نزعة ترمي إلى التحرر من الأحقاد القومية، واعتبار الإنسانية أسره واحــدة وطنها العالم، وأعضاؤها أفراد البشر جميعاً ، دون اعتبار لاختلافاتهم في اللغة أو في الجنس أو في الوطن. / ينظر: ثقافة العولمة وعولمة الثقافة : برهان غليون وسمير أمين / ص٢٣٤ / مصدر سابق .

(٣) ثقافة العولمة وعولمة الثقافة : برهان غليون وسمير أمين / ص٤٠ / مصدر سابق .

وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام إشكالية عولمة الواقع والمثال. فبينما يتحدث الطرف الأول- بلقزيز عتريسي- عمّا هو مشاهد وملموس من بعض آثار هذه العولمة الثقافية، نجد أنّ برهان غليون يتحدث عن ما ينبغي أن تكون عليه العولمة الثقافية، محاولاً أن يظفي على آرائه مسحة من العقلانية والواقعية.

فالعولمة بهذا عولمتان كما يصنفها يوسف الأشقر: « **الأولى:** واقع حكمي. **والثانية:** مشروع محتمل »[1].

(١) مصير الديمقراطية في النظام العولمي الجديد: يوسف الأشقر/مجلة أنتليجينيسيا/باريس/ العدد(٥)/ ٩-٧-٢٠٠٤م/ من على موقع شبكة المعلومات السورية القومية الاجتماعية على الشبكة: www.ssnp.info

المبحث الثالث

العولمة الثقافية إسقاط لحق المقاومة الحضارية

بعد ما ذكرناه وعرفناه من نشأة العولمة ومفهومها، ومفهوم العولمة الثقافية، فإن لنا الحق أن نسأل: أيّ عولمة هذه ؟ وما الذي يجري عولمته في واقع الحال ؟ ذلك أنّ الذين يبشروننا بظاهرة العولمة يحاولون تصويرها لنا على أساس أنّها تنطوي على: « تحرر من ربقة الدولة القومية إلى أفق الإنسانية الواسع، تحرر من نظام التخطيط الآمر الثقيل إلى نظام السوق الحرة، تحرر من الولاء لثقافة ضيقة ومتعصبة إلى ثقافة عالمية واحدة يتساوى فيها الناس والأمم جميعاً، تحرر من التعصب لأيدولوجيا معينة إلى الانفتاح على مختلف الأفكار من دون أي تعصب أو تشنج... »(١).

ولكن هل هذه هي العولمة حقاً !؟ وهل هذه هي نتائجها فعلاً !؟ فإن كان الحديث عن العولمة السياسية والتي من المفترض أنّها تعني: « الدعوة إلى اعتماد الديمقراطية والليبرالية السياسية وحقوق الإنسان والحريات الفردية »(٢).

فقد مر بنا كيف أنّ الحرية والديمقراطية التي تسعى إليها شعوب العالم، والتي يمنينا ويعدنا الغرب بها، كبطاقة للدخول إلى عالم العولمة، لا تمنح للشعوب التي لا يرغب الغرب بها، أو التي يبدي خوفه وقلقه منها.

وإن كنا نتحدث عن العولمة الاقتصادية والتي من المفترض أنّها تعني: « تلك الاقتصاديات العالمية المفتوحة على بعضها، وهي أيديولوجيا ومفاهيم

---

(١) العولمة والدولة : جلال أمين / ندوة (العرب والعولمة) / ص١٦٣ / مصدر سابق .

(٢) ينظر: تعقيب طلال عتريسي على بحث السيد يسين / ص٤٤ / مصدر سابق .

الليبرالية الجديدة التي تدعو إلى تعميم الاقتصاد والتبادل الحر كنموذج مرجعي، وإلى قيم المنافسة والإنتاجية. وهي تَعِدُ العالم بالرفاه وبالمزيد من التقدم »[1]. فلقد مر بنا أيضاً كيف أنّ هذه الادعاءات إنّما هي محض افتراء وكذبة، وأنّ ما تعنيه العولمة الاقتصادية حقاً وواقعاً، هو فتح حدود وأسواق الدول النامية والفقيرة، أمام البضائع والسلع التي تنتجها الدول الصناعية الكبرى أو الشركات العملاقة المتعدية الجنسية، وبدون أيّة معوقات تقف في طريقها، والتصدي لأيّة عملية بالاتجاه المعاكس.

وإن كان المقصود من العولمة الثقافية التحرر من الولاء لثقافة ضيقة ومتعصبة إلى ثقافة عالمية واحدة يتساوى فيها الناس والأمم جميعاً. فإنّ السؤال هو: هل حقاً هذا هو مفهوم العولمة الثقافية ؟ وهل يمكن إيجاد مثل هكذا ثقافة (عالمية) أو مجتمع (عالمي) !؟ وأيّ من ثقافات الأمم ستكون هي ثقافة العولمة !؟ ولماذا هي بالذات دون غيرها !؟ فنحن نجد أنفسنا هنا في حاجة للوصول إلى أجوبة لهذه التساؤلات، لكي يكون لدينا تصور واضح عن العولمة الثقافية هذه.

صحيح أنّه في عصر العولمة، العالم ينفتح على بعضه البعض، حيث تقل الحواجز والمواقع في طريق السلع والأشخاص والخدمات والمعلومات- ولو إلى حد ما- بفضل التكنولوجيا الحديثة أو ما يسمى بـ (آليات العولمة). كل هذه نستطيع أن نعدها من بركات العولمة وفيوضاتها على البشرية. ولكن إذا جئنا إلى واقع هذه العولمة سنجد « أنّ الذي تجري عولمته ليس إلاّ سلعاً وخدمات وأفكار بعينها، ذات طبيعة وخصائص معينة، أفرزتها ثقافة بعينها... إنّ هذه العولمة في الحقيقة إنّما هي عولمة نمط معين من الحياة »[2].

---

(١) المصدر نفسه / ص٤٤ .

(٢) العولمة والدولة : جلال أمين / ص٣٢ / مصدر سابق .

وأنّ مفهوم العولمة الثقافية يختلف تماماً عن المفهوم النظـري (المثـالي) – أعلاه – فهي في واقع الحال ليست سوى تكريس لنوع معين من الاستهلاك، ولنوع معين من المعارف والسلع والبضائع، وهذه المعارف يمكن أن تشكل في مجموعها ما يمكن أن نطلق عليه (ثقافة الاختراق)... والهدف منها التطبيع مـع الهيمنـة، وتكريس الاستتباع الحضاري، وتسطيح الوعي، واختراق الهوية الثقافيـة للأفـراد والجماعات والأمم[1].

وأمّا مسألة إيجاد ثقافة عالمية، أو مجتمع عالمي، يتساوى فيه الناس والأمـم جميعاً، ويشيع فيه الاستقرار والرفاهية، ويشعر جميع البشر بأنّهم (مواطنو العالم) . فهذه الفكرة ليست حديثة، ولا هي من مبتكرات عصر العولمة، وإنما هـي فكـرة قديمة قِدم التأريخ. فضلاً عن أنّها فكرة طوباوية تتكرر في كل عصر بثوب جديد، ابتداءً من جمهورية أفلاطون في القرن الرابع قبل المـيلاد، ثـم مدينـة الفـارابي الفاضلة في القرن العاشر الميلادي، مروراً بتوماس مور سنة (١٥١٦م) في مؤلفة (اليوتوبيا)، ثم فرانسوا ريليه سنة (١٥٣٤م) عندما تحدث عن جزيرته المثالية التي يترأسها الفلاسفة، حيث يسود في جزيرته التكامـل والتعـاون، وتتحقـق الـسعادة الإنسانية المنشودة، وتختفي مظاهر الظلم والتناحر الطبقي، ويسود العدل والحكمـة وحسن النية، في ظل حكومة عادلة وموظفين فضلاء منظبطين[2].

---

(١) ينظر: العولمة والهوية الثقافية / محمد عابد الجابري / ص٣٠١-٣٠٢ / مصدر سابق .

(٢) ينظـر: International Encyclopedia Of Government And Polities. Vol.٢. pp.١٤٣٣-١٤٣٧

نقلاً عن : القرية الكونية .. واقع أم خيال : نايف علي عبيد / مجلـة المـستقبل العربـي / العدد(٢٦٠) / السنة(٢٣) / تشرين أول ٢٠٠٠ / ص١٤٥ .

فمثل هذه الأفكار لم تخرج إلى حيّز التنفيذ في يوم من الأيام، ولا يمكن أن تخرج أبداً، « فليس هناك ثقافة عالمية واحدة، وليس من المحتمل أن توجد في يوم من الأيام، وإنّما وجِدَت، وتوجد وستوجد، ثقافات متعددة متنوعة تعمل كل منها بصورة تلقائية، أو بتدخل إرادي من أهلها، للحفاظ على كيانها ومقوماتها الخاصة »[1].

وفيما يتعلق بسؤال أيّ من ثقافات العالم ستكون هي(**ثقافة العولمة**). فالثقافة لَمْ تَعُد اليوم كما كانت في الماضي، خاضعة لوسائل تقليدية في النشر والانتشار، وإنّما أضحت اليوم متأثرة إلى حد بعيد بالتكنولوجيا العامة وبالتكنولوجيا الاتصالية خاصة. هذه التكنولوجيا استطاعت القيام بالاختراق الثقافي، أي أنّ السيطرة أصبحت للتكنولوجيا بما أنّها أصبحت الحامل الأبرز للثقافة، وهذا يعني أنّ بإمكان التكنولوجيا بثّ الثقافة التي تريد، بمعنى أنّ الذي يملك التكنولوجيا يستطيع نشر الثقافة التي يريد.

فليس غريباً بعدها أن نجد أنّ « النفقات التي تم صرفها على المعلومات ووسائل المعلومات- في العالم الغربي- في عصر العولمة، وصلت إلى (١١٠٠) مليار دولار في عام ٢٠٠٢م، وهذا المبلغ يزيد على الدخل السنوي لـ (٤٧%) من فقراء العالم أي (٢,٥ مليار نسمة) حيث يسيطر العالم الغربي على شبكة المعلومات العالمية ، فاللغة الإنكليزية وحدها تسيطر على (٨٨%) من البثّ ،

(١) العولمة والهوية الثقافية : محمد عابد الجابري / ص٢٩٨ / مصدر سابق .

والألمانية على (٩%) ، والفرنسية على (٢%) ، وباقي لغات العالم على (١%) »[١].

وتُبين إحصاءات منظمة اليونسكو أنّ هناك: « ثلاثمائة شركة إعلامية هي الأولى في العالم،من بينها(١٤٤) شركة أمريكية، و(٨٠) شركة أوربية، و(٤٩) شركة يابانية »[٢].

وهناك حول الأرض يدور أكثر من (٥٠٠) قمر صناعي يرسل إشارات لاسلكية تدعو العالم إلى أن يدخل في العولمة. فبواسطة الصور المتحركة على شاشات أكثر من مليار من أجهزة التلفاز، تتشابه الصور، وتتوحد الأحلام، وتتدغدغ الأمّاني، وتتحرك الأفعال. لكن هذا الإعلام العولمي لا يشكل نظاماً دولياً متوازياً لأنّ كل مدخلاته ومراكز تشغيله وآليات التحكم فيه تأتي من شمال الكرة الأرضية، مما أدى إلى هيمنة الدول المتقدمة عليه، في مقابل تبعية الدول النامية له[٣].

من كل هذا نصل إلى نتيجة أنّ الثقافة المبثوثة عبر وسائل المعلومات والإعلام هذه، هي ثقافة (٢٠%) مفروضة على (٨٠%) من سكان كوكبنا الأرضي.

---

(١) الإعلام العربي ومعطيات العولمة : محي الدين عبد الحليم / مجلة الرسالة / العدد(٩) / ديسمبر٢٠٠٣م / ينـاير ٢٠٠٤م / من على موقع المجلة على الشبكة: www.masrawy.com

(٢) إحصاءات منظمة اليونسكو المنشورة في: الشاهد (نيقوسيا) / العددان(١٧٩-١٨٠) / السنة(١٥) / تموز- يوليو ٢٠٠٠م / ص٦٦ / نقلاً عن : جدلية العولمة بين الاختيار والرفض : عبد الجليل الوالي / ص٧٠ / مصدر سابق .

(٣) ينظر: إعلام العولمة وتأثيره في المستهلك : السيد أحمد مصطفى عمر / ص٧٧ / مصدر سابق.

هذا الواقع المُرّ دفع بجلال أمين إلى درجة أن يصف (المجتمع التكنولوجي الحديث) بأنّه غزو للثقافة، بل نفي لها أصلاً، لأنّ الغزو الثقافي يجري في ظل التكنولوجيا الحديثة[١].

ومن هنا جاء مصطلح (العولمة الثقافية)، أي قدرة الثقافة والمجتمع والحضارة الأقوى تكنولوجياً، على اختراق الثقافات والمجتمعات والحضارات الأضعف تكنولوجياً ، وتهميشها ومن ثم إلغائها – إن أمكن– ، وذلك عن طريق زرع القيم والأفكار النفسية والثقافية ومن ثم السلوكية ، في وعي الآخرين ، من أجل اختراق هذه المجتمعات ، وإسقاط عناصر المقاومة والممانعة لديها. مما يؤدي بدوره إلى تأسيس هوية ثقافية وحضارية جديدة، معادية لهويتها السابقة.

هذه الهوية الجديدة سيحملها الأُناس السيبرينتيون، الذين سيعيشون في الوطن (السبرنيتي) الذي هو بحق وطن جديد، لا ينتمي لا إلى التأريخ ولا إلى الجغرافيا، هو وطن بدون حدود، بدون ذاكرة، إنه وطن تبنيه شبكات الاتصال المعلوماتية الإلكترونية[٢].

ولتحقيق هذا الهدف فإنّ العولمة لا تكتفي بتسيد الثقافة، وإنّما تنفي الثقافة من حيث المبدأ، لأنّ الثقافة التي يجري تسيدها تعبر عن عداء شديد لأيّة صورة من صور التميز والتفرد ، بل أنّها تسحق هذا التميز والتفرد سحقاً[٣].

---

(١) ينظر: العولمة والهوية الثقافية والمجتمع التكنولوجي الحديث : جلال أمين / مجلة المستقبل العربي / العدد(٢٣٤) / السنة(٢١) / آب ١٩٩٨م / ص٧٢ .

(٢) ينظر: العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الأيديولوجي : العولمة وهاجس الهوية في الغرب : محمد عابد الجابري / مجلة فكر ونقد / العدد(٢٢) / من على موقع محمد عابد الجابري على الشبكة : www.aljabriabed.com

(٣) ينظر: العولمة والهوية الثقافية والمجتمع التكنولوجي الحديث : جلال أمين / ص٧٢ / مصدر سابق .

فهي تريد من العالم أجمع أن يعتمد المعايير الرأسمالية الأمريكية، كأساس لتطوره، وكقيمة اجتماعية وأخلاقية، وعليه فإنّ ما تبقى- كل ما تبقى- يجب أن يسقط، وما تبقى هنا «ليس خصوصية قومية، بل مفهوم الخصوصية نفسه ، وليس تأريخاً معيناً ، بل فكرة التأريخ ، وليس هوية بعينها،بل كل الهويات، وليس منظومة قيمية، بل فكرة القيمة نفسها»(١).

فالعولمة الثقافية تهدف إلى تحطيم القيم والهويّات التقليدية للثقافات الأخرى، والترويج للقيم الفردية الاستهلاكية، والمفاهيم الغربية بصفة عامة، وعَدّ هذه القيم والمفاهيم هي وحدها المقبولة كأساس للتعاون في ظل العولمة.

جاء في دراسة لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة « أنّ نصف اللغات المحلية في العالم في طريقها إلى الزوال، الأمر الذي يهدد الثقافات والبيئة في آن واحد، وقد عُدّت هذه الدراسة التي أعدها فريقٌ من خبراء هذا البرنامج، أنّ أسرار الطبيعة التي تتضمنها الأغاني والقصص والفن والصناعات الحرفية لدى الشعوب الأصلية قد تختفي إلى الأبد، بسبب ظاهرة العولمة المتصاعدة في جميع المجالات... وأنّ عدد اللهجات المحلية في العالم هي ما بين(٥-٧) آلاف لهجة، منها ما يقرب من (٥) آلاف لهجة أصلية. وأنّ هناك أكثر من (٢٥٠٠) لغة مهددة بالانقراض على المدى القصير. وأنّ (٢٣٤) لغة أصلية معاصرة اختفت كلياً. وينتهي الخبراء إلى

(١) صراع حضارات أم حوار ثقافات : عبد الوهاب المسيري / منشورات منظمة تضامن الشعوب الآسيوية والأفريقية / القاهرة / ١٩٩٧م / ص١٠٣ / نقلاً عن : العولمة في الخطاب العربي المعاصر /عوني المشيني / مجلة آفاق / من على موقع المجلة على الشبكة : www.aafaq.org

التحذير من أنّه هناك احتمال اختفاء (٩٠%) من اللغات المحلية في العالم في القرن الحادي والعشرين »[١].

هذا وإنّ أحد أهم أهداف العولمة الثقافية هو الترويج للسلع، وجعلها متشابهة لجميع البشر، حيث تسير العولمة الثقافية في طريق تندثر بموجبه الخصوصيات الثقافية، وأنماط الاستهلاك الخصوصية، من جَرّاء تجانس الطلب، وخضوع المنتوجات لتنميطات موحدة، ذات بعد كوني شامل، « فالسوق المعولمة ترفض اعتبار وجود خصائص وطبائع ثقافية أو سيكولوجية محلية، وهذا يُفقد تداول السلع طبيعته الملموسة داخل الأسواق التقليدية (وطنية وجهوية ودولية) ليصبح مجرداً داخل سوق من نوع جديد »[٢].

أمّا لماذا هذه الثقافة – الغربية– بالذات، يجب أن تكون هي ثقافة العولمة، دون غيرها من الثقافات الأخرى ؟ لماذا هي التي يجب أن تبقى وتسود، وغيرها يضمحل وينسى ؟ فإنّ ذلك يعود إلى تلك النزعة الهيمنية المتركزة في طبيعة النفسية الغربية، والتي جُبلت عليها منذ القدم. والتي بموجبها تؤمن بأنّها هي المركز وغيرها يمثل الأطراف، هي الأساس وغيرها يمثل الهامش، في هذه الحياة، في كل شؤون الحياة. « فمنذ فجر الحضارة الأوربية الغربية، تبدو النزعة المركزية لصيقة بالنموذج الحضاري الغربي، منذ العصر الروماني الذي رأى أصحابه أنّ الإنسان هو الروماني الحر وحده، وما عداه برابرة، وأنّ ما يتدين به الروماني هو الدين

---

(١) العولمة تهدد باختفاء اللغات المحلية والثقافات : موقع قناة الجزيرة الفضائية على الشبكة : www.aljazeera.net / ١٠-٢-٢٠٠١م .

(٢) تحديات عولمة الاقتصاد والتكنولوجيا في الدول العربية : فتح الله ولعلو/ نقلاً عن : هويتنا الثقافية نحو تناول نقدي / سالم يفوت / مجلة فكر ونقد / العدد(١١) / من على موقع محمد عابد الجابري على الشبكة : www.aljabriabed.com

الوحيد، وما عداه واجب الاستئصال. ثم واصلت هذه النزعة المركزية الغربية صراعها مع الآخر طوال عصر استعمار الغرب للأمم والبلاد والحضارات غير الغربية. وتم هذا الصراع والاستئصال على مختلف الصُعُد والميادين والجبهات بتحويل العالم إلى هامش للأمن الأوربي الغربي، وتسخير الشعوب المُستعمَرة وإمكاناتها كوقود في هذه الحروب الاستعمارية الغربية »[1].

وها نحن نشهد – ونحن نعيش في عصر العولمة– تصاعد درجة النزعة الهيمنية المركزية الغربية، وتصاعد حِدّة التطبيق لها، على أساس أنّ الحضارة الغربية المعاصرة، هي الوريث الشرعي للحضارتين اليونانية والرومانية. « إنّ اليونانيين والرومانيين نظروا إلى أنفسهم على أنّهم هم وحدهم المتمدينون. أمّا كل ما كان أجنبياً عنهم، وعلى الأخص أولئك الذين يعيشون شرق البحر المتوسط، فقد كانوا يُطلقون عليهم لفظة (البرابرة). ومنذ ذلك الحين والأوربيون يعتقدون أنّ تفوقهم العنصري على سائر البشر أمر واقع. ثمّ إنّ احتقارهم لكل ما ليس أوربياً من أجناس الناس وشعوبهم، قد أصبح إحدى الميزات البارزة في المدنية الغربية »[2].

إنّ محور الحضارة الغربية الحديثة، يقوم على فكرة الصراع وإلغاء الآخر. نجد هذا في كل الأفكار والنظريات، التي يؤمن بها الغرب ويقدسها. فنظرية "هيغل" تذهب إلى أنّ العصر الجديد يحل محل العصر القديم ويزيله، ونظرية "داروين" تذهب إلى أنّ القوي ينسخ الضعيف ويزيله، وعند "ماركس" الطبقة الوليدة تنسخ

---

(١) مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية : محمد عمارة / من على الموقع : www.islamna.org

(٢) الإسلام على مفترق الطرق : محمد أسد / ص٥٢ / مصدر سابق .

الطبقات السابقة وتزيلها[١]. ومثلها نظرية " فوكوياما " (نهاية التاريخ) فعنده الديمقراطية الليبرالية الغربية، هي نقطة النهاية-السعيدة والوحيدة- لمسيرة التطور الأيديولوجي للبشرية[٢]. ولا يشذ "هنتنغتون" عن القاعدة في **(صدام الحضارات)** حيث الدعوة إلى إبادة كل الثقافات والحضارات التي من المرجح - حسب رأيه - أن تنافس الحضارة الغربية على الزعامة العالمية[٣].

لقد عرفت البشرية خلال تأريخها الطويل، الكثير من الثقافات والحضارات، المتعاقبة والمتصارعة والمتحاورة، وكان جزء من سر تقدم البشرية يكمن في هذه الصلة المعقدة التي كانت تتبادل فيها الحضارات والثقافات موقع الصدارة.

والحقيقة أنّ هذا التبادل أو التداول الحضاري هو سنة من السنن الإلهية التي لا تتغير ولا تتبدل، قال ﷻ : ﴿ **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾[٤]. فلم يحدث أبداً أن تمكنت حضارة من الحضارات أو دين من الأديان أو ثقافة من الثقافات، من أن تفرض هيمنتها المطلقة على كل ما عداها، بحيث تلغي الآخر تماماً.

وقد كانت الوسائل المتبعة في طرح ثقافة أمّة على أمّة أخرى تتمثل غالباً في اللجوء إلى (إغراء العرض) وعندما كان يتم اللجوء إلى (سطوة الفرض) فإنّ

---

(١) ينظر: القرن الواحد والعشرون : صراع أم حوار ثقافي بين الأمم .. نظرية الصراع الثقافي : عبد الواحد مشعل / مجلة دراسات (ليبيا) / العدد(١٠) / خريف ٢٠٠٣م / من على موقع المجلة على الشبكة: www.driasaat.com

(٢) ينظر: نهاية التأريخ : فرانسيس فوكوياما / ص٦٤ / مصدر سابق .

(٣) ينظر: صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي : صموئيل هنتنغتون / ترجمة : مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف / الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع / ليبيا / ط(١) / ١٩٩٩م / الفصل التاسع والعاشر .

(٤) سورة آل عمران / من الآية (١٤٠) .

ذلك كان يقترن بالتعسف والجور من المضطهِدين- بكسر الهاء - ، يقابله سعي المضطهَدين- بفتح الهاء- إلى مقاومة هذا الظلم والجور وهذه السطوة وسعيهم إلى المزيد من التشبث بهويتهم وثقافتهم وحضارتهم ودينهم ، ولكن النقلة النوعية التي حدثت مع ثقافة العولمة في علاقاتها مع ثقافة الآخر .

إنّها لجأت إلى نوع جديد من الوسائل، نستطيع أن نطلق عليه مصطلح (إغراء الفرض) بمعنى أنّها لم تعد (تعرض) بل (تفرض) ولكن هذا الفرض لا تُستخدم فيه العصا أو السيف، وإنّما من خلال الإغراءات التي تمنحها التقنيات الحديثة أو (آليات العولمة) حيث أنّها توجهت مباشرة إلى مخاطبة القاعدة العريضة بدلاً من مخاطبة الصفوة أو النخبة من الجماهير، وذلك من خلال اعتمادها على ثقافة الصورة بدلاً من ثقافة الكلمة(١).

وهذا الأسلوب – مع أنّ فيه عوامل إيجابية – إلاّ أنّه إذا لم يتم التعامل معه بوعي عميق، وتخطيط مدروس، فإنّه سيشكل تحدياً خطيراً على مقومات الهوية الحضارية والثقافية للأطراف الأقل قوة وتقدماً.

إنّ الذين يسيطرون على آليات العولمة، والذين يديرون دفتها بالاتجاه الذي يخدم مصالحهم ورؤاهم التي يرونها، ويريدون من العالم أجمع أن يسير وراءهم مغمض العينين، يقفون دائماً في وجه كل محاولة لإبراز الخصوصية الحضارية لشعب من الشعوب أو لأمّة من الأمم.

فعندما شن الاقتصادي الياباني المعروف (أكيوموريتا) صاحب شركة (ميتسوبيشي) العالمية الشهيرة، مع الكاتب الياباني اللامع (سينشاروا أيشهارا) في كتابهما (اليابان تستطيع أن تقول لا)، والذي شنا فيه هجوماً لاذعاً وعنيفاً، على

---

(١) ينظر: الإسلام والعولمة : صراع أم حوار / أحمد درويش / من على الموقع www.balagh.com:

حكام اليابان الذين رضخوا للسياسة العنصرية الأمريكية تجاه اليابان، وارتضوا أن تكون بلادهم قزماً سياسياً، على الرغم من أنّ موازين القوى الاقتصادية كما أثبتوا وبرهنوا في الكتاب، تميل لصالح اليابان. فالذي حصل أنّ (موريتا) أُجبر على سحب اسمه من الطبعة الإنكليزية، وألزم (أيشهارا) بمراجعة هذه الطبعة وتنقيحها قبل صدورها[1].

إنّ قادة العولمة يدركون تماماً أنّ الذي يجعل الحضارات الأصيلة عصية على التعولم -وفق مفهومهم- إنّما هو موضوع (الهوية) ، والتي تُعَّد بحق الصخرة التي تتحطم عليها المؤثرات الخارجية .

إنّ من حق الشعوب والأمم أن تحافظ على أصالتها وخصوصياتها الذاتية، وأن تدافع عن ثقافتها وهويتها الحضارية، ضد أيّ خطر يتهددها ويتوعدها بالتهميش أو بالزوال أو بالانقراض.

وإنّ الأمّة التي تستسلم بسهولة وتتقبل عملية الانصهار والذوبان في ثقافة وحضارة أخرى غريبة عنها، وتعجز عن المحافظة على جوهر كينونتها وروحها الحضاري، لهي أمّة غير جديرة بالبقاء، ولن تجد من يأسف عليها.

---

(١) ينظر: انهيار مزاعم العولمة..العولمة والحاضنة الاقتصادية : عزت السيد أحمد / مصدر سابق.



الفصل الثالث

طبيعة العلاقة بين الهوية الإسلامية والعولمة الثقافية



المبحث الأول

بين عالمية الهوية الإسلامية وأمركة العولمة الثقافية

قبل البدء بالخوض في طبيعة العلاقة بين الهوية الإسلامية والعولمة الثقافية، لابد وأن نحدد العلاقة بين الهوية والثقافة، هل هما مصطلحان يعبِّران عن معنى واحد ؟ أم أنّ هناك فرقاً بينهما ؟ أم أنّه يوجد تداخل وتشابك بين المصطلحين؟.

فبينما يذهب البعض إلى تحديد العلاقة بين الهوية والثقافة على أساس: « إنّ الثقافة هي التي تشكل الهوية، هي التي تعطي الاسم والمعنى والصورة، هي التي تجعل من جماعة ما متميزة أو مختلفة عن غيرها من الجماعات »(١).

لكن الحقيقة أنّ الهوية أعمق من الثقافة وأوسع وأبقى، وأنّ الثقافة هي تعبير عن الهوية وتجلٍ لها، وهما في حالة تأثير إيجابي متبادل بينهما، فالعلاقة بينهما حية ومتواصلة، ولكن ليس إلى درجة أن يُعطى انطباع أو تصوّر أنّ الثقافة هي الهوية، أو هي المكون أو المقوم الرئيسي لها.وإنّما الثقافة كما يقول سليم مطر: « تشكل جزء من مفهوم الهوية وليس كله »(٢).

ويوضح عبد العزيز التويجري بصورة أدق العلاقة بين الهوية والثقافة، فيقول: « ثمة علاقة وثيقة بين الهوية والثقافة، إذ ما من هوية إلاّ وتختزل ثقافة، فالثقافة في عمقها وجوهرها هوية قائمة الذات. وقد تتعدد الثقافات في الهوية الواحدة، كما أنّه قد تتنوع الهويّات في الثقافة الواحدة،وهذا ما يعبر عنه بالتنوع في

---

(١) العولمة والهوية الثقافية في أفريقيا : هويدا عدلي / مصدر سابق .

(٢) مقالات في الهوية : سليم مطر / جنيف / ٢٠٠٣م / من على موقعه الشخصي على الشبكة www.salimmater.com:

إطار الوحدة، فقد تنتمي هوية شعب من الشعوب إلى ثقافات متعددة تمتزج عناصرها وتتلاقح مكوناتها،فتتبلور في هوية واحدة، وعلى سبيل المثال : فإنّ الهوية الإسلامية تتشكل من ثقافات الشعوب والأمم التي دخلها الإسلام، سواء اعتنقته أم بقيت على عقائدها، فهذه الثقافات التي امتزجت بالثقافة العربية الإسلامية، وتلاقحت معها، هي جماع هويّات الأمم والشعوب التي انضوت تحت لواء الحضارة العربية الإسلامية »[1].

وبذلك تكون الهوية الإسلامية هوية إنسانية منفتحة وغير منغلقة، هوية عالمية مركبة وليست ذات بعد واحد، تحتوي ثقافات وتقاليد وأعراق الشعوب والأمم التي يدخلها الإسلام دون أن تفقد تلك الثقافات سماتها وخصائصها المميزة.

وللأب شنودة – بابا الأقباط في مصر – كلمات ذات مغزى في هذا الموضوع، إذ يقول: « إنّ الأقباط في ظل حكم الشريعة الإسلامية، يكونون أسعد حالاً وأكثر أمناً. نحن نتوق إلى أن نعيش في ظل (لهم ما لنا وعليهم ما علينا). إن مصر تجلب القوانين من الخارج حتى الآن وتطبقها علينا، ونحن ليس عندنا ما في الإسلام من قوانين مفصلة، فكيف نرضى بالقوانين المجلوبة، ولا نرضى بقوانين الإسلام »[2].

ثمّ إنّ التعددية والاختلاف في الشرائع والحضارات وفي اللغات والقوميات والثقافات، وفي القبائل والأمم والشعوب، هذه التعددية وهذا الاختلاف هو سنة إلهية، وقضاء إلهي لا تبديل له ولا تحويل.

---

(١) الحفاظ على الهوية والثقافة الإسلامية في إطار الرؤيا المتكاملة : عبد العزيز بن عثمان التويجري / من الموقع : www.islamtoday.net

(٢) الوحدة الوطنية وهوية الأمّة : محمد عمارة / جريدة الشرق الأوسط / ٣١-١-٢٠٠٣م / من على موقع : www.al-eman.com

« إنّ توّهم إمكان توحد أهل الشرائع السماوية، على شريعة واحـــدة وملـــة واحدة وتحولهم من أمم مؤمنة ومتعددة إلى أمّة مؤمنة واحدة، إنّ توّهم إمكانية ذلك، ومن ثمّ السعي إلى تحقيقه، خصوصاً إذا كان هذا السعي بغير المجادلـــة بالحكمـــة والموعضة الحسنة، هو معاندة لإرادة الله سبحانه، وسعي ضد سنته التي لا ســـبيل إلى تبديلها أو تغييرها. فإرادة الله سبحانه وسنته مع تعدد الأمم والشرائع – فـــضلاً عن الثقافات والهوّيات والقوميات والأمم– وليس مع وحدتها أو توحيدها »(1).

والنصوص القرآنية والنبوية الدالة على ذلك كثيرة جداً، منها قولهﷻ :﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا ﴾(2). وقولهﷻ :﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾(3). وقوله ﷻ : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾(4).

ويقول ﷺ: (لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها)(5).

ويُعلّق الشيخ القرضاوي على النصين السابقين بالقول: « فإذا خلق الله أمّـــة مثل أمّة الكلاب، فلا بد أن يكون ذلك لحكمة، إذ لا يخلـــق الله ســـبحانه شـــيئاً إلاّ

(1) الإسلام والوحدة القومية: محمد عمارة/المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت / ط(2) / 1979م / ص70.

(2) سورة المائدة / من الآية (48) .

(3) سورة هود / الآيتان (118-119) .

(4) سورة الأنعام / من الآية (38) .

(5) صحيح ابن حبان : محمد بن حبان بن احمد أبو حاتم التميمي / تحقيق : شعيب الارنـــؤوط / مؤسسة بيروت / ط(2) / 1993م / ج(12) / ص473 / رقم الحديث (5657) .

لحكمة، فلا يجوز إذن حذف هذه الأمّة المخلوقة من خارطة الوجــود، فــإنّ هــذا تطاول واستدراك على خلق الله ﷻ. فإذا كان هذا في شأن الأمم الحيوانية، فما بالك بشأن الأمم الإنسانية !؟ »[1].

ولما تحاكم اليهود، إلى النبيّ ﷺ، طلب الله ﷻ منه أن يحكم بينهم بشريعتهم، ويقضي فيهم بأحكام التوراة، وكذلك الأمر مع النصارى، بأن يحكم بينهم بشريعتهم بالإنجيل. قال ﷻ : ﴿فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء﴾[2]. فالدين واحد، ولكن الشرائع والمناهج متعددة بتعدد الرسالات والأمم.

وإذا كان بعض المفكرين ينتقدون طرح موضوع الهوية، وينتقدون الــدعوة إليها، أو إلى التمسك والاعتزاز بها، على أســاس أنّهــا تــدعو إلــى العنــصرية والاستعلاء، وأنّها من أسباب الحروب والدمار والويلات التي جرت على الإنسانية، ذلك أنّ الهوية عندهم: « مصطلح شبه ميتافيزيقي وتعظيمه وتضخيمه من شأنه أن يؤدي إلى الفاشية »[3].

---

(١) المسلمون والعولمة : يوسف القرضاوي / دار الطباعة والنشر الإسلامية / القاهرة / ٢٠٠٠م / ص٥١ .

(٢) سورة المائدة / الآيات (٤٢-٤٤) .

(٣) الهوية العربية أسيرة التاريخ : محمد جابر الأنصاري / ٢٣-١٠-٢٠٠٣م / من على موقــع صحيفة الحياة على الشبكة : www.daralhayat.com

أقول إذا كان هذا دور الهويات عند بعض الأمم، فإنّه بالتأكيد لا ينطبق على الهوية الإسلامية، بدليل أنّ الهوية الإسلامية – وكما قلنا – تجمّع وتوّحد تحت لوائها جميع المنتسبين إليها. وأمر آخر، ذلك أنّ الإسلام بما هو دين عالمي لا يختص ولا يقتصر على شعب من الشعوب أو أمّة من الأمم، فإننا نستطيع القول بأنّه من وجهة النظر الإسلامية هناك هويتان لكل مسلم، هوية عامة يشترك بها مع جميع المسلمين بدون استثناء، وهوية خاصة، له الحقّ كل الحقّ بأن يحافظ عليها ويتمسك ويعتز بها، هي هوية شعبه أو قومه، ما لم تصطدم، أو تخالف الدين الإسلامي، وإلاّ فأنّه مُطالَب بنبذها وطرحها.

وفيما يتعلق بعلاقة هويتنا الإسلامية بالهوّيات الأخرى، فإنّ تركيزنا على التميز والاختلاف والاستقلالية عن الآخر، لا يعني أنّ الهوية الإسلامية لا تشترك بخصائص إنسانية عامة مع كل الهويات والجماعات الأخرى[1].

وما دعوتنا إلى التمسك والاعتزاز بالهوية الإسلامية إلاّ من باب اعتقادنا بأنّها هي الأفضل والأنفع والأنسب لنا. وليس في هذا عيب أو خلل أو دعوة إلى نازية أو عنصرية..... الخ .

وهذه المسألة هي حق لكل أمّة – وليس فقط أمتنا – تريد أنْ تثبت نجاحها وصواب نظرتها أو فلسفتها في الحياة والكون والوجود، وبالتالي تضمن بقائها ووجودها.

فنحن نسعى من خلال هذا إلى المحافظة على وجودنا وتميزنا واستقلاليتنا، حتى لا تذوب في هويات غيرنا من الأمم.

---

(١) ينظر: مذهبية الحضارة الإسلامية وخصائصها : محسن عبد الحميد / ص٦٠-٦٩ / مصدر سابق.

فأيّ تفريط أو إهمال في هذا الموضوع ستكون عاقبته وخيمة علينا، وهو أمر حذرنا منه رواد نهضتنا الأوائل، وعمالقة الفكر والإصلاح والنهوض فينا، إذ يقول الشيخ الأفغاني: «فيا أيتها الأمة المرحومة هذه هذه حياتكم فاحفظوها، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت. هذه هي روابطكم الدينية لا تفرقكم الوساوس ولا تستهوينكم الترهات، ولا تدهشكم زخارف الباطل، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم، واعتصموا بحبل الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها العربي بالتركي، والفارسي بالهندي، والمغربي بالمصري.. فهي صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم، وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها.. »(١).

وينتقد الشيخ الكواكبي بشدة الذين يفرطون بهويتهم الإسلامية، إلى درجة الانتقاص والاستحياء منها، واعتقاد الصواب والكمال في غيرها، فنجده يقول: « ومن أقبح آثار نظرهم الكمال في الأجانب، كما ينظر الصبيان الكمال في آبائهم ومعلميهم، فيندفعون لتقليد الأجانب وإتباعهم فيما يظنونه رقة وظرافة وتمدناً، وينخدعون لهم فيما يغشونهم به: كاستحسان ترك التصلب في الدين والافتخار به، فمنهم من يستحيي من الصلاة في غير الخلوات، و كإهمال التمسك بالعادات القومية فمنهم من يستحيي من عمامته، و كالبعد عن الاعتزاز بالعشيرة كأنّ قومهم من سقط البشر، و كنبذ التضرب للرأي كأنّهم خُلِقوا قاصرين .. و كالقعود عن التراحم والتناصر بينهم كي لا يشم من ذلك رائحة التعصب الديني وإن كان على حقّ، إلى غير ذلك من الخصال الذميمة في أهل الخور من المسلمين »(٢).

---

(١) العروة الوثقى : الشيخ جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده / دار العرب / القاهرة / ط(١) / ١٩٥٧م / ص٤٨.

(٢) أمّ القرى : عبد الرحمن الكواكبي / ص ١٨٢ / مصدر سابق.

وقد يقال بأنّه من المستحيل أن توجد في وقتنا الحاضر في ظل التطـورات الهائلة في عمليات نقل المعلومات وتبادل الثقافات التي يشهدها العالـم. أن توجـد (هوية خالصة أو ثقافة نقية) بمعنى الكلمة. وإنّ ما يذهب إليه دعاة الهوية بصورة عامة والهوية الإسلامية بصورة خاصة، من الدعوة إلى المحافظـة علـى الهويـة والتمسك و الاعتزاز بها وما إلى ذلك هو ضرب من الخيال و المستحيل – للـسبب أعلاه –[1].

والحقيقة أنّ مثل هذا الكلام إنّما هو مغالطة ومؤامرة في نفس الوقت، فـإنّ عاقلاً لم يقل أنّ ثقافته ومدنيته وحضارته وبالتالي هويته خالصة ونقية، بمعنى أنّها لم تبنى على شيء قبلها ولم تأخذ من أحد غيرها، وبقيت كما هي منـذ أن نـشئت وإلى الآن، وهذا الأمر ينطبق على الهوية الإسلامية ودعاتها.

فدعاة الهوية الإسلامية عندما يتحدثون عن نقاء وصفاء الهويـة الإسـلامية فهذا لا يعني أنّ الحضارة الإسلامية لم تستفد من تجارب الأمم السابقة والمعاصرة، ولكن بما يخدم أغراضها ويتوافق مع مصلحتها، ولا يؤثر على قيمهـا و مبادئهـا الأساسية، بل إنّ هذه الاستفادة وصلت إلى درجة طرح وترك الكثير مـن الأمـور التي ولدت من رحم هذه الأمّة، واستقدمت أموراً غيرهـا مـن أمـم وحـضارات وثقافات أخرى، عندما رأت مصلحتها في ذلك، وهذا الأمر ليس فيه حرج أو إخلال بالدعوة إلى تَميُّز وخصوصية الهوية الإسلامية.

« فالحضارة حركة متواصلة ترفض الثبات المطلق لصالح الثبات النـسبي، أيّ ولادة متواصلة للهوية وفتح حيز الحركة فيها... وعلى هذا فإنّ العامل الرئيسي في ثبات الهوية يكمن في قدرة مفرداتها على إطلاق الإنسان، باتجاه إشباع حاجاته

---

(١) من أبرز الذين يشيعون هذا الكلام ويرددونه هم دعاة ومؤيدون العولمة اليوم.

المعنوية والمادية. فينحصر التغيير في العناصر المعيقة فقط، وهذا يعادل القدرة على إنتاج الفريد، أو على الأقل استيعاب الفريد في إطار الحضارة القائمة »(١).

والحقيقة أنّه حتى في داخل الشعب الواحد أو الأمّة الواحدة، فإنّ بعض مقومات الهوية يمكن أن تتغير أو تتطور، فهناك فسحة في هذا الموضوع من وجهة النظر الإسلامية، فاللباس – على سبيل المثال – يُعد أحد مقومات الهوية لشعبٍ ما أو لأمّة ما، والمطالبة بالتمسك بهوية الأمّة والاعتزاز بها، لا يعني بالضرورة المحافظة على شكل اللباس ولونه وهيئته، كما كان عليه الأمر قبل ١٠٠٠عام أو حتى قبل ١٠ أعوام. فهذا أمر قابل للتغيير والتطوير. إذا رأت الأمّة أو حتى الشخص الحاجة إلى ذلك – ولكن إلى حد ما–.

فالإسلام يؤيّد عملية تعارف وتقارب الحضارات والثقافات، والأمّة الإسلامية لها الحقّ أن تستفيد من غيرها من الأمم فيما تعتقد أنّه نافع لها بشرط أن لا يتعارض مع أصول دينها ومبادئها وقيمها وهويتها.

« إنّ إقامة العلاقات الدولية بين الأمم والشعوب والدول والحضارات على قاعدة المساواة في الكرامة، والعدالة في تبادل المنافع وفق الرؤية الإسلامية هو امتثال لحكم الله سبحانه.. وليست للإسلام وأمته وحضارته وعالمه مشكلة في إقامة علاقات دولية ونظام عالمي رشيد.. بل إنّ مشاركة المسلمين في إقامة هذه العلاقات الدولية العادلة هو تكليف إلهي فرضه الله ﷻ على المسلمين: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

---

(١) جدلية الثابت والمتحرك وحدوده الممنوع والمسموح في الحضارة والتفاعل الحضاري : عبد الله الفريجي / مصدر سابق .

إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

ويقول ﷺ: (الكلمة : الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقّ بها)[2].

... ومنذ فجر الإسلام وضع المسلمون هذا المنهاج في التفاعل الحضاري موضع التطبيق، فأخذوا من تجارب الأمم وقواعد وتراتيب الحضارات الأخرى (المشترك الإنساني العام) وأضافوه إلى الخصوصيات الإسلامية التي تَميّز بها منهج الرسالة الإسلامية الخاتمة.

فاختاروا (التفاعل الحضاري) ورفضوا (التبعية) والتشبه والتقليد، وكذلك رفضوا العزلة والانغلاق. فعلى سبيل المثال، أخذوا من الرومان (تدوين الدواوين) ولم يأخذوا (القانون الروماني) استغناء بـ(الشريعة الإسلامية) المُتميزة. وعندما أخذوا عن الهند (الفلك والحساب) لم يأخذوا فلسفتهم الإلهية، استغناء بـ (التوحيد) فلسفة الإسلام، وعندما أخذوا من الإغريق (العلوم التجريبية) لم يأخذوا أساطيرهم الوثنية، المنافية للتوحيد الإسلامي.

وهذا ما صنعته الحضارة الغربية، إبان نهضتها الحديثة، عندما أُخذت عن الحضارة الإسلامية العلوم التجريبية، ولم تأخذ عنّا التوحيد، ولا الوسطية، ولا القيم، وإنّما أحيت خصوصيتها الإغريقية والرومانية »[3].

وهذا ما تفعله كل أمّة واعية تريد أن تحافظ على هويتها وخصوصيتها وبقائها، فتختار ما يناسبها، وترفض ما يشوّه أو يمسخ هذه الهوية والخصوصية.

---

(١) سورة الحجرات / من الآية (١٣) .

(٢) سنن الترمذي : محمد بن عيسى الترمذي / ج(٥) / ص٥١ / رقم الحديث(٢٦٨٧) / مصدر سابق .

(٣) النظام العالمي الجديد : رؤية إسلامية : محمد عمارة / مجلة العربي / الكويت / العدد(٤٤٣) / ١-١٠- ١٩٩٥م / من على موقع المجلة على الشبكة : www.alarabimag.net

على أن يكون هذا الاختيار– اختيار التغيير والتطوير– نابع من قاعدتها ومعبر عن إرادتها الشخصية دون أيّ تنازل عن ثوابتها ومبادئها، ودون أيّ شعور أو إحساس بالنقص، وأيضاً دون أيّ ضغوطات خارجية مفروضة « فالتجارب النفسية تتفق على أنّ المتغيرات التي يعيشها الفرد يجب أن تكون نابعة من ذاته، وتحترم خصوصياته وصفاته الأساسية، أيّ هويته الطبيعية الخاصة به، وإلاّ فإنّه سيكون عرضة لإنمساخ شخصيته وتشوه نفسيته مما يؤدي به إلى أمراض خطيرة مثل انفصام الشخصية، وميول التدمير الذاتي. وهذا كله يذكر بحكاية الغراب الذي أراد أن يمشي مثل الحجل ففقد المشيتين معاً وراح يعرج »[١] .

ولقد كان رسول الله ﷺ – كما هو دائماً – أنموذجاً يُحتذى في هذا الموضوع، ذلك أنّه على الرغم من حرصه وتشبثه الشديد بالتميز والخصوصية الإسلامية، فإنّه مع ذلك كان سريع الاستجابة لكل ما يسهم في عملية تطوير الفرد المسلم والجماعة المسلمة، من خلال الاستفادة من تجارب الآخرين – أيّاً كان هؤلاء الآخرين – وما وصلوا إليه في الأمور الدنيوية. دون أن يؤثر ذلك على الهوية الإسلامية للفرد أو للجماعة المسلمة. نجد هذا واضحاً في أمور وقرارات كثيرة اتخذها النبيّ ﷺ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، أنّه ﷺ قال: (لقد هممت أن أنهى عن الغيلة[٢] حتى ذكرت أن الروم و فارس يصنعون ذلك فلا يضرهم)[٣].

---

(١) مقالات في الهوية : سليم مطر / مصدر سابق .

(٢) الغيلة : وطء المرضع .

(٣) صحيح مسلم / ج (٢) / ص١٠٦٦ / رقم الحديث (١٤٤٢) / مصدر سابق .

وعن أنس ﷺ يقول: « لما أراد النبيّ ﷺ ، أن يكتب إلى الروم، قيل له: إنّهم لا يقرؤون كتاباً إلاّ أن يكون مختوماً. فاتخذ خاتماً من فضة. فكأنّي أنظر إلى بياضه في يده، ونقش عليه محمد رسول الله »[١].

إنّ عالمية الإسلام، ونظرته إلى الأديان والشرائع الأخرى، وعلاقته بها و طريقة تعامله معها، وإنّ عالمية الحضارة الإسلامية وانفتاحها على حضارات وثقافات الشعوب والأمم الأخرى – سواء التي اعتنقت الإسلام أم لم تعتنقه – وقدرة الحضارة الإسلامية على التعامل والتفاعل مع معطيات ومنتجات تلك الحضارات والثقافات، من خلال تمثلها وصَهرَها في بوتقتها الحضارية[٢]. وأيضاً سمات الهوية الإسلامية ومقوماتها. كل هذا يجعل هذه الهوية تحمل بجدارة واستحقاق سمة العالمية. ذلك أنّ العالمية: « تَفتَح على العالم، على الثقافات الأخرى، واحتفاظ بالخلاف الإيديولوجي.. وهي طموح إلى الارتفاع بالخصوصية إلى مستوى عالمي.. وهي تفتح على ما هو عالمي وكوني... وطموح مشروع ورغبة في الأخذ والعطاء، في التعارف والحوار والتلاقح. إنّها طريق (الأنا) للتعامل مع (الآخر) بوصفه (أنا) ثانية، طريقها إلى جعل الإيثار يحل محل الأثرة »[٣].

وهذه العالمية لا تتوافر في هوية ما قدر توفُرها في الهوية الإسلامية. أمّا العولمة، فهي ليست العالمية، ويُخطئ من يعدّها عالمية بالرغم من أنّها تحمل سمة

---

(١) صحيح البخاري / ج (٣) / ص١٠٧٤ / رقم الحديث (٢٧٨٠) / مصدر سابق .

(٢) وهذا المعنى عبّر عنه، المستشرق اليهودي كولزيهر واعترف به – على تعصبه وسوء نيته تجاه الإسلام والمسلمين– بقوله : « إنّ الإسلام أكدّ على استعداده وقدرته على امتصاص الآراء وتمثلها، كما أكدّ على قدرته على صهر تلك العناصر الأجنبية كلها في بوتقة واحدة ».

(٣) العولمة والهوية الثقافية ... عشر أطروحات : محمد عابد الجابري / ص٣٠١ / مصدر سابق.

عالمية. ذلك أنّه ليس كل من يحمل سمة عالمية يحمل المحتوى نفسه أو الشكل نفسه. فالعالمية الرأسمالية وهي سمة صاحبت الرأسمالية دائماً هي غير العالمية الاشتراكية وهي غير العالمية الإسلامية بكل تأكيد. والعولمة تختلف عن هذه جميعاً[1].

العولمة إرادة للهيمنة وقمع وإقصاء للخصوصي، لكل ما هو خصوصي، وهي طموح، بل إرادة وسعي لاحتواء العالم واختراق الآخر وسلبه خصوصيته وهويته وبالتالي نفيه من العالم. وهي تعمل على تعميم نمط حضاري يخصّ بلداً بعينه هو الولايات المتحدة الأمريكية بالذات، على بلدان العالم أجمع. فهي إيديولوجيا تُعبِّر بصورة مباشرة، عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته[2].

ثم إنّ مفهوم العالمية لا ينسجم ولا يجتمع (ومفهوم الهيمنة) المصطلح المرادف للعولمة، كما يذهب إلى ذلك احمد يوسف داوود، حيث يقول: « إنّ مصطلح العولمة في اشتقاقه العربي هو الأكثر دقة في الدلالة على أصلة الغربي، من حيث منشؤه الفلسفي، ومن حيث أهدافه. إنّه يتضمن معنى القسر والإخضاع لحال واحدة أحادية الاتجاه، وعلى مختلف المستويات. وتلك الحال المرتبطة بمعنى القهر والإخضاع ليست شريفة، الأصل أو الأسلوب وليست نظيفة الهدف والغاية »[3].

---

(١) ينظر : ثالوث العولمة القاهر– العسكرة والاقتصاد والثقافة .. الاقتصاد المحرك الرئيسي للعولمة : منير شفيق / مصدر سابق .

(٢) ينظر: العولمة والهوية الثقافية : محمد عابد الجابري / بتصرف / مصدر سابق .

(٣) أوراق مشاكسة : مقالات في الفكر والأدب .. عن العولمة والثقافة : احمد يوسف داوود / من منشورات اتحاد الكتاب العرب / دمشق / ٢٠٠١م / من على موقع الاتحاد على الشبكة: www.awu-dam.org

فالعولمة لا تسير في خط مواز مع العالمية، لأنّ الواحدة تنفـي الأخـرى، فالعولمة تخصص القيم وحقوق الإنسان والحريات والثقافة والديمقراطية،أمّا العالمية،فهي على النقيض من ذلك[1].

يقول توماس فريدمان في وصفه لظاهرة العولمة: « نحن أمام معارك سياسية وحضارية فظيعة، العولمة هي الأمركة، والولايات المتحدة قوة مجنونة. نحن قوة ثورية خطيرة. وأولئك الذين يخشوننا على حقّ. إنّ صندوق النقد الدولي قطة أليفة بالمقارنة مع العولمة »[2]. وعلى الرغم مما في هذا الوصف من مبالغة مقصودة بهدف الترويج لظاهرة العولمة وإيهام العالم بأنها ظاهرة حتمية، وأن لا طريق آخر أمام شعوب ودول وحكومات العالم سوى الخضوع لهذه الظاهرة، والاستسلام لها، والاندماج فيها. إلاّ أنّ هذا الوصفَ لا يبتعد كثيراً عن الحقيقة، وخصوصاً في ما يتعلق بالسعي نحو أمركة العالم. ويقوي هذا الرأي، قول الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش في مناخ احتفاله بالنصر في حرب الخليج الأولى: « إن القرن القادم سيشهد انتشار القيم الأمريكية وأنماط العيش والسلوك الأمريكي »[3].

---

(١) ينظر : العولمة ضد الأخلاق : سيرج لاتوش / نقلاً عن : خطاب العولمة .. راهينة المفهوم كونية الهيمنة : ذاكر الحبيل / مجلة الكلمة / (نيقوسيا – قبرص) / العدد(١٩) / السنة(٥) / ربيع ١٩٩٨م / من على موقع المجلة على الشبكة : www.kalema.net

(٢) توماس فريدمان : جريدة الشرق الأوسط / ٢-٣-١٩٩٧م / نقلاً عن : العولمة والثقافة / علي عقله عرسان / مجلة الفكر السياسي / العددان(٤-٥) / السنة(٢) / شتاء ١٩٩٨م-١٩٩٩م / من على موقع اتحاد الكتاب العرب بدمشق على الشبكة : www.awa-dam.org

(٣) مجلة الأسبوع الأدبي / العدد (٦٠٢) / ١٤-٣-١٩٩٨م / ص١٩ / نقلاً عن : العولمة وأثرها على اقتصاديات الدول الإسلامية : محمد آدم / مجلة النبأ / العدد(٤٢) / شباط ٢٠٠٠م / من على موقع المجلة على الشبكة: www.aannabaa.org

والحقيقة إنّ القول بأنّ العولمة، هي في حقيقتها (أمركة) – على الرغم من اعتراض البعض عليها–[1][2] ليس فيه مبالغة أو تهويل، وهو لا يدل على العجز أو الاستسلام، أو ما يعبِّر عنه بأنّه ركون إلى (نظرية المؤامرة) لأنّ هذه هي الحقيقة وهذا هو الواقع الذي نعيشه و نلمسه « فنحن لا نضيف شيئاً جديداً عندما نقول بأنّ العولمة هي في مضمونها الفعلي والعملي أمركة. فالأمركة هي النتيجة المقصودة من العولمة، وذلك عند دعاتها في الولايات المتحدة الأمريكية، وهذه الحقيقة ليست مبنية على استنتاج أو تخمين بل هي الاتجاه السائد فيها فعلاً، عند التيار المنظر للعولمة، وبالخصوص الفريق المحافظ الذي يحكم بلاد العم سام »[3].

لا بل إنّ كثيراً من القادة الأوربيين يشعرون هم أيضاً بهذا الخطر الذي يهدد هوياتهم وثقافاتهم، من السعي الأمريكي نحو أمركة العالم، بطريقة شبه رسمية

---

(١) ينظر : أسئلة العولمة ملاحظات حول تشكيل مفهوم العولمة في الكتابات العربية : كمال عبد اللطيف / مجلة الفكر السياسي / العددان(٤–٥) / السنة(٢) / شتاء ١٩٩٨م–١٩٩٩م / من على موقع اتحاد الكتاب العرب بدمشق على الشبكة:www.awu.dam.org

(٢) يذهب عدد من الباحثين إلى عدم صواب الفكرة التي تقول بأنّ العولمة هي (أمركة) فيقولون ماذا لو انهارت الدولة أو الحضارة الأمريكية أو ضعفت ولم تعد دولة عظمى لسبب ما وظهرت هناك دولة عظمى أخرى ، أو عدة دول عظمى متنافسة . واستندت هي أيضاً على آليات العولمة و مبادئ العولمة لفرض هويتها وثقافتها وآرائها على الشعوب والدول الأخرى، فماذا سيكون تسمية العولمة عندها ؟؟ أقول وما المانع و ما العيب أو الخلل عندما نسمي الأشياء بحقائقها كما نسميها بمسمياتها ، فإذا كانت العولمة اليوم هي أمركة ونسميها كذلك، لانّها كذلك، فربما غداً تصبح حقيقة العولمة هي (الفرنسة) أو (الأسرلة). فما هو المانع العقلي و المنطقي في ذلك ؟؟

(٣) العولمة بوصفها أمركة ... ووراء الاكمة ما وراءها : محمد عابد الجابري / ١٨–٨–٢٠٠٣م / من على موقع محمد عابد الجابري على الشبكة : www.aijabriabed.com

وشبه قانونية. وذلك باستخدام المؤسسات الدولية والعالمية الرسمية وغير الرسمية، مثل أجهزة الأمم المتحدة، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية، ومنظمات حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، والبيئة... الخ، وتحت غطاء هذه المنظمات وغيرها تسعى لفرض ثقافتها ونمط عيشها الاستهلاكي على شعوب ودول العالم الأخرى(١).

فنجد في داخل منظومة الغرب نفسه من يبدي تخوفه من الهيمنة (العولمة الأمريكية) الثقافية، حيث دعا رئيس الوزراء الياباني السابق (ناكاسوني)، دعا العالم إلى صياغة أو إنتاج نسق قيمي يوجه هذا العالم، شزيطة أن يكون هذا النسق تجسيداً لاشتراك وتفاعل قيم الحضارات والأديان، وليس مقتصراً على الحضارة الغربية، بما في ذلك البوذية(٢).

وشهادة أخرى على ذلك، ما جاء في كلمة الرئيس الفرنسي جاك شيراك التي ألقاها بمناسبة اليوم الوطني الفرنسي، (١٤ / يوليو/٢٠٠٠م) حيث قال: « إنّ العولمة بحاجة إلى ضبط لأنّها تنتج شروخاً اجتماعية كبيرة، وهي وإن كانت عامل تقدم، إلاّ أنّها تثير مخاطر جدّية ينبغي التفكير فيها جيداً، ومن هذه المخاطر: أنّها تزيد من ظاهرة الإقصاء الاجتماعي، وأنّها تنتمي إلى الجريمة العالمية، وأنّها تهدد أنظمتنا الاقتصادية »(٣).

---

(١) ينظر : المسلمون و العولمة : يوسف القرضاوي / مصدر سابق / ص١٤-١٥ .

(٢) ينظر : تحدي الثقافة المعولمة : باسل حسين / مجلة فضاءات / ليبيا / العدد(٦) / من على الموقع المجلة على الشبكة: www.fadaat.com

(٣) العولمة و الحياة الثقافية في العالم الإسلامي..ما العولمة / عبد العزيز بن عثمان التويجري/ مصدر سابق .

إذن فالعالم كله يواجه خطر إشاعة الثقافة العولمية ذات الطابع المؤمرك والمتجهة إلى إقصاء الثقافات الأخرى وتذويب الهويات، تحت شعارات طوباوية زائفة مثل (المواطنة العالمية) و(القرية الكونية) و(القيم الكونية)... الخ من تلك المصطلحات التي لا واقع ولا أمل لها.

المبحث الثاني
تأثير العولمة الثقافية على الهوية الإسلامية

لا يكاد يقدم بحث أو دراسة أو يعقد مؤتمر عن العولمة، إلاّ ويكون موضوع الهوية هو الطرف الآخر في هذا البحث أو الدراسة، سواء على مستوى الأعمال الفكرية العربية والإسلامية أو حتى على مستوى الأعمال الفكرية العالمية. ولكي يتضح الترابط في الموضوع بصورة أكبر، ونفهمه بطريقة أفضل، فلابد أن نبحث في العلاقة بين الهوية والعولمة.

والحقيقة أنّ موضوع الهوية لم يكن بهذا الحضور النشط في الأدبيات العالمية أو على مستوى العلاقات الدولية، ولكن بعد بروز ظاهرة العولمة وانتشارها واستفحال أمرها، أخذ موضوع الهوية والثقافة يبرز هو الآخر على الساحة الفكرية، وكأنّه الطرف المقابل أو المنافس للعولمة أو لمفهوم العولمة . وهذا الأمر لفت انتباه مجموعة من الباحثين، فألّفوا كتاب بعنوان (عودة الهوية والثقافة إلى نظرية العلاقات الدولية)[١].

---

(١) الكتاب من إعداد: يوسف لابيد وفريدريك كراتوتشفيل / لندن / جامعة كيل / ١٩٩٦م / ينظر: الفكر الإسلامي وقضايا العولمة : زكي الميلاد / مصدر سابق .

حيث يطرح هذا الكتاب تساؤلاً حول الغياب الطويل للاهتمام بالثقافة والهوية على مستوى العلاقات الدولية. وقد سبق هذا الكتاب وتبعه سيل من الكتب والبحوث والدراسات عن العولمة والهوية والثقافة وطبيعة العلاقة بينها، وهذا كله طبعاً جاء بعد بروز ظاهرة العولمة وانتشارها، أمّا قبل هذا « فقد كان كل حديث عن قضايا الهوية يقابل بالشك وعدم الإصغاء والاكتراث، ويُصور بطريقة من الفهم ترتد على صاحبها بالنقد، على عكس ما يجري اليوم من اهتمام يتصف بجدية كبيرة مختلطة بالقلق »(١).

هذا فضلاً عن المؤتمرات والندوات العربية والعالمية التي بحثت في العلاقة بين العولمة والهوية ، ومن هذه الندوات والمؤتمرات: ندوة (العولمة والهوية المقامة في الرباط / أكاديمية المملكة المغربية / أيار/١٩٩٧م). وندوة (العرب والعولمة المقامة في بيروت/مركز دراسات الوحدة العربية / كانون الثاني /١٩٩٧م). وندوة (العولمة والحفاظ على الهويات الثقافية من أجل التنمية المقامة في أستوكهولم /اليونسكو/ آذار/ ١٩٩٨م) . وندوة(العولمة وقضايا الهوية الثقافية المقامة في القاهرة / المجلس الأعلى المصري للثقافة / نيسان/١٩٩٨م) . وندوة (الفرانكفونية والعولمة المقامة في بيروت/الدول الناطقة باللغة الفرنسية / نيسان/١٩٩٨م)(٢). والمؤتمر الذي نظمته الندوة العالمية للشباب الإسلامي بعنوان (قضية الهوية الإسلامية في عصر العولمة) للفترة من ٢٦/٨-٢/٩/٢٠٠١، في مصر (٣).

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) ينظر: المصدر نفسه .

(٣) قضية الهوية الإسلامية في عصر العولمة / موقع بلاغ الإلكتروني على الشبكة : www.balagh.com

وكل هذه الندوات والمؤتمرات كانت في النهاية توجه النقد للعولمة ، لأنّها تسعي إلي فرض ثقافة ذات بعد واحد ، وأنّها تسلب هويات وخصوصيات الشعوب والأمم وتجارب التنوع الثقافي الخلاق .

ويذهب الجابري إلي أنّ العلاقة بين العولمة والهوية ليست علاقة بسيطة ، وإنّما هي منظومة من العلاقات قائمة في آن واحد بين طرف وطرف آخر، داخل الدول المصنعة ، وداخل الدول النامية ، وبين هذه الدول وتلك... وأنّها علاقة إشكالية وليست مشكلة. ذلك أنّ المشكلة عند الجابري تنتهي إلي حلّ ، إن عاجلاً أم آجلاً، أيّاً كان نوع المشكلة. أمّا الإشكالية، فإنّ جذرها العربي- والكلام للجابري- يحمل جانباً أساسياً من معناها الاصطلاحي. يقال: أشكل عليه الأمر، بمعني: اختلط والتبس. وفي الاصطلاح: منظومة من العلاقات التي تنسجها داخل فكر معين مشاكل عديدة مترابطة لا تتوفر إمكانية حلها منفردة ، ولا تقبل الحل- من الناحية النظرية - إلاّ في إطار حلّ عام يشملها جميعاً.

وبعبارة أخرى إنّ الإشكالية هي النظرية التي لم تتوفر إمكانية صياغتها، فهي توتر ونزوع نحو النظرية ، أيّ نحو الاستقرار الفكري . والعلاقة بين العولمة والهوية هي من هذا النوع. فداعية العولمة يقول: " **يجب أن نأخذ بالعولمة، وننخرط فيها ونعمل في إطارها إذا نحن أردنا أن نعيش في المستقبل** " وقد يضيف : " **أمّا الهوية فهي تنتمي إلي الماضي**". وداعية الهوية يقول : " **يجب أن نقف في وجه العولمة، لأنها تنطوي علي غزو يمارسه الآخر علينا** " وقد يضيف: " **وهو غزو يتجاوز مستوى السلع والاقتصاد لأنّه يستهدف الثقافة وبالتالي**

الهوية والكيان " وبما أنّ كل واحد منهما يحمل جانباً من الخطأ ومن الصواب، فنحن إذن أمام إشكالية وليس أمام مشكلة[١].

والحقيقة أنّ مثل هكذا طرح – على فطنته بيد أنّه يصدر من مفكر معروف له وزنه ومكانته – قد أسهم في تعقيد الموضوع أكثر مما ساهم في الوصول إلى حل له . ذلك أنّ فيه شيء من التهويل فيما يتعلق بتأثير العولمة على الهوية – خاصة ونحن نتكلم عن الهوية الإسلامية – .

فالجابري عندما يطرح قضية التشابه أو التماثل بين ثنائية (الأصالة والمعاصرة) وثنائية (الهوية والعولمة) من باب أنّ العولمة تمثّل المعاصرة ، والهوية تمثل الأصالة ، فإنّه ينفي هذا التماثل بين العولمة والمعاصرة على أساس أنّ المعاصرة تعني أننا نحن الذين ننشد المعاصرة – وهذا ما نلحظه من صيغتها اللغوية – فنقول ننشد المعاصرة ، ولا نقول ننشد العولمة ، بل نقول ننخرط في العولمة ، ففي المعاصرة نحن نتعامل مع أنفسنا كذات أمّا في العولمة ، فنشعر أننا موضوع لها. والمعاصرة لا تهدد الهوية إلى درجة إلغائها ونفيها، أمّا العولمة فبما أنّها تعميم وقولبة فهي تهدد الهوية كما تهدد الأصالة[٢].

فإن كان الجابري في حديثه عن تأثير العولمة على الهوية ، يقصد آليات العولمة وما تحمله من التطور الكبير والتقنية العالية في وسائل الاتصال ونشر المعلومات والثقافات ، فقد سبق الحديث عن موقف الإسلام من الاستفادة من هذه

---

(١) ينظر: العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الأيديولوجي.. تعريفات ومقارنات: محمد عابد الجابري/ مجلة فكر ونقد / العدد(١٣) / من على موقع الجابري على الشبكة: www.aljabriabed.com

(٢) ينظر: المصدر نفسه.

العلوم والمنافع وتسخيرها في صالحه، وتدعيم موقفه بها. وإنّ هذا الأمر هو حقّ إنساني عام وجهد لصالح البشرية كلها، إذا ما أحسن استغلالها وتوجيهها.

وإن كان المقصود من خطورة العولمة على الهوية، مبنياً على أساس ضعف الإمكانيات المتاحة للهويات والثقافات الأخرى وبالذات الهوية الإسلامية ، لمنافسة العولمة أو الايدولوجيا التي تحملها العولمة أو الثقافة التي تبشر بها العولمة وتدعو إليها - بتعبير أدق تفرضها على الآخر أو على الثقافات والهويات والحضارات الأخرى- وبالتالي الإعلان عن موت تلك الثقافات والهويات الأخرى وانصهارها في هوية وثقافة العولمة (الأمركة) الجديدة.

فإنّ مثل هذا القول فيه من الإطلاق والتعميم ما يبعده عن الدقة والواقعية . فموضوع إلغاء هوية شعب أو أمّة من الوجود أو إقصاءها أو تهميشها، ليس بهذه البساطة والسهولة. على الأقل ليس بالنسبة للهوية الإسلامية.

يقول رضوان السيد : « لا أعرف شعباً من شعوب العالم زالت هويته أو ذابت ، بل أعرف شعوباً وانتماءات انقرضت للعجز عن التلاؤم »(١).

وهذا العجز أبعد ما يكون عن الهوية الإسلامية لأنها هوية تحمل في بنيتها، الثابت الأصيل، والمتغير المتجدد.

ثم إنّ قضايا مثل الهوية والثقافة تكون عميقة الجذور في مكنون الوعي الإنساني العام. وهذه النقطة يُقر بها صموئيل هنتنغتون في مقال له لم يسلط عليه الضوء ، كما في مقالته الشهيرة (صدام الحضارات) التي حولّها المحافظون الجدد- أو هكذا تعارف على تسميتهم- إلى خطة عمل ، وواقع معايش . يقول هنتنغتون:

---

(١) الثنائيات، المصطلحات، الاتجاهات في الفكر الإسلامي : حوار مع رضوان السيد / مجلة قضايا إسلامية معاصرة / تصدر عن مركز دراسات / فلسفة الدين / بغداد / العدد(٢٦) / السنة(٨) / شتاء ٢٠٠٤م / ص٦٨ .

« كثيرون في الغرب يعتقدون أنّ العالم يسير نحو ثقافة عالمية موحدة واحدة ، هي ثقافة غربية أساساً. ومثل هذا الاعتقاد متغطرس زائف خطر. فانتشار السلع الاستهلاكية الغربية لا يعني انتشار الثقافة الغربية... وإنّ شعوب العالم غير الغربية لا يمكن لها أن تدخل النسيج الحضاري للغرب حتى وإن استهلكت البضائع الغربية، وشاهدت الأفلام الأمريكية ، واستمعت إلى الموسيقى الغربية . فروح أيّ حضارة هي اللغة والدين والقيم والعادات والتقاليد . وحضارة الغرب تتميز بكونها وريثة الحضارات اليونانية والرومانية والمسيحية الغربية ، والأصول اللاتينية للغات شعوبها ، والفصل بين الدين والدولة ، وسيادة القانون ، والتعددية في ظل المجتمع المدني والهياكل النيابية والحرية الفردية... وإنّ التحديث والنمو الاقتصادي لا يمكن أن يُحقِق التغريب الثقافي في المجتمعات غير الغربية بل على العكس يؤديان إلى مزيد من التمسك بالثقافات الأصيلة لتلك الشعوب ولذلك فإنّ الوقت قد حان لكي يتخلى الغرب عن وهم العولمة ، وأن يُنمّي قوة حضارته وانسجامها وحيويّتها في مواجهة حضاراتّ العالم . وهذا الأمر يتطلب وحدة الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ، ورسم حدود العالم الغربي في إطار التجانس الثقافي »[1].

وهذه هي المعضلة الكبرى للغرب الآن ، فقد أكتشف وسوف يكتشف بصورة أكبر في المستقبل القريب ، أنّ العولمة الثقافية ، التي يدعو لها ويُبشّر بها، ستكون السبب في إعادة الروح للثقافات والهويات العالمية المختلفة ، وزيادة التمسك والتشبث والاعتزاز بها.« لقد فتحت العولمة قضايا الهوية على نطاق واسع، وأخذ

---

(١) الغرب إنّه فريد ولكنه ليس عالمياً : صموئيل هنتنغتون / مجلة شؤون خارجية / نوفمبر/ديسمبر ١٩٩٦م/ نقلاً عن: الحفاظ على الهوية والثقافة الإسلامية في إطار الرؤية المتكاملة / عبد العزيز بن عثمان التويجري / مصدر سابق .

الحديث يقترن بصورة متلازمة تقريباً بين العولمة والهوية والاصطدام أو التعارض بينهما، ولعله من المرات القليلة خلال القرن العشرين الذي يفتح فيه أوسع حديث واهتمام في العالم حول قضايا الهوية وما يتهددها من مخاطر الإلغاء والإقصاء، أو الذوبان والانصهار، والافتراض الثالث وهو الانبعاث والاستنهاض »[1].

إنّ سعي العولمة – الأمركة – نحو صياغة ثقافة كونية عالمية – هي الثقافة الأمريكية بالذات – ثم في مرحلة متقدمة تحقيق التجانس والاتساق بين المجتمعات والثقافات المختلفة. ودفع العالم نحو التوحد في السّمات والخصائص والثقافة والسلوك . هذا السعي يقابله شك كبير من العديد من الباحثين والمفكرين وعلماء الاجتماع. ومن الأسباب التي تؤيد هذا الشك: الفجوة الكبيرة بين المركز والأطراف، متمثلة بالعلم والمعرفة وآليات الاتصال وسبل الحصول على المعلومات، ومن ثم انتقال الثقافات والحضارات والقناعات الفكرية ، فضلاً عن الفارق الكبير في مجال الاقتصاد وحتى الهموم والأولويات . وإذا ما قدر للخطاب العولمي أن يصل إلى الأطراف فإنّه يصل إلى النخبة وليس إلى الجماهير، وهذا عكس ما تريده العولمة وتسعى إليه.

وسبب آخر يتمثل بالقانون الفيزيائي الشهير، وهو أنّ لكل فعل ردّ فعل يعاكسه في الاتجاه ويساويه في القوة . ذلك أنّ مسألة الهوية والثقافة موغلة العمق في نفوس وعقليات الشعوب والأمم التي تستهدفها ظاهرة العولمة . وهذا الاستهداف الكبير والخطير، سيجعل تلك الشعوب ليس فقط تزداد تمسكاً وتشبثاً بهوياتها وثقافاتها ، وإنّما من المرجح أنّها ستحيي ما أفلّ منها وتعيد لها الحياة من جديد ، «وهذا ما تشهده أنحاء مختلفة من العالم ، في شكل إحياء الهويات الثقافية الوطنية والمحلية في آسيا وأفريقيا وحتى في أوربا في محاولة لمواجهة العولمة الثقافية .

---

(١) الفكر الإسلامي وقضايا العولمة : زكي الميلاد / مصدر سابق .

فبدلاً من أن تُوحِد العالم ، فإنّ العولمة ستساعد على إعادة تشكيل المحلي مرة أخرى ، ولذلك ظهر مصطلح مضاد للعولمة ، هو المحلية (Localization)»[1].

ولكن هل ينتهي الأمر عند هذا الحد ، ونطمئن وننام رغداً ، فالعولمة ما هي إلاّ أوهام وسراب ؟ وهل هذه هي الحقيقة كلها ؟ الجواب : بالتأكيد كلاّ. وإنّ ما ذكر إنّما يمثل جزءاً من الحقيقة ، أو جانباً واحداً منها فقط . إنّ الاقتناع والاكتفاء بها ، سيكون من الأخطاء الفادحة والقاتلة بحق أمتنا وهويتنا وثقافتنا.

فهناك حقيقة يجب أن نتقبلها وأن نَعيها جيداً ، وهي أنّ الغرب الآن هو أكبر مؤثر على العالم ، وأنّه يُسيطر على أهم العوامل تأثيراً كالمؤسسات الإعلامية السمعية والبصرية ، ووسائل الاتصال والمعلومات ، وأسرار العلوم التقنية المتقدمة، فضلاً عن التحكم بالاقتصاد العالمي ، والسياسات الدولية ، وأنّه يملك القوة العسكرية الأعظم في العالم . وقد برزت العولمة – بآلياتها وأيديولوجياتها – لتضيف إلى هذه القوة إضافات جديدة نوعية وكمية .

والغرب لا ينقصه الوازع الديني أو العقلي أو الأخلاقي في الرغبة والسيطرة على العالم بفضل هذه الآليات التي يملكها . لا بل والقضاء على كل انبعاث من شأنه أن ينافسه في هذه الزعامة ، أو أن يشاركه فيها.

وعن هذه الإيديولوجية المركزية الأوربية يقول الجابري: « لقد كشف تطور الأوضاع في أوربا عن حقيقة لا يمكن التستر عليها وهي أنّ الديني في الأيديولوحيا البابوية إنّما كان مسخراً للسياسي ، وأنّ الطموح إلى إنشاء دولة مسيحية عالمية تحت سلطة البابا لم يكن في الحقيقة سوى تعبير عن الرغبة الدفينة والجامحة في إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة... ومع قيام النهضة الأوربية الحديثة وظهور

(١) العولمة والهوية الثقافية في أفريقيا : هويدا عدلي / مصدر سابق .

الدولة القومية وما رافق ذلك من فصل الدولة عن الكنيسة ، قامت فلسفة التاريخ لتَحِل مَحَل الايدولوجيا البابوية »[1].

وهكذا تحولت المُسلَمة التي كان يُؤمن بها الأوربيون من أنّ (الإنسانية خُلقت من أجل الكنيسة) إلى مُسلَمة وبديهية أخرى هي أنّ (الإنسانية خُلقت من أجل أوربا)[2]. وتحولت (المركزية الأوربية) من فكرة تُؤسَس ضمنياً وفعلياً الايدولوجيا البابوية ، إلى محور لتنظيرات فلسفية تجعل أوربا المصب الذي يجري نحوه نهر التأريخ بجميع ينابيعه وروافده . ووظف فلاسفة ومنظرو النهضة الأوربية الحديثة أفكارهم من أجل هذه الفكرة ، فيذهب (هاردر) إلى أنّ أوربا هي وحدها مسرح الحضارة الإنسانية . ويرى (مونتسيكيو) أنّه من قدر الشعوب الجنوبية أن تغزوها الشعوب الشمالية باستمرار وأنّ من الطبيعي أن يكون العبيد من الجنوب والسادة من الشمال[3].

وهذه الآراء لم تكن مجرد آراء شخصية أو خطب أو مقالات تنشر، وإنّما كانت نظريات ساهمت بصورة فاعلة ومؤثرة في تشكيل الوعي والعقلية والمنهجية الغربية الأوربية الحديثة في رؤيتهم لأنفسهم ورؤيتهم للآخر.

وما العولمة إلاّ شكل جديد من أشكال الهيمنة الغربية التي تعبر عن المركزية الدفينة في الوعي الغربي الأوربي . مع الانتباه إلى أنّ هذه المركزية انتقلت إلى– الغرب الأقصى– أو الولايات المتحدة الأمريكية ، نظرياً وعملياً. مع بقاء النظرية موجودة في العقلية الأوربية في – الغرب الأوسط – أو أوربا.

---

(١) مسألة الهوية : العروبة والإسلام .. والغرب : محمد عابد الجابري / مركز دراسات الوحدة العربية / بيروت / ط(٢) / ١٩٩٧م / ص١١٩ .

(٢) المصدر نفسه / ص١١٧ .

(٣) ينظر: المصدر نفسه / ص١٢٢-١٢٣ / بتصرف بسيط .

نجد هذا في نظريات مثل (نهاية التأريخ) لفوكوياما و(صدام الحضارات) لهنتنغتون ، ونعايشه في الأعمال والتصرفات والتصريحات والحروب التي تمارسها الحكومة الأمريكية.

وبالنسبة لمخاطر العولمة على الهوية الإسلامية . فشئنا أم أبينا هناك اختراق وغزو ثقافي واسع النطاق ، هناك اختراق إعلامي على مستوى الصورة والمعلومة، وعلى مستوى السينما والتلفزيون ، اختراق للأعراف والتقاليد والعادات والأزياء والذوق العام .

صحيح أنّ هذا الاختراق والغزو الثقافي الذي نتحدث عنه ليس بجديد على فكر وواقع أمتنا الإسلامية ، فمفكرو وعلماء الإسلام ما انفكوا يتحدثون في الخمسين عاماً الماضية عن استعمار وغزو جديد يطال الأمّة العربية الإسلامية، ليس هو الاستعمار العسكري، وإنّما هو الاستعمار والغزو الفكري والثقافي، وقد كُتِبَ في هذا المجال الآلاف من المؤلفات .

ولكن هذا كله كان في الماضي ، عندما كان بإمكان الفرد أو الجماعة أو الدولة أو الأمّة ، أن ترفض هذا الغزو أو تقبله فالأمر لم يكن بهذه الصعوبة . ولكن الآن نتحدث عن غزو واستعمار جديد هو الغزو الثقافي العولمي ، وهذه الظاهرة ليست فقط إيديولوجيا ، وليست فقط كلاماً وشعارات أو كتباً ومؤلفات ، وليست فقط رؤى ومناهج وإنّما هي فوق كل هذا منظومات وشبكات معقدة جداً يستحيل السيطرة عليها فليس لها حدود أو حواجز تقف أمامها وتمنعها من الانتشار، من الناحية التقنية – على الأقل هذا ما يؤكد المختصون حدوثه في المستقبل – .

وبما أنّ الهوية الإسلامية هي المستهدف الأول من قبل العولمة ودعاة العولمة كونها العائق الذي يقف أمام انتشار العولمة وتبنيها في العالم الإسلامي، الذي بات مدركاً الآن، سواء على مستوى النخبة أو حتى على مستوى الجماهير،

أنّه بتخليه عن هويته الإسلامية فإنّه يُجرِد نفسه من أمضى وأقوى سلاح يملكه. وهذا رأي دعاة ومؤيدو العولمة أو الأمركة ومنظرو السياسة الخارجية الأمريكية. من أمثال (باري بوزان)[1] الذي كان من أوائل من طرح فكرة الصدام الحضاري مع الإسلام بعدما زال الخطر الشيوعي،حيث خلص في مقالته التي كتبها مطلع التسعينات من القرن الماضي إلى أن صدام الهويات الحضارية في القرن الواحد والعشرين، سيكون أوضح ما يكون بين الغرب والإسلام مبرراً ذلك بعدة عوامل هي: عوامل ثقافية، بسبب تعارض القيم العلمانية السائدة في الغرب مع القيم الإسلامية. ووجود تنافس تأريخي بين المسيحية والإسلام ، وأيضاً بسبب عوامل نفسية مثل غيرة المسلمين من قوة الغرب[2]!..

وتبعه إلى هذه النظرة صموئيل هنتنغتون وذلك في مقالته الشهيرة (صدام الحضارات) حيث يرى أنّ الثقافة والهوية والدين، هي المكونات الأساسية للحضارة، وأنّها ستشكل أنماط الوحدة والتجزئة والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة[3]. ويذهب هنتنغون إلى أنّ الحضارة الإسلامية هي الخطر القادم على الغرب ، ويعزو ذلك إلى الانفجار السكاني عند المسلمين ، والصحوة الإسلامية

---

(١) أستاذ الدراسات الدولية بجامعة وورويك.

(٢) ينظر: السياسة الواقعية في العالم الجديد..أنماط جديدة للأمن العولمي في القرن الواحد والعشرين: باري بوزان /١٩٩١م/نقلاً عن: الإسلام هو العدو الأول للإمبراطورية الأمريكية..كيف ولماذا:محمد عابد الجابري/ ٩-٩-٢٠٠٣ م/ من على موقع الجابري على الشبكة: www.aljabriabed.com

(٣) ينظر: صدام الحضارات .. إعادة صنع النظام العالمي الجديد : صموئيل هنتنغتون / ص٧١ / مصدر سابق .

التي يشهدها العالم الإسلامي والتي تجعل من المسلمين يتمسكون أكثر فأكثر بهويتهم وخصوصيتهم الإسلامية[1]..

فمن الطبيعي بعدها أن تكون الهوية الإسلامية المستهدف الأول من قبل العولمة الثقافية، فالشيخ القرضاوي يتحدث عن عولمة الدين أو بعبارة أكثر صراحة ودقة (تنصير العالم) ، ويقول: « بأنّها الأخطر وإن كانوا لا يتحدثون عنها بصراحة لما لها من حساسية خاصة ، وهي في المناطق العربية أو الإسلامية لا تهدف إلى تنصير المسلم – وإن كان هذا غايتها– وإنّما يكفيها زعزعة عقيدته وتشكيكه في مسلماته ، وتخريب أخلاقه وإفساد سلوكه ، فينشأ بهذا مسلم لا يبالي بهويته الإسلامية فضلاً عن التمسك والاعتزاز بها »[2][3].

ومن الأمثلة الأخرى على ذلك ما يشهده العالم الإسلامي– وخاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر– من استهداف لمناهجه التعليمية وبالأخص المواد التي تدرس الدين الإسلامي ، وفي كافة المراحل الدراسية . حيث توصف هذه المناهج التعليمية بأنّها أساس ومنبع أصيل للفكر الإرهابي وتخريج الإرهابيين .

(١) ينظر: المصدر نفسه / ص٣٧٣ .

(٢) ينظر: المسلمون والعولمة : يوسف القرضاوي / مصدر سابق / ص٧٤ .

(٣) ينظر بخصوص هذا الموضوع المؤتمر الذي عقد في كولورادو بأمريكا سنة (١٩٨٧م) تحت عنوان (تنصير المسلمين في العالم) والذي حضره (١٥٠) من قادة المبشرين في العالم المسيحي . وقد طُبِعت أعمال المؤتمر ومقرراته دار(marc) للنشر تحت عنوان : The Gospel and Islam-١٩٧٨compendium وقد تُرجِمت أعمال المؤتمر إلى اللغة العربية وطبعت وجمعت في كتاب تحت عنوان : (التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي) وتحت يدي نسخة منه وليس عليه اسم المترجم ولا دار النشر ولا تاريخ الطبع.

ولهذا شنّت الولايات المتحدة الأمريكية حملة شعواء للضغط على الحكومات العربية والإسلامية ، لتغيير مناهجها التعليمية تحت دعاوى الإصلاح والتطوير، وبما يتناسب والمصالح والرؤى الغربية ، وعلى حساب الرؤى والثوابت الإسلامية.

وتحت الضغوط المتزايدة ، استجابت أغلبية الدول العربية والإسلامية لهذه الدعوة ، وبدأت حملة لحذف وإلغاء كل المواد والأفكار التي تشير إلى مواضيع لا يرتضيها الغرب مثل الجهاد،وما يتعلق بالمشركين،أو ما يشير إلى بني إسرائيل، وحتى لو كانت هذه المواد والأفكار ثابتة في القرآن الكريم والسُنّة النبوية الشريفة ، بحجة أنّها تحث على الكراهية والعنف[1].

ويجري حالياً كتابة ونشر ما يسمى بـ (الفرقان الحقّ) أو مصحف الأديان الثلاثة ، وهو كتاب أمريكي إسرائيلي مشترك هدفه التشكيك بصحة القرآن الكريم ، وأنّه كتاب سماوي. والجزء الأول من هذا الكتاب يحوي سوراً تحمل نفس أسماء سور موجودة في القرآن الكريم ، كالفاتحة ، والتوبة ، والقدر، والمؤمنون ، والنساء... ولكن محتواها يستهدف تغيير المفاهيم وتهويد المسلمين أو تنصيرهم . وقد صَدَرَت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، ووزِعَ سراً في الولايات المتحدة وإسرائيل ، وبقية أجزاء الكتاب تحت الإشراف لغرض الدراسة والتدقيق ، والمطلوب اعتماده في المستقبل لدى الدول العربية والإسلامية ليكون بديلاً عن القرآن الكريم. ومن الجدير بالذكر أنّ هذا الكتاب يكتب تحت إشراف فريق مشترك

---

(١) ينظر بخصوص هذا الموضوع : مناهج التعليم وخطيئة التبديل : محمد أحمد منصور/ مجلة البيان (لندن) / العدد(١٧٣) / محرم ١٤٢٣هـ/ نيسان ٢٠٠٢م / ص٤٠ .

من الباحثين المتخصصين التابعين لوكالة الاستخبارات وجهاز الموساد الإسرائيلي[(١)].

فالهوية الإسلامية باتت على رأس المطلوب عولمتهم ، أو بالأحرى إلغائهم. ولا نستغرب بعدها عندما نعلم أنّ مذكرة وقع عليها (٣٠) عضواً في الكونغرس الأمريكي ، تقترح - أو بالأصح تفرض - على الدول العربية والإسلامية ، شطب البسملة في المراسلات العامة ، وافتتاح الأعمال الرسمية والمؤتمرات والندوات ، وذلك بإسْم الحرية والديمقراطية والإخاء والإنسانية ونبذ التعصب والتطرف والتعنصر[(٢)].

وتذكر إحصائيات منظمة اليونسكو، أنّ شبكات التلفزيون العربية تستورد ما بين ثلث إجمالي البث كما في (مصر وسوريا) ونصف هذا الإجمالي كما في (تونس والجزائر). أمّا في لبنان فإن البرامج الأجنبية تزيد على ذلك ، حيث تصل النسبة إلى (٥٨%) من إجمالي البث و(٩٦%) من مجموع البرامج الثقافية. ولاشك أنّ هذه الأوضاع تثير مخاوف الكثير في منطقتنا العربية والإسلامية ، باعتبارها تهدد الهوية الثقافية التي هي حقّ من حقوق الإنسان[(٣)].

---

(١) ينظر: الفرقان الأمريكي بديلاً عن القرآن : مصطفى بكري / صحيفة الأسبوع المصرية / العدد(٣٧٣) / السنة(٨) / ٣-٥-٢٠٠٤م / من على موقع الصحيفة على الشبكة: www.elosboa.com

(٢) ينظر: الحرب العالمية الأولى الحقيقة .. الاستعمار الجديد : أيوب المزين / صحيفة الحوار المتمدن / العدد(٨٥٥) / ٥-٦-٢٠٠٤م / من على موقع الصحيفة على الشبكة : www.rezgar.com

(٣) ينظر: حقوق الإنسان في عصر العولمة .. رؤية عربية : محمد فائق / برلين /٢٤-٥-٢٠٠٠م / من على الموقع على الشبكة: www.ibn.rushd.org

وقد بلغت المسافة التي اصطفت عليها السيارات في مدينة الكويت ، عند افتتاح أول فرع لماكدونالد عام ١٩٩٤م ، (١٠) كيلومترات[١].

ومن التأثيرات الخطيرة للعولمة الثقافية على الهوية الإسلامية وخصوصيات المسلمين ، ما يتعلق بموضوع الأُسرة - والمقصود بها هنا تلك المؤسسة الاجتماعية الصغيرة بأبسط حالاتها والمؤلفة من الأب والأم والأولاد - وأيضاً قضية المرأة ، وقضية الطفل ، وموضوع حقوق الإنسان الفرد .

الأسرة الإسلامية تلك المؤسسة الاجتماعية الرصينة والقلعة الحصينة والميزة البارزة والعلامة المضيئة للمجتمعات الإسلامية ، كونها المجتمعات الوحيدة التي ما زالت لحد الآن محافظة على تماسك الأسرة وتآلفها وثباتها ، وأنها ما زالت هي هي لم يطرأ عليها أي تغيير. ولهذا السبب يستقتل الغرب من أجل أن يقنع المسلمين حتى يُقدِّموا التنازلات ويفسحوا المجال لاختراق نظام الأسرة المسلمة ومكوناتها ومفاهيمها ومبادئها وقوانينها بداعي التقدم والتطور. وهذا أن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أهمية وخطورة موضوع الأسرة وأنّها تمثل السور الواقي لحماية الأجيال المسلمة ، والرمز العظيم من رموز الهوية الإسلامية .

ولكن في زمن العولمة الثقافية ، لم يَعُد الإقناع كافياً ، وإنّما لجأ الغرب إلى أساليب أخرى وهي القسر والإكراه ولو عبر الطرق القانونية والرسمية ، أو عن طريق وسائل الإعلام من خلال تزييف الحقائق وخلط الأوراق على الناس . كل ذلك من أجل أن يتخلى المسلمون عن نظام ومفهوم الأسرة لديهم ويتبنوا نظام ومفهوم الأسرة الغربية. ذلك أنّ المؤسسة الأسرية الغربية الآن قائمة على المفهوم الغربي لـ (الحق الفردي) كفلسفة تؤمن بها وتطبقها عملياً، وهذه الفلسفة تؤمن

---

(١) ينظر: العولمة وأثرها على المجتمعات في الأرض : عصام خوري / من على الموقع: www.bredband.net

بحق الإنسان في تغيير دينه وهويته الجنسية ، وحقّ المرأة والفتاة في التمتع بحرية جنسية آمنة مع من تشاء . فضلاً عن تحول ملحوظ في النسيج القيمي للأسرة في الغرب ، من تلك الأسرة الصغيرة بمعناها البسيط التقليدي إلى الأسرة الناشئة بالاختيار الحُرّ، والإرادة الحرة، كالأسرة المثلية (أنثى/ أنثى- ذكر/ ذكر) على سبيل المثال وهذه الأسرة !؟ أصبحت معترفاً بها رسمياً بل ومقبولة اجتماعياً في بعض الدول الغربية وأصبح لها منظمات وجمعيات خاصة بها تدافع عن حقوقها، وتنشر أفكارها بل ولها كنائس خاصة بها أيضاً !؟.

ويريد العالم الغربي تعميم هذه الأفكار والثقافات والسلوكيات ، على العالم أجمع ، بل ويجبره على ذلك من خلال الضغوطات الاقتصادية والسياسية ، وأيضاً من خلال الضغط القانوني ! ذلك إنّ العالم الغربي وبالأخص الولايات المتحدة الأمريكية ، قد سخرت المؤسسات الدولية وعلى رأسها منظمة الأمم المتحدة، لعقد المؤتمرات العالمية التي تبشر بهذه الأفكار والرؤى، تحت إشرافها وباسمها، وفرض مقررات هذه المؤتمرات على الدول التي توقعها، وإنزال العقوبات الاقتصادية والسياسية بمن يخالف هذه المقررات أو يحيد عنها أو يتنصل منها..

ومن أشهر تلك المؤتمرات العالمية : مؤتمر السكان في القاهرة عام ١٩٩٤م، ومؤتمر المرأة في بكين عام ١٩٩٥م ، ومؤتمر السكان والتنمية في اسطنبول عام ١٩٩٦م . ومن هنا كانت اتفاقيات حقوق الإنسان وحقوق المرأة والقضاء على جميع أشكال التمييز ضدها، وحقوق الطفل . وهي اتفاقيات في ظاهرها وعناوينها توحي بالعدل والرحمة والإنسانية ، ولكن في باطنها الشقاء

والتعاسة والخراب والفساد . والشيء الذي لا نقاش فيه أنّ الشعوب الإسلامية ، وبالأخص الشعوب العربية هي المستهدف الأول من هذه القرارات والمؤتمرات[(١)].

والغريب أنّه في مؤتمر القاهرة نفسه ، صرّحت رئيسة جمعية الأمهات الصغيرات ، في كلمتها داخل المؤتمر، مُحذِرةً المسلمين من هذه الدعوات والمخططات: « لقد دمروا المجتمع الأمريكي ، وجاؤا الآن بأفكارهم للمجتمعات الإسلامية حتى يدمروها ويدمروا المرأة المسلمة ودورها فيه »[(٢)].

ولكن ورغم كل هذا نقول ، بأنّ الخطر لا يقاس فقط بمدى قوة المهاجِم أو الغازي وقدراته وإمكانياته ، وإنّما يقاس أيضاً بمدى استعداد وقوة المهاجَم أو المغزو وقدراته وإمكانياته . فكلما كانت قابلية المغزو للدفاع عن نفسه ضعيفة ، وإمكانياته هزيلة ، والأهم من هذا ، كلما كان اقتناعه بحقه وتمسكه به واعتزازه بشخصه وبما يمثله ويتبناه ضعيفاً ، فإنّ هذا يعطي مؤشراً واضحاً وكبيراً على عِظم الحظر وقوة المهاجِم أو الغازي .

---

(١) ينظر بخصوص هذا الموضوع : وثيقة مؤتمر السكان والتنمية – رؤية شرعية : الحسيني سليمان جاد / سلسلة كتاب الأمة / قطر / جمادى الأولى ١٤١٧ هـ / من على الموقع الخاص بكتاب الأمة على الشبكة : www.islamweb.net

وأيضاً : الأسرة بين الحداثة الغربية والرؤية الإسلامية : معتز الخطيب / ٦-١١-٢٠٠٢م / من على الموقع: www.islamonline.net

وينظر أيضاً : التكاثر البشري بعد مؤتمر القاهرة : نبيل شبيب / مجلة قضايا دولية /العدد(٢٤٩)/السنة(٥)/ ٥ جمادى الأولى١٤١٥هـ / ١٠ أكتوبر١٩٩٤م / ص٢٢-٢٥.

(٢) سقوط الحضارة الغربية : رؤية من الداخل : احمد منصور/ دار القلم / دمشق / ط(١) / ١٩٩٨م / نقلاً عن : العولمة من المنظور الإسلامي / محسن عبد الحميد / مصدر سابق / ص٢٧ .

ولقد صَدَقَ أحد الباحثين المسلمين عندما قال: « والخطر لا يكمن في العولمة ذاتها، بقدر ما يكمن في سلبية المتلقي ، وفي التوظيف الإيديولوجي للعولمة، ونجاح العولمة في الهيمنة والاختراق والتأثير لا يتعلق بإمكانيات وقدرات الدول المتقدمة الفاعلة المصدرة للعولمة ، بقدر ما يتعلق بقوة وضعف الدول الأخرى المتلقية »[1].

المبحث الثالث

حتمية الصدام بين العولمة الثقافية والهوية الإسلامية

بعد أن تكونت لدينا صورة واضحة عن نشأة العولمة ، والظروف التي ظهرت وبرزت فيها، ووصلنا إلى قناعة حول مفهوم العولمة ، والمقصود بالعولمة الثقافية ، وعرفنا سعيها للهيمنة على ثقافات العالم وإلغاء هويات الشعوب والأمم ، وتكوين ثقافة عالمية واحدة هي بالذات الثقافة الأمريكية.

وبعد أن تبين لنا مدى عالمية الهوية الإسلامية ، وأنّ العولمة الثقافية لا تعدو كونها أمركة ، وعرفنا الفرق الهائل والتناقض الكبير بين مصطلحي العالمية والعولمة ، وأيضاً تبلورت لدينا رؤية حول حقيقة ومدى قدرة العولمة الثقافية على التأثير في الهوية الإسلامية.

فمن الطبيعي بعد كل هذه المعلومات والقناعات ، أن ننتهي إلى أنّ العلاقة بين العولمة الثقافية والهوية الإسلامية ، هي علاقة صراع وصدام .

---

(١) مستقبل العولمة بين منظورين : مجلة المستقبل العربي / ص٢١ / نقلاً عن : العولمة من المنظور الإسلامي : محسن عبد الحميد / مصدر سابق / ص٣٦ .

ولكن لابد من أن نقدم مبررات أكثر وحججاً أقوى لأنّ هناك بعض المعارضين لهذا الموضوع، وأيضاً لتوضيح ما الذي نقصده بالصراع أو الصدام .

يتساءل أحد الباحثين فيقول: « في بداية المعرفة كان السؤال، وكان سؤال الهوية : من أنا؟ وما علة وجودي؟ وما غايته؟ ومن هو الآخر؟ وما الذي يميزني عنه، ويربطني به؟ ولكم نخطي عندما نحصر سؤال الهوية في صيغة: من نحن؟ ومن هو الآخر؟ ولا ننقله إلى صيغة: كيف نحن؟ وكيف هو الآخر؟ والسؤال في الصيغتين هو سؤال الهوية! ولكن الصيغة الأولى تدعو إلى التأمل وإعمال الفكر، والثانية تدعو إلى العمل »[1].

إنّ مثل هذا التساؤل يحمل في ظاهره من الصواب ما يحمله ، ولكن في جوهره فيه مغالطة منطقية !؟ ذلك أنني لا أستطيع أن أتجاوز سؤال الأنا وتحقيقها وإثباتها ، إلى سؤال الكيف . فمعروف ومعلوم أنّ الآخر الآن يمر بأرقى مراحل حياته وتأريخه من التقدم والتطور، وإنّ من الناحية المادية دون الروحية . وأنّ الأنا تمر بمرحلة تأخر وتخلف في الناحيتين – إلى حد ما – .

فان تجاوزتُ سؤال الأنا إلى الكيف في هذه الظروف ، فكأنني ألغي هذه الأنا، فلا يعود لها وجود ، لأنّها تكون عندئذ قد انصهرت وذابت في الآخر، وخاصة وأنّ الهوية الإسلامية تعاني من أزمات ومشاكل ، ليس في ذاتها ، أبداً ، وإنّما المشكلة هي في أصحابها وحامليها والمنتمين والمنتسبين إليها ، المشكلة في تمسكهم بها واعتزازهم بحملها ، وافتخارهم بإظهارها على الملأ، وتبنّيهم لها والتسمي بِاسمها.

---

(١) الانتماء القومي وإشكالية الهوية : جاد الكريم الجباعي / من على الموقع على الشبكة: wwww.alfikralarabi.com

والحقيقة أنّ هناك حملة قوية على سؤال الهوية عموماً ، والهوية الإسلامية خصوصاً بصفتها اللاعب الأقوى على الساحة العربية اليوم. وهذه الحملة ليست من الآخر فقط ، وإنّما تأتينا ممن هم من جلدتنا وممن يتكلمون بألسننا !؟ من أولئك المبهورين بالآخر المفتونين به ، وهم أنفسهم هم دعاة العولمة وما يسمى بـ – الثقافة العالمية أو الهوية العالمية –[1].

حيث يدعو أولئك إلى نبذ الحديث عن الأنا والآخر وترك الحديث عن الهوية والخصوصية والأصالة لأنّ كل حديث عن هذه المسائل – حسب رأيهم – هو حديث عن الماضي ، عن التعصب ، عن العنصرية ..

وصاروا يشنون حملات على كل من يتكلم أو يكتب عن هذه المواضيع ، ويصفونه بالجمود ، والتطرف ، والتأخر الفكري والحضاري ، « وأصبح كل من يدافع عن الخصوصية والأصالة والهوية الثقافية والاستقلال الحضاري رجعياً، إظلامياً، أصولياً، إرهابياً، متخلفاً، ماضوياً، سلفياً، بترولياً، خليجياً، مع أنّ الدفاع عن العولمة يأتي من الخليج وأموال النفط التي تساهم في اقتصاد السوق وشراء أسهم الشركات الأجنبية »[2].

---

(١) ويصفهم الشيخ القرضاوي بـ (غلاة دعاة التغريب) وبـ (دعاة التطبيع) في عالمنا العربي الإسلامي ينظر: المسلمون والعولمة : يوسف القرضاوي / ص١٣١ / مصدر سابق.

(٢) الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية : الإشكال النظري : حسن حنفي / مجلة الفكر السياسي / العددان(٤-٥) / السنة(٢) / شتاء ١٩٩٨-١٩٩٩ / من على موقع المجلة على الشبكة: www.awu-dam.org

ومن هؤلاء نذكر منهم ، علي حرب الذي يرى : « إنّ الإنسان يتعـولم الآن بطريقة تتحول معها الهوية إلى أسطورة »[1]. ويقول أيضاً: « أنّه لا خوف من أن تسيطر لغة واحدة على سائر اللغات ، فالحياة تولـد بالشبيه ، كما تولـد بالمختلف »[2].

ويقول باحث آخر: « أتعجب من بعض اليساريين وهم يحذرون من خطـر العولمة على الهويات، فإذا كان للعولمة من فضائل إيجابية ، يكون أولها: إضعافها التام لمفهوم الهوية »[3].

ويزداد بنا العجب عندما نعلم أننا الأمّة الوحيدة التي ينادي فئة من مفكريهـا لها وزنها ومكانتها الرسمية على الساحة الفكرية ، بأن تتخلى الأمّة عـن هويتهـا وتميزها وخصوصيتها وأن تسعى إلى الاندماج بالآخر، وتحت مبررات وأسـباب شتى .

تأتي مثل هذه الدعوات في زمن تتسابق فيه شعوب وأمم وحضارات العـالم في المحافظة على هويتها وخصوصيتها وتميزها، لا يستثنى من ذلك أحد !.

وإذا أردنا أن نضرب أمثلة على مدى تمسك الآخر بهويتـه وخـصوصيته وتميزه ومدى اعتزازه وتشبثه بها لطال بنا المقام ، غير أننا سنكتفي بالقليل من هذه الأمثلة .

---

(١) حديث النهايات : فتوحات العولمة ومستقبل العالم : علي حرب / نقلاً عـن : بـين رفـض العولمة وقبولها : محاولة لتفكيك خطاب علي حرب المعولم / عبدالله العلي العليان / صحيفة الخليج / ١-١١-٢٠٠٤م / من على موقع الصحيفة على الشبكة : www.alkhaleej.ae

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تعليق على رؤية مجموعة يسارية : عـلاء كمـال / مـن علـى الموقـع علـى الـشبكة: www.geocities.com

فالخوف على الهوية وعلى عادات وتقاليد وقيم شعبه هي التي جعلت وزير الإعلام والفنون في سنغافورة ، يصدر قراراً يمنع المغنية الأمريكية (مادونا) من إقامة حفل لها في بلده[1].

ومن نفس المنطلق أيضاً رابط السكان ، في إحدى القرى الصغيرة بمقاطعة (ساري) الإنكليزية، أمام إحدى البنايات على مدى (٥٥٢) يوماً متواصلة لمنع إحدى الشركات الأمريكية من إقامة فرع لمطاعمها (ماكدونالدز) باحتساب أنّ ذلك نوع من الاختراق والعدوان على نمط الغذاء المحلي ، وبالتالي اعتداء على خصوصيتهم وهويتهم . فاضطرت الشركة بعد هذه المقاومة العنيدة إلى التراجع و الانسحاب و إلغاء العقد[2].

أما حامل لواء مقاومة العولمة (الأمركة) الأكبر وهما فرنسا و ألمانيا ، البلدان اللذان بدءا يتحسسان جداً من السعي الأمريكي الدؤوب لأمركة العالم و على الأخص في المجال الثقافي ، مما حدا بالفرنسيين – و على أعلى المستويات – إلى إطلاق مشروع (الاستثناء الثقافي)[3] لمواجهة الهيمنة الثقافية الأمريكية . منطلقين من تحذير قديم للفيلسوف الفرنسي سيمون وايل الذي توفي عام ١٩٤٣م، حيث

---

(١) ينظر: صحيفة الأهرام : ٢٩-١٢-١٩٩٣م / ص٢٨ / نقلاً عن : العرب والعولمة : مشكلات الحاضر وتحديات المستقبل / مهيوب غالب أحمد / مصدر سابق / ص٦٦ .

(٢) ينظر: قاطعوهم ما استطعتم : فهمي هويدي / صحيفة الأهرام / الثلاثاء ١٨- شعبان-١٤٢١ هـ / ١٤- نوفمبر-٢٠٠٠م / السنة(١٢٤) / العدد(٤١٦١٦) / من على موقع الصحيفة على الشبكة : www.ahram.org

(٣) ينظر بخصوص هذا الموضوع : الخصوصيات الحضارية وعالمية حقوق الإنسان : هيثم مناع / مصدر سابق .

قال: « نَعرف جيداً أنّ أمركة أوربا بعد الحرب ستقود بلا شك إلى أمركة الكرة الأرضية كلها... وستفقد الإنسانية ماضيها »[١].

ومنطلقين أيضاً من قناعة تامة – كشعب و كحكومة – بصدق كلمة رئيسهم السابق فرانسوا ميتران عندما قال: « إنّ من يفقد ثقافته وهويته يفقد سيادته واستقلاله »[٢].

وقد نشط تفاعل الرفض الأوربي لمنطق الهيمنة الأمريكي ، في سبيل المحافظة على الهوية و الخصوصية الأوربية ، نلحظ هذا في كلمة للرئيس الألماني غيرهارد شرويدر في ٢٠٠١/٩/٥م ، حيث تعهد فيها بالحفاظ على نظام الرفاه الاجتماعي الأوربي، ذلك النظام الذي أعطى أوربا مجموعة مختلفة من القيم المدنية مقارنة بالولايات المتحدة الأمريكية[٣]، حيث جاء في كلمته : « إنّ أوربا وحدها

---

(١) مسار الافتراق الأوربي عن الولايات المتحدة : خير الدين عبد الرحمن / مجلة الفكر السياسي من على موقع المجلة على الشبكة :.www.dwu-dam.org / العدد(١٦) / ربيع – صيف ٢٠٠٢م .

(٢) ثالوث العولمة القاهر : العسكرة و الاقتصاد و الثقافة .. العولمة و ثقافة تحميها : منير شفيق / مصدر سابق .

(٣) الحقيقة إنّ الصراع الذي تشهده دول الشمال الصناعية حول مسألة العولمة والطريقة التي ينبغي التعامل بها معها يعكس الصراع التاريخي بين نموذجين للرأسمالية ، ساد احديهما في الولايات المتحدة الأمريكية بشكل رئيسي ، والثاني في أوربا الغربية وقد بقيت الرأسمالية الأمريكية حتى بعد الأزمة الكبرى لعام ١٩٢٩م ، والتي شهدت انهياراً اقتصاديا عاماً، وبقيت تميل إلى عد السوق الحرة النموذج الأمثل للإدارة الاقتصادية والسياسية السليمة. أمّا القيود التي تفرضها لأسباب سياسية واجتماعية فهي بالضرورة قيود مؤقتة وظرفية. فالرهان الرئيسي هنا هو على حركية رؤوس الأموال والمبادرة الفردية والمغامرة التجارية ، ولا يتعدى دور الدولة تأمين شروط استمرار المنافسة الحرة بين الرأسماليين . وذلك بمنع الاحتكار أو إغراق السوق المؤدي إلى الاحتكار .=

هي التي تمثل التوازن الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والبيئي ، إنّ أوربا ليست مصطلحاً جغرافياً ، وإنّما تمثل ثقافة نوعية وأسلوب حياة ومجتمع يتقاسم ثرواته من القوة السياسية بين كل مواطنيه.. إنّها النموذج الذي لازال حتى في عصر العولمة ، يقدم أفضل فرص التنمية.. إنّ عدم قبول المجتمع الأوربي للاختلافات الشاسعة في الدخول الشخصية والعزلة الاجتماعية إنجاز كبير.. و بالتالي لن يكون هناك أمركة للمجتمع بالنسبة لي »[١].

ولكن الأعجب من ذلك كله أنّ الولايات المتحدة الأمريكية، مهد العولمة وداعيتها و المبشرة بها، هي من أكثر دول العالم على الإطلاق، التي تعيش هاجس الهوية، كما يعبر عن ذلك الجابري ، فيقول: « لقد زرت هذا البلد قبل سنتين في إطار ما يسمى بـ(الحوار الأمريكي العربي) كنت واحداً من أعضاء وفد عربي يمثل الأقطار العربية ، كانت لنا اتصالات ومحادثات واسعة وغنية بجهات مختلفة

= أما الرأسمالية الأوربية فهي- رأسمالية محلية - و المنافسة فيها تدور داخل إطار أسواق وطنية محدودة ، تميل إلى مبدأ التسوية الاجتماعية ، بحيث تضمن الحد الأدنى من حرية ورفاه الطبقات الشعبية العمالية ، وتحول دون التسريح التعسفي للعمال .

وعليه فأنّ الولايات المتحدة تعمل على ربط العولمة ببناء سوق حرة تخضع لقانون واحد هو قانون المنافسة الحرة ، حيث تتبنى هذه السوق المبادئ النيوليبرالية التي تنص على تحرير التجارة العالمية ، و هدم الحدود الجمركية و تخصيص جميع المؤسسات و المشاريع الاقتصادية و انسحاب الدولة من العديد من ميادين النشاط العمومي و تركها للقطاع الخاص . و في ظل هذه القوانين ، وهذا ما ترفضه الدول الأوربية .

ينظر: رهانات العولمة: برهان غليون / نوفمبر ١٩٩٩م / بتصرف / من على الموقع على الشبكة: www. Mafhoum.com

(١) مسار الافتراق الأوربي عن الولايات المتحدة الأمريكية : خيرالدين عبدالرحمن / مصدر سابق .

جامعية وغير جامعية، من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي، و من سياتل شمالاً إلى الحدود مع المكسيك جنوباً ، وقد لاحظت في جميع هذه المناطق أنّ لفظ (التراث) يثير عندهم شجوناً، وإنّ كثيراً منهم إن لم يكونوا جميعهم مسكونين بهاجس إبراز شيء اسمه (التراث الأمريكي)... وإنّ الأماكن التي نصّ البرنامج على زيارتها لم تكن التي تتجلى فيها الحداثة الأمريكية ، بل لقد انصرف اهتمام واضعوا برنامج الزيارة إلى التنقل بنا عبر الأشياء التي لها طابع تاريخي تراثي... هذا النوع من الهوس بالبحث عن الجذور هو مظهر عام من مظاهر الحياة في الولايات المتحدة الأمريكية ، زعيمة إيديولوجية العولمة »(١).

فهل الحفاظ على الهوية والخصوصية حرام علينا حلال لغيرنا. وهل إذا تكلم أحد من العرب والمسلمين عن مواضيع الهوية والخصوصية يكون رجعياً عنصرياً متزمتاً ، وإذا تحدث الغربي والشرقي عن هويته وخصوصيته يُعّد حضارياً تقدميا. نعم و نعم بكل بساطة هكذا هو الحال عندنا أو بتعبير أصح عند أصحاب الأقلام المأجورة و العقول المتغربنة .

إنّ هذه الحماسة عند الشرقيين وعند الغربيين – على وجه الخصوص– في إبراز قيمة الهوية والثقافة والخصوصية الحضارية، وإن لم تكن أمراً جديداً عليهم إلاّ أنّ التحمس لها ازداد إلى حدّ بعيد في الفترة الأخيرة ، وما ذلك إلاّ لإدراكهم ما للهوية و للدين والثقافة والتراث والخصوصية من خطورة ومكانة لدى الشعوب، ومالها من قدرات وتأثيرات هائلة في تهييج النفوس وإثارة العواطف والمشاعر والأحاسيس لدى الناس ، وبالتالي لدورها الفاعل في كتابة التأريخ « إنّ الهوية الثقافية هي أكثر الأمور التي لها معنى عند أغلب البشر.. وإنّ الثقافة والهويات

---

(١) العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الإيديولوجي .. العولمة وهاجس الهوية في الغرب : محمد عابد الجابري / مصدر سابق .

والهويات الثقافية. والتي هي على المستوى العام هويات حضارية هي التي تشكل نماذج التماسك والتفسخ والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة »[1].

وبما أنّ الحجة دائماً من منكري الهوية و نابذيها ، أنّها تثير التعصب والتطرف والعنصرية في رؤيتها للآخر وهو ما سبق وتكلمنا عنه وبينّا إنّه لا ينطبق على الهوية الإسلامية فلننظر كيف هي رؤية الآخر وصورته عند غيرنا ، أو بالأحرى كيف هي صورتنا نحن في نظر الآخر ، وهي من الأمور التي قلما يتطرق إليها الباحثون ، وإنّما الحديث دائماً هو عن صورة الآخر عندنا وأنّها سلبية وعدوانية وغير متلائمة مع روح العصر وتطوراته ، وقليلة الاهتمام بالشأن الإنساني ونشر المحبة والتسامح والأخوة بين البشر .

فبما أنّ التعليم هو أخطر وأهم مجال يركز عليه أصحاب الرأي وصناع القرار لغرس القيم والأفكار والتصورات والقناعات لدى الجمهور، فنستعرض نبذة مختصرة لمجموعة من الدراسات تبين صورة العربي المسلم ، أو العروبة والإسلام، في الكتب والمناهج التعليمية المعتمدة في المدارس الأوربية والأمريكية .

فقد أجرت الباحثة (مارلين نصر) بحثاً حول صورة الإسلام والعرب في الكتب المدرسية الفرنسية ، خلصت فيها إلى أنّ « هذه الصورة تبدو سيئة وخاملة ومختلفة ، يتميز دورها بالعداء للآخر على مختلف المستويات ، هذا إلى جانب أنّ هؤلاء العرب بدو الصحراء، أمّا عرب اليوم فغائبون أو على الأصح مغيبون »[2].

---

(١) صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي : صموئيل هنتنغتون / ص٧١-٧٢ / مصدر سابق .

(٢) صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية : مارلين نصر / مركز دراسات الوحدة العربية / بيروت / ١٩٩٥م / نقلاً عن : العالم الإسلامي والتحديات الحضارية / رشيد أبو=

وخلص الباحث (إياد القزاز) من تحليل (٣٦) كتاباً مدرسياً للعلوم الاجتماعية، مقررة على طلبة المدارس الابتدائية في كاليفورنيا إلى « وجود صورة مشوهة للإسلام تَفرُط في تأكيد عدوانيته ، فضلاً عن صورة الرِّق ومركز المرأة المتدني ، كما خلط مؤلفو الكتب المدرسية عمداً بين القرآن و الأحاديث الشريفة وجرى تصوير العرب كشعب بدوي »(١).

ويبرز بحث قيم صدر في مدريد ، وأشرفت عليه (خيما مارتين مونيوس) ، كيف تركز المقررات المدرسية في أسبانيا على نزع الصفة الإلهية عن الدين الإسلامي ، وعدّه مجرد انحراف عن المسيحية ، كما أنّها تختزل ثمانية قرون من الحضور الإسلامي في الأندلس في مجرد صراع بين الملوك الكاثوليك والمسلمين مع تغييب شبه تام لكل ما أنجزه العرب والمسلمون هناك من علوم وفنون وتقاليد وأعراف عم شعاعها أوربا قاطبة(٢).

وجاء في دراسة لكتاب التأريخ المقرر على المناهج الثانوية البريطانية: « إنّ أهم ما يلفت النظر عند تحليل النصوص المُشكِجلة للخطاب التاريخي في هذا الكتاب ، هو الحضور الطاغي لمفهوم (الأنا) الإنكليزي الغربي بمختلف تجلياته

=ثور/ مجلة الكلمة / العدد(٢٢) / السنة(٦) / شتاء ١٩٩٩م / من على موقع المجلة على الشبكة: www.kalema.net

(١) صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية التمهيدية لعلم الاجتماع في الولايات المتحدة الأمريكية : إياد القزاز/ مجلة المستقبل العربي / العدد(٢٧٨) / السنة(٢٤) / نيسان ٢٠٠٢م / ص٤٩-٧١ .

(٢) ينظر: الإسلام والعالم العربي: الدليل التربوي للمكونين والأساتذة: خيما مارتين مونيوس وبكونيا بايي سيمون وماريا انخليس لويس براثا / نقلا عن: العالم الإسلامي والتحديات الحضارية: رشيد أبو ثور/ مصدر سابق .

التاريخية و الثقافية والاجتماعية ، إذ تتمحور معظم النصوص حول تعزيز الذات الإنكليزية ، وتتجاهل الآخر المختلف حتى من داخل السياق الأوربي نفسه ، باستثناء إشارات يسيرة إلى بعض القادة الفرنسيين أو النورمانديين عند الحديث عن الحروب والغزوات التي تمت بينهما إبان العصور الوسطى. ورغم أنّ هناك نصاً كاملاً خاصاً بالحروب الصليبية إلا أنّه لم يُشَر إلى أيّ شكل من أشكال ثقافة الآخر الإسلامي ، و إنّما طفق النص يرسم صورة مثالية أسطورية لقادة الحروب الصليبية وخصوصاً القائد الإنكليزي ريتشارد الأول ، وكيف أنّ شجاعته في مقابل صلاح الدين منحته لقب(قلب الأسد) . وإذا كان النصّ لا يتضمن إشارات صريحة ومباشرة ضدّ الآخر، إلاّ إنّه لا يخلو من إيماءات سلبية لم يقلها النصّ وإنّما أوصى بها، مثل الإشارة إلى أنّ باعث الحروب الصليبية هو رفض المسلمين السماح للمسيحيين بالحج إلى القدس وزيارة المسيح ، كما أنّهم – أيّ المسلمين – قتلوا من لم يستمع إلى تعليماتهم.. »[1].

وهذا الأمر يكاد يكون مشتركاً في المناهج التعليمية في المراحل الدراسية في كل الدول الغربية تقريباً كألمانيا وفنلندا والدنمارك وهولندا وايطاليا[2]. وذلك بُغية تنشئة أبنائهم على كراهية كل ما يَمُتّ إلى الإسلام بصلة ، وبالتالي قطع الطريق أمام أيّ تقارب أو حوار مع المسلمين ، وحدّ أبناء الغرب عن طريق الإسلام .

---

(١) كتاب التاريخ في المنهج البريطاني– المرحلة الثانوية : محاولة في تحليل الخطاب التاريخي: عبد المحسن بن سالم العقيلي / ٢٨-٥-٢٠٠٣م / من على الموقع على الشكة: www.lahaonline.com

(٢) ينظر : العالم الإسلامي والتحديات الحضارية : رشيد أبو ثور/ مصدر سابق .

فالشرق (أيّ الإسلام) كان دائماً يدل على الخطر والتهديد في العقلية والنفسية الغربية، ما حدا بـ(ادوارد سعيد) ناقد الاستشراق المعروف إلى أن يُعمِّم بقوله : « لم أجد في تأريخ الفكر والفلسفة الغربية ، منذ العصر الوسيط وحتى أشبنغلر، مفكراً أقدَمَ على التعامل مع الإسلام خارج الأطر المشوهة الموروثة المرتكزة على عوامل التحامل والضغينة والخوف من طاقات المسلمين الكامنة »[١].

وهناك مجالات أخرى لا تقِّل خطورة وأهمية عن مجال التعليم ، في غرس القيم والأفكار والتصورات والقناعات لدى الرأي العام ، و نستطيع من خلال هذه المجالات الوصول إلى صورة العرب و الإسلام و المسلمين عند الآخر. ومن أهم هذه المجالات المجال الروائي والمجال السينمائي .

ففي مجال الرواية الشعبية ، قام الباحث (أنس الشيخ علي) ، بدراسة (٣٠٠) رواية شعبية ، ولاحظ أنّ التوجه المعادي للإسلام في هذه الروايات بدأ بالتزايد بشكل كبير، كمّاً ونوعاً، منذ مطلع السبعينات، ويحتل (الإسلاميون) في هذه الروايات موقع المجرمين والأشرار، الذين يحاول أبطال مكتب التحقيقات الفدرالي الأمريكي، أو غيرهم من الأبطال الآخرين أن ينقذوا العالم من (مؤامراتهم الشيطانية)[٢].

---

(١) – Edward W.Said-Covering Islam : how the Media And Experts Determine How We See The Rest Of The World (N.Y:Pantheon Book , ١٩٨١) PP .١٢ -٣٠

/ نقلاً عن : تحيز الغرب لتصوراته في قراءة عالم الإسلام : محمد الدعمي / مجلة الكلمة / العدد(٢٣) / السنة(٦) / ربيع ١٩٩٩م / من على موقع المجلة على الشبكة : www. kalema.net

(٢) ينظر: العالم الإسلامي والتحديات الحضارية : رشيد أبو ثور/ مصدر سابق .

أمّا في المجال السينمائي،الذي يُعّد بحقّ العامل الأبرز الذي تعتمد عليه الآلة السياسية الأمريكية،في إقناع شعبها وتهيئته نفسياً لتقبُل القضايا التي يسعون إليهـا، حيث يرسمون لهم من خلال السينما والتلفزيون الصورة التي يريدونها أن تتـشكل في وعيهم، عن أي شيء يرغبونه ..

ففي الأفلام السينمائية القديمة والحديثة على السواء ، يُصَوَّر العربي المـسلم على أنّه مخلوق بعيد عن الحضارة ، متشرد ، لا تحكمـه الـضوابط الأخلاقيـة ، وبخاصة في الاتصالات الجنسية، وفي الأفلام الحديثة وخاصة في الثمانينات ، وما بعدها، يُصَّوَر العربي كإنسان همجي، ومن النادر أن تسمع اعتراضاً علـى هـذا التصوير من المشاهدين ، أو من الصحف، لأنّ هذا الأمر أصبح مألوفاً وسائداً ، بل ومقبولاً ومستمرئاً[(١)].

جاء في كتاب للبروفيسور دوغلاس كيلز ومايكل رايـان: « إنّ التـصوير العنصري للعرب، بأنّهم جماعة من الأثرياء الجشعين في أفلام المـؤامرات التـي يشركون فيها العرب، يُشعِر المشاهد كأنّ العرب هم الملومون عن كـل المـشاكل الاقتصادية في هذا العصر. وفي العديد من الأفلام السياسية المثيرة، يُصَوِر العرب على أنّهم جماعات من الإرهابيين المتعصبين الذين يقتلون ضحاياهم بـدم بـارد، وأنّهم يفتقرون إلى المشاعر الإنسانية، وهكذا أصبح العرب يُمثِلون دور الأوغاد في أفلام هوليود »[(٢)].

---

(١) ينظر : العربي كما تراه هوليود : جاك شاهين / مجلة العربي / العدد(٣٥٣) / نيسان ١٩٨٨م / ص١٠٤-١١٢ .

(٢) آلة التصوير السياسية : دوغلاس كيلز و مايكل رايان / نقلاً عن : العربي كما تراه هوليود / جاك شاهين / ص١٠٦ / و ينظر أيضاً بخصوص هذا الموضوع : الـضوء الكـاذب فـي السينما الأمريكية : قاسم عبدالأمير عجام / سلسلة الموسوعة الصغيرة / العـدد(٤٤٥) /=

بل وأكثر من هذا، أصبحت صورة العربي المسلم ، البربري، الهمجي، الذي يقتل ويضرب دون رحمة، الفاحش الثراء الذي يظن أنّه يستطيع أن يشتري كل شيء ، وأيّ شيء بأمواله. أصبحت هذه الصورة تُقحِم نفسها في العديد من المشاهد والقضايا التي تعالجها تلك الأفلام ، والتي لا علاقة للعرب المسلمين بها لا من قريب ولا من بعيد .

يقول محمد شومان : « لم يكن اختيار العرب والمسلمين والعروبة والإسلام كأعداء ووصفهم بالإرهاب، مجرد اختيار عشوائي، أو امتداد لعداء قديم ولمصالح وصراع قائم، لكنه اختيار له ما يبرره في هذه المرحلة التاريخية. فما يخشاه الغرب هو أن يصبح عدواً لنفسه – كما استنتج ذلك دارفين كريستول – في غياب منافس من ندّه ،ومشكلة اندثار الأنموذج الحضاري المنافس هو الإشكال الوحيد الذي يواجه الغرب اليوم ، ولهذا يجد الغرب نفسه مضطراً إلى إيجاد عدو جديد ، فاختار الإسلام الراديكالي »(١).

ولو توقف الموضوع هذا الحد لهان الأمر، ولكن المشكلة بالنسبة للغربيين كما صرّح بذلك صموئيل هنتغتون: « ليست الإسلاميين المتطرفين و إنّما الإسلام كله »(٢).

=دار الشؤون الثقافية / بغداد / ٢٠٠١م / وأيضاً : هوليود في خدمة البيت الأبيض : نجدت لاظة /٢٠-٩-٢٠٠٣م / من على موقع رابطة أدباء الشام على الشبكة : www.odabasham.org

(١) اللحظة الفلسفية في فهم التحولات العالمية : حمادي الرديسي/ نقلاً عن : العالم الإسلامي والتحديات الحضارية / رشيد أبو ثور/ مصدر سابق .

(٢) صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي: صموئيل هنتنغتون / ص٣٨٣ / مصدر سابق .

لقد أعطى العصر الحديث للتمركز الغربي دفعاً متزايداً ، في خِضَمّ الانتشار الطاغي لظاهرة العولمة المدعمة بعناصر التفوق المادي ، مما أسهَمَ وبشكل فاعل في ترسيخ فكرة المركزية في العقل الغربي ، « ففي كل مرة ينهض فيها طرف من الأطراف بمجالنا العربي الإسلامي– بالذات – للإعلان عن اختلافه وصدّه لهذا الانتشار ، ويعبر عن رغبته في تحصين هويته ، والسيادة على مقوماته . وينتصب في اللاوعي الغربي ، كل الصور السلبية التي نسجتها المُخيَلة الأوربية عن الإنسان العربي المسلم ، الأمر الذي يفسر لنا سِرّ الهواجس اليومية لدول الشمال واستنفارها الضدي لدول الجنوب »[١].

ويمكن الإشارة هنا إلى الوثيقة المسماة (الإستراتيجية المشتركة للإتحاد الأوربي في المتوسط) والتي أصدرها مؤتمر الاتحاد الأوربي في يوليو سنة (٢٠٠٠) وتشير الوثيقة صراحة إلى سعي الاتحاد إلى تغيير بعض القيم الدينية في الدول العربية المطِّلة على البحر المتوسط بحيث تتوافق مع القيم الأوربية[٢].

وأيضاً تصريح رئيس البرلمان الأوربي في المنتدى الاقتصادي الدولي في دافوس ، في يناير ٢٠٠٣ م بأنّ بـــ « مشكلة ضم تركيا إلى الاتحاد الأوربي ليست مشكلة سياسية ، بل هي مشكلة قيم »[٣].

---

(١) نحن و الغرب : قراءة في التمركز الأوربي وتجلياته في المجال العربي والإسلامي/علي القريشي/ مجلة المستقبل العربي/ العدد(١٩٦) / ١٩٩٥م / ص١٤٧ / نقلاً عن : العالم الإسلامي وتحديات العولمة : الحسين عصمة / مجلة الكلمة / العدد(١٩) / السنة(٥) / ربيع ١٩٩٨م / من على موقع المجلة على الشبكة : www.kalema.net

(٢) ينظر:الاستراتيجيات المفاهيمية للعولمة وبدائلها..آثار العولمة على العالم الإسلامي: محمد السيد سليم /٣٠-٣-٢٠٠٣م / من على الموقع على الشبكة : www. islamonline.net

(٣) المصدر نفسه

إذن فيما أنّه أصبح من الواضح لدينا أنّ العولمة الثقافية تسعى إلى فرض نموذج الحياة الأمريكية على شعوب العالم ، وأنّ الوصول إلى ذلك لا يتسنى إلاّ بتحطيم كل الثقافات والهويات التي تقف عائقاً في طريقها.

وأنّ الهوية الإسلامية من ميزاتها أنّها هوية عالمية ، وأنّها تحمل من المقومات والميزات والإمكانيات والقدرات ما تستطيع به مواجهة هذه العولمة والتصدي لها والوقوف بوجهها، وأنّ الاستسلام والخضوع أو الانصهار والذوبان ليس وارداً عندها. فشيء طبيعي بعد كل ما ذكر، أن تكون العلاقة بين الهوية الإسلامية والعولمة الثقافية علاقة صِدام وصراع .

ولكننا عندما نتكلم عن الصِدام أو الصراع هنا فهذا لا يعني بالضرورة المعنى الذي تكلَم عنه (صاموئيل هنتنغتون) وهو مواجهة الآخر والقضاء عليه وإزالته. و إنّما المقصود من الصِدام هنا هو استجماع القوى المادية والمعنوية ، لمواجهة هذه العولمة ، وهذا يجرنا إلى الحديث عن الموقف من العولمة ، لكي يتضح بصورة أفضل مقصودنا من الصِدام .

الموقف الأول : وهو الاندماج فيها بحلوِها ومُرِّها وقبول المنافسة – إن كانت هناك منافسة حقاً – والرضا بالركوب في قطار العولمة كعبيد وخدم . وهو الموقف الذي نرفضه بطبيعة الحال .

والموقف الثاني : الرافض لها الممتنع عن الدخول والمشاركة فيها، وتبني آرائها ومفاهيمها ومبادئها، الداعي إلى الانعزال والانكفاء على الذات والعودة إلى الماضي. وهذا الموقف مرفوض أيضاً، لأنّه غير مقبول وغير منطقي، ولا يتلاءم ومستجدات العصر، بل أنّه بعيد حتى عن منهجية الفكر الإسلامي السليم ، فإذا كان الموقف الأول مقامرة خاسرة فإنّ الثاني انتحار.

بقي هناك **الموقف الثالث** : وهو مذهب الأغلبية من الباحثين والمفكرين العرب والمسلمين، والذي ينُصّ على القبول والأخذ بما في العولمة من المنافع والايجابيات ، ورفض وترك ما فيها من المساوئ والسلبيات .

وبرأي الباحث فإنّ هذا الموقف هو من أسوأ المواقف وأكثرها بعداً عن الصواب . ذلك أنّ أصحاب هذا المذهب فاتتهم حقيقة أنّهم لم يعودوا يعيشون في زمن الغزو الثقافي المكتوب ، وبالتالي فإنّ مسألة قبول أو رفض الأفكار والمفاهيم والمبادئ لم تَعُد قائمة . إننا نعيش الآن في زمن ثقافة الصورة والمعلومة والآليات التي تنتقل وتنتشر فيها هذه الثقافة ، والتي أصبح انتشارها بين الناس على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم من الممكن بحيث يستحيل أن نحد من انتشار هذه الأفكار والمفاهيم والثقافات وأن نقبل أو نرفض منها ما نشاء .

وإنّ القول بأن نأخذ من العولمة آلياتها ونرفض إيديولوجياتها ، هو قول مجانب للصواب ، لأنّ إيديولوجية العولمة وثقافة العولمة ومفاهيمها إنّما تنتقل عبر هذه الآليات ، والأشخاص الذين يملكون أو يستخدمون آليات العولمة هم المرشح الأكثر احتمالاً من غيره للتأثر بثقافة العولمة بل وتبنيها، وفي النهاية يصبح هذا الموقف أشبه بالموقف الأول بل إنّه في النتيجة لا يختلف عنه .

ومن هنا كان لابد من تحديد موقف رابع حاسم في هذا الموضوع[١]، يتمثل بحفظ الهوية الإسلامية وتعزيز الانتماء إليها وتوظيفها في مواجهة العولمة الثقافية ، من خلال تحشيد الطاقات وترسيخ القناعات لدى الحكومات والشعوب بمختلف مستوياتها بخطورة العولمة الثقافية وجديتها في القضاء على الهوية والثقافة الإسلامية ، والعمل على نشر القيم والثقافة الإسلامية وترسيخ الاعتزاز والافتخار

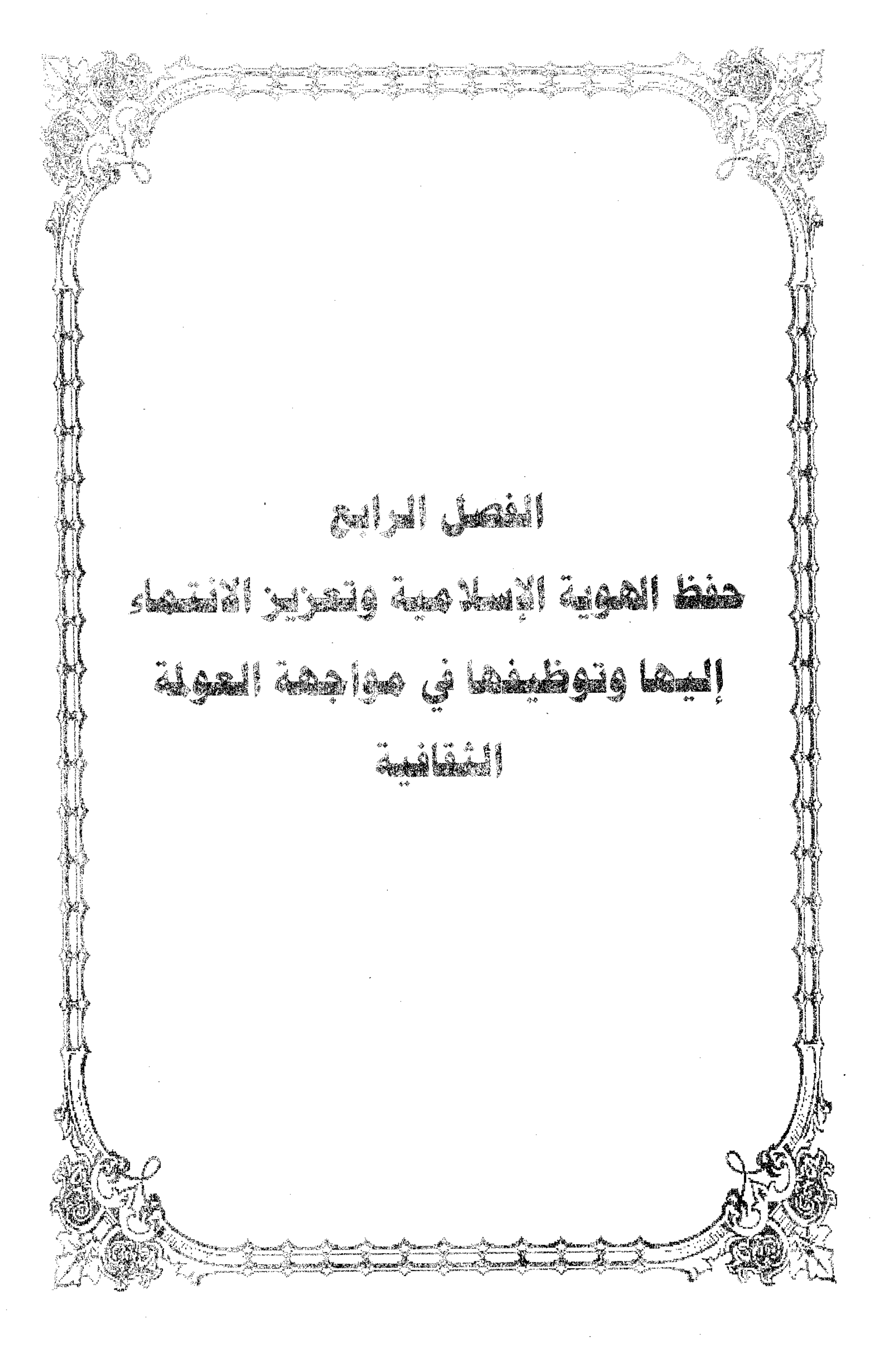
---

(١) وهو ما سنتحدث عنه بشكل مفصل في الفصل القادم

بها في النفوس ، وأيضاً الاستغلال الأمثل لما توفره التقنية الحديثة من آليات لنـــشر هذه الأفكار والمبادئ .

إنّ الهجمة التي تتعرض لها أمتنا كبيرة وخطيرة ، وهذه المرة تختلف عـــن سابقاتها، وتتميز عنها بشمولية الاستهداف ، والإمكانيات الفائقة ، والسعي الدؤوب، والرغبة الملحة ، والأهم من كل هذا ، الضعف المتوفر فينا والـــذي يـــؤدّي إلـــى (القابلية للاستعمار) .

فما لم تكن الاستعدادات على أعلى المستويات، كمّاً ونوعاً، وما لـــم يكن ردّ الفعل موازياً للفعل المقابل ، فإننا نعيش حقاً على شفا خطر عظيم .



الفصل الرابع

حفظ الهوية الإسلامية وتعزيز الانتماء إليها وتوظيفها في مواجهة العولمة الثقافية



المبحث الأول

دور مؤسسات الدولة المسلمة

يجب أن نعي حقيقة، وهي أنّ رفضنا المستمر للعولمة وإدانتنا المتكررة لها، ونقض ادعاءات المروجين والداعين إليها ، لن يؤثّر في سعي النظام العالمي الجديد نحو الهيمنة والتسلط على العالم .

فالمسألة إذن بحاجة إلى فكر جديد، وعقلية جديدة، في طريقة التعامل مع هذه الظاهرة، وذلك لا يتأتى إلاّ من خلال الارتكاز- كخطوة أولى وأساسية- على هويتنا الحضارية المتفردة ، وعلى خلفيتنا التاريخية الأصلية ، وموقفنا الثقافي المتميز.

وأن نوقن بأنّ الهزيمة النفسية أمام هذه الظاهرة ، يأتي مِن عَدِّها ظاهرة حتمية، وبالتالي لا قِبلَ لنا بها، وهذه أولى خطوات الفشل.

فالمنهج الذي يجب أن نعتمده في مواجهة سعي العولمة الثقافية نحو الهيمنة واختراق الهوية والثقافة الإسلامية، ينبغي أن يكون متكاملاً وشاملاً، يجمع بين البحث عن الأزمة والمشكلة والخلل ، وإيجاد الحلول لها، والانطلاق من الرؤية الشمولية للواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية.

فلا يمكن بأيّ حال من الأحوال الفصل بين الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والثقافية والعلمية والتربوية ، ونحن نتصدى ونواجه هذه الهجمة. كما أنّه يجب أن يشترك في هذا الرد والتحدي على ما تفرضه علينا العولمة الثقافية كل فئات المجتمع الذين يحملون الهوية الإسلامية ، ابتداءً من مؤسسات الدولة المسلمة، بيد أنّها تمثل رمز هذه الدولة، وواجهة وممثلة الشعب

الذي تسوسه وتحكمه، وأنّها بيدها السلطة لاتخاذ القرارات والإجراءات التي تراهـا مناسبة في خدمة شعبها.

وبالتالي فإنّ المحافظة على ما يملكه هذا الشعب من القيم واللغة والثقافات والتراث والعادات والتقاليد...، لَهوَ من أقدس الواجبات وأهم وأخطر الأمور التـي ينبغي على مؤسسات الدولة- ابتداءً من قمة الهرم المؤسسي والممثل برئيس الدولة وحكومته- أن تقوم بها وعلى أكمل وجه ، فهي تمثل مقومات هوية الأمّة وفقـدانها يعني نهاية هذه الأمّة'.

وحماية هذه المقومات والمحافظة عليها في ظل الواقع الذي تعيـشه الأمّـة الإسلامية، وفي ظل العولمة الثقافية، إنّما يتم من خلال إعادة الثقة للذّات الإسلامية، بعد الانهيار الذي أطاح بما تبقى من الإيمان بالقوة والقدرة على مواجهة التحديات، حتى أصبحت الأمة الإسلامية لا تكاد تثق بما تنتجه وتبدعه إلاّ إذا باركته الحضارة الغربية.

إنّ المبادرة الأساسية في عملية مواجهة العولمة الثقافيـة يجـب أن تنطلـق أساساً من الأنظمة السياسية الحاكمة في بلداننا العربية والإسلامية، لأنّها المهـيمن على القرار السياسي والثقافي والإعلامي ، وبـصورة أمنيـة وعـسكرية مخيفـة ومرعبة. وذلك من خلال اعترافها- أولاً وقبل كل شيء- أمام شعوبها وبكل شفافية ومصارحة، بفشلها الذريع في سياساتها وخططها التنموية والسياسية والاقتـصادية والاجتماعية الفاشلة الهزيلة التي مارستها على شعوبها على مدى عقود طويلة مـن الزمن، والتي لحقنا من جرائها أفدح الضرر والخيبة والشعور بالهزيمـة والـسلبية أمام الآخرين غيرنا. هذا فضلاً عـن ممارسـتها القمعيـة ضـد أبنـاء وطـنهم ومصادراتهم لحريات الناس وآرائهم وأفكارهم، مما ولّد شـعوراً عنـد المـواطن

العربي خاصة والمسلم عامة بالكراهية وفقدان الثقة وانعدام المصداقية تجاه هذه الأنظمة الحاكمة المستبدة.

جاء في تقرير التنمية الإنسانية العربية: « إنّ القمع والتهميش الذي تمارسه الأنظمة العربية على مواطنيها قد أسهَمَ في قتل الرغبة في الإنجاز والسعادة والانتماء، ومن هنا ساد الشعور باللامبالاة والاكتئاب السياسي، ومن ثم ابتعاد المواطنين عن المشاركة في إحداث التغيير المنشود ، وقد نجم عن هذه البيئة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الطاردة - فضلاً عن عوامل الجذب في الدول الأخرى- تنامي ظاهرة هجرة العقول العربية ، حيث يُقدَّر عدد الجامعيين العرب المهاجرين إلى أوربا وأمريكا عام ١٩٩٥م/١٩٩٦م بـ(٧٥) ألف ، وكان عدد الأطباء العرب المهاجرين بين عامي ١٩٩٨م - ٢٠٠٠م حوالي (١٥) ألف طبيب »(١).

فنشأ نتيجة للشعور بالظلم والغبن والحيف، مواطن عربي ضعيف الانتماء لوطنه، لأمته، لعروبته، لدينه، لهويته، ولِمَ لا ؟ وهو الذي كان يصبح ويُمسي على حلم فلسطين وتحرير المسجد الأقصى، على أمل أن يُنفِّذ زعماء العرب ورؤساؤهم وملوكهم ما وعدوا به شعوبهم في خطبهم الرنانة ووعودهم وعهودهم، وتَحمَّل هذا المواطن من أجل ذلك ضنك العيش، ورَضيَ بقوانين الطوارئ والأحكام العرفية ، التي كان لابد منها!! إن هم أرادوا استعادة الأرض المحتلة ، كما يقول الزعماء !؟.

فإذا بكل ذلك جعجعة وطنين فارغ ، وإذا بالإنسان العربي يدرك أنّه كان يعيش في كذبة مقيتة ، فهاهم زعماء العرب يتفقون فيما بينهم، باجتماع واحد

---

(١) تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام٢٠٠٣م : برنامج الأمم المتحدة الإنمائي والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي / ط(١) / نيويورك / ٢٠٠٣م /عرض: إبراهيم غرابية / ٣-١٠-٢٠٠٤م / من على موقع قناة الجزيرة الفضائية : www.aljazeera.net

وبالإجماع على الاعتراف بدولة إسرائيل. وهم الذين لم يتفقوا طوال خمسين عاماً حتى على كيفية الوقوف ضدها !.

ونظرةً إلى واقعنا الاقتصادي المفجع - والذي هو بالمحصلة النهائية واقع سياسي ذلك أنّ الاقتصاد أو الثقافة أو أيّ مجال آخر في عالمنا العربي والإسلامي هو في النهاية قرار سياسي- تنبئنا عمّا نحن فيه ، حيث يشير تقرير المؤتمر القومي لعام١٩٩٧م إلى أنّ: « الاقتصاد العربي يقوم على ثلاثة قطاعات رئيسية: التشييد، النفط، الزراعة، وتبلغ قيمة الاستثمار في الأول (١٢٠) مليار دولار، تدفع خزائن الدول العربية من هذا المبلغ ما بين (٦٠-٧٠) مليار دولار، مقابل مستوردات أجنبية لهذا القطاع سنوياً. وبالنسبة للثاني، فلا يزال العرب يستوردون كل أدواتها وتقنياتها الفنية المطلوبة مع أنّ عمر هذه الصناعة (النفطية) هو حوالي (١٢٠) عاماً. وأخيراً فإنّ القطاع الثالث الزراعي يُعَّد أكبر حقل لاستخدام اليدّ العاملة العربية من دون منازع، ومع ذلك تستورد الدول العربية من سلع هذا القطاع ما قيمته (٢٠) مليار دولار سنوياً »[١].

ويشير تقرير التنمية البشرية للعام ١٩٩٧م ، إلاّ أنّ غالبية شعوب دول العالم النامية تبحث عن لقمة الخبز والحرية الشخصية، وإنّ نسبة الأمية بين البالغين فيها حوالي (٨٥٠) مليوناً شخص، أيّ ما يقارب (١٥%) من عدد سكان العالم[٢].

---

(١) حال الأمة العربية: المؤتمر القومي العربي التاسع: الوثائق/ القرارات/ البيانات (آذار/ مارس١٩٩٩م)/ بيروت/ مركز دراسات الوحدة العربية/ ١٩٩٩م/ نقلاً عن: العرب والعولمة مشكلات الحاضر وتحديات المستقبل / مهيوب غالب أحمد / ص٦٧ / مصدر سابق.

(٢) ينظر تقرير التنمية البشرية للعام ١٩٩٧ / ص٢٤ / نقلاً عن: القرية الكونية واقع أم خيال : نايف علي عبيد / ص١٥٨ / مصدر سابق .

ويوضح الجدول الآتي بصورة أوضح وأعمق وأشمل، الحالة التي تعيش فيها شعوب العالم النامية. ومعلوم أنّ مصطلح (النامية) يطلقه الخبراء والمختصون على هذه الدول أو الشعوب حياءً ، والحقيقة التي يعرفها الجميع أنّ المصطلح الأصح والأدق هو شعوب أو دول العالم المتخلفة - مع العلم أنّ دول العالم الإسلامي بلا استثناء تُصنَّف مع دول العالم النامية هذه.

● أدناه جدول الفقر والحرمان حسب تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٤ (بالمليون)[١].

(١) تقرير التنمية البشرية للعام ٢٠٠٤- ص١٢٩- مصدر سابق.

المنطقة	الأشخاص الذين يعيشون بأقل من دولار واحد في اليوم	إجمالي السكان الذين يعانون من سوء التغذية	الأطفال في سن التعليم الابتدائي خارج المدرسة	الفتيات في سن التعليم الابتدائي خارج المدرسة	الأطفال دون سن الخامسة الذين يموتون كل سنة	الأشخاص المحرومون من الحصول على مصادر ماء محسنة	الأشخاص المحرومون من فرصة الحصول على خدمات صرف صحي ملائمة
١- أفريقيا وجنوب الصحراء	٣٢٣	١٨٥	٤٤	٢٣	٥	٢٧٣	٢٩٩
٢-الدول العربية	٨	٣٤	٧	٤	٢	٤٢	٥١
٣-شرق آسيا والمحيط الهادئ	٢٦١	٢١٢	١٤	٧	١	٤٥٣	١٠٠٤
٤-جنوب آسيا	٤٣٢	٣١٢	٣٢	٢١	٤	٢٢٥	٩٤٤
٥-أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر	٥٦	٥٣	٢	١	٠	٧٢	١٢١

الكاريبي							
٦-وسط أوروبا وشرقها ورابطة الدول المستقلة	٢١	٣٣	٣	١	٠	٢٩	٠
المجموع / العالم	١١٠٠	٨٣١	١٠٤	٥٩	١١	١١٩٧	٢٧٤٢

إنّ الأرقام التي يعرضها هذا الجدول ليست نهائية، فهناك حقيقة متعارف عليها، وهي أنّ كثير من دول العالم النامية - التي يعنيها هذا الجدول - غير مشمولة في هذه الإحصائيات. ثمّ إنّ الأرقام الحقيقية أكثر من ذلك بكثير، وذلك لِعدّة أسباب منها: أنّ بعض الدول تخوض حرباً داخلية أو خارجية وبالتالي يتعذر إجراء إحصائيات صحيحة حول هذه المواضيع، أو أنّ بعض الأنظمة لا تسمح بهكذا إحصائيات داخل دولها لأنّها أنظمة دكتاتورية متسلطة ، تسير على قاعدة (كل شيء على ما يرام سيدي الرئيس) ومثل هكذا إحصائيات تفضح هذا النظام وتكشفه على حقيقته. وعليه نستطيع أن نأخذ أي رقم داخل هذا الجدول ونظريه بعدة أرقام للوصول إلى الحقيقة وبالأخص في الدول العربية.

حيث يشير إسماعيل صبري عبد الله إلى أنّ خمس دول عربية ، ليس لديها بيانات كافية للتعرف على حجم الناتج المحلي الإجمالي، وبالتالي تحديد متوسط

دخل الفرد، وهذه الدول هي: (ليبيا، السودان، العراق، الصومال، جيبوتي)[1] ونقص البيانات في ذاته دليل سلبي لأنّ الناجحين يزهون بإعلان نجاحهم النسبي .

وفي ظل هذه الحقائق كيف سيتسنى لنا الدخول والمشاركة في العولمة كما يطالب البعض، وكيف سنواجه العولمة الثقافية التي تفرض تحدياتها علينا وتهددنا. وبأيّ سلاح سنحارب وما قيمة هذا السلاح ، إذا كان المواطن العربي والمسلم عموماً شبه محطم وشبه يائس من أيّ إصلاح سياسي أو احترام لحقوقه أو تقدير لقيمته في بلده .

وعليه فلا مجال هنا للحديث عن الحفاظ على الهوية والثقافة الإسلامية، لأنّ المجتمعات الفقيرة الضعيفة المتخلفة عن ركب التقدم الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي، لا تقوى على الدفاع عن خصوصيتّها الثقافية وهويتها الحضارية ، بل على العكس، تصبح مَرتَعاً وهدفاً للعولمة الثقافية.

والحل للخروج من هذه الأزمة – برأي الباحث – وبله المأساة التي نعيشها، يكون بإزاحة أو تنحي هذه الأنظمة الحاكمة الفاسدة عن مناصبها وكراسيها، وهو حل منطقي ومعقول ومقبول ، ولا أعرف لِمَ يوصَف كل باحث أو شخص يطرح مثل هكذا طرح بعدم الواقعية ، وعدم الجِدّية في إيجاد حلّ لهذه المشكلة ، لا أعرف لماذا يجب علينا أن نتعايش مع هذا الواقع الأليم المفجع الذي نحن فيه ، لا أعرف لماذا يجب علينا أن نُسلِّم بما هو موجود، وأن نتكيف ونتعايش معه، وكأنّ هذه الأنظمة، وكأنّ هؤلاء الزعماء، قَدَرٌ مفروضٌ علينا، أو نَزَلَ بهم وحي من السماء، أو أنّ عروشهم ميراث حلال لهم ورثوها كابراً عن كابر !!.

---

(١) العرب والعولمة : العولمة والاقتصاد والتنمية العربية (العرب والكوكبة) : إسماعيل صبري عبدالله / ص٣٦٢ / مصدر سابق .

إنّ هذه الجبرية (القديمة الجديدة) التي يُراد لنا أن نؤمن ونوقن بها، وأن ننام ونصحو عليها، لهي بلا شك أحد أهم الأسباب التي أوصلتنا إلى هذه الحالة البائسة.

إذن فالإصلاح السياسي يجب أن يبدأ من قمة الهرم، فهذه الزعامات والوجوه، ما عاد المواطن العربي والمسلم يثق فيها، ولا يطمئن إليها ولا يُصدّق بها.

والمطلوب أن يستلم القيادة والحكم في بلادنا، أُناس أكفاء، أمناء، أقوياء، مخلصون، صادقون، يعملون لمصلحة شعوبهم وأمتهم ودينهم، يعرفون طريق الخلاص والنجاح، ويستطيعون مواجهة التحديات التي تفرض عليهم، والساحة مملوءة بمثل هذه الكفاءات.

عندها فقط نستطيع أن نعيد الثقة والأمل للمواطن العربي المسلم، ونستطيع أن نقنعه بأنّه آمن في بلده، وأنّ له مكانته وقيمته، وأنّ له أن يمارس حريته وحقوقه المشروعة بلا خوف ولا وجل، وأنّه جزء من هذا الوطن، وجزء من هذه الأمّة.

وعندها فقط نستطيع أن نقنع المعارض بأنّه يستطيع أن يقول رأيه بكل صراحة، ويطرح آراءه وأفكاره وانتقاداته بلا خوف من مصادرة الحريات والحقوق والأفكار.

وعندها فقط نستطيع أن نقنع العقول المبدعة بأن تبقى في بلدانها التي هي في حاجة ماسة إليهم، وأنّهم سيجدون هنا من يحتضنهم ويقدرهم ويعطيهم مكانتهم التي تليق بهم.

وبهذا يتعمق الشعور بالمواطنة والانتماء، ويتعزز الافتخار بالهوية العربية والإسلامية، ويزداد التمسك والاعتزاز بها، وبالتالي الرغبة والعمل الجاد في المحافظة عليها والدفاع عنها ضد الهجمات والتحديات التي تواجهها.

والمؤسسة الثانية والتي لها أكبر الأثر في حفظ الهوية الإسلامية وتعزيز الانتماء إليها، هي المؤسسة التربوية والتعليمية.

صحيح أنّ نظرة أولية إلى واقع المؤسسات التربوية والتعليمية في بلادنا العربية والإسلامية، يعطي للوهلة الأولى انطباعاً بالشعور بالخيبة والفشل واليأس، وبأنّه لا أمل يرتجى بالنهوض بها، والتفاؤل بشأن مستقبلها أو مستقبلنا، وخاصة إذا ما قارناها بالمؤسسات ذاتها في الدول المتقدمة. حيث تشير الإحصائيات التي احتوتها تقارير التنمية البشرية إلى واقع مأساوي .

فعلى سبيل المثال، إنّ نسبة الإنفاق على البحث العلمي في الدول العربية مجتمعة لا يتجاوز(٠,٣١%) من مجموع دخلها القومي ، بينما إسرائيل وحدها تنفق على هذا المجال (٣%) من مجموع دخلها القومي[١].

وإنّ معدل الأمية بين البالغين يصل إلى (٤٢,٨%) في الدول العربية، و(٤٩,٥%) في جنوب آسيا، و(٤٢%) في أفريقيا وجنوب الصحراء، و(١٣,٢%) في جنوب شرق آسيا، في حين أنّ هذه النسبة في البلدان الصناعية لا تتجاوز (١,٤%)[٢].

وإنّ نسبة الأطفال الذين لا يصلون إلى الصف الخامس الابتدائي تصل إلى (٧%) في الدول العربية، و(٣٢%) في أفريقيا وجنوب الصحراء و(٣٥%) في جنوب آسيا، و(١٧%) في جنوب شرق آسيا، في حين أنّ هذه النسبة في البلدان الصناعية لا تتجاوز (١%)[٣].

---

(١) ينظر: تقرير التنمية البشرية للعام ١٩٩٩م / ص٦٧ / من على موقع المنظمة على الشبكة: www.undp.org

(٢) ينظر: المصدر نفسه / ص٦٨.

(٣) ينظر: المصدر نفسه / ص٦٨.

صحيح أنّ هذه الأرقام والحقائق كارثية، إلاّ أنّ المشكلة حقاً ليست هنا، المشكلة والتساؤل والحيرة، هي في الأرقام المتبقية من هذه النسب، ماذا فعلنا بها، وكيف انتفعنا منها، وهل وضعناها في المكان المناسب، وأعطيناها قيمتها التي تستحقها، وهل أدّت الدور المطلوب منها ؟

إنّ التساؤل الكبير حقاً، هو عن النخبة أو الزبدة المصفاة من النسبة المتبقية، أصحاب المواهب، وأولو الألباب، والعقول الكبيرة، والذين من المفروض أن يكونوا هم قادة الرأي، وأصحاب الكلمة في البلد، هل استغلتهم المؤسسة التربوية والتعليمية الاستغلال الأمثل لما فيه خدمة شعبهم وأمتهم .

يتكلم ماجد الكيلاني عن هذا الموضوع فيقول:« لو تتبعنا تاريخ هذه المشكلة في العالم الإسلامي الحديث–ومثله نظيره في التخلف وهو العالم الثالث–لوجدنا أنّ النخبة من كل جيل تفرز كما يفرز الزبد من الحليب،ثم يجري تهجيرها إلى الخارج عن طريق البعثات الدراسية التي تقدمِها الشركات الأجنبية،أو عن طريق التهجير القسري، أو الطوعي تحت تأثير القيم الجديدة التي ترفع من مكانة الدارسين في العالم المتقدم.وبعد ذلك يجري إعداد نخبة جديدة مصنوعة تحلّ محل النخبة الفطرية المطبوعة،ويكون أعضاء هذه النخبة المصنوعة من المصل البشري الذي تبقى بعد فرز الزبد والذي يتكون من (أغبياء) الطلبة ممن يحصلون على أقل من (٦٠%) في امتحان الثانوية أو يرسبون فيها. وخلال هذا الإعداد تنصح هذه الأقطار بتوزيع هؤلاء الطلبة العاجزين ليتخصصوا في العلوم الإنسانية والدينية والعسكرية والعمرانية،وكان من نتائج ذلك– في العالم الإسلامي– أنّه عانى وما زال يعاني من وصول هؤلاء الذين حصلوا على أقل من (٦٠%) في امتحان الثانوية أو رسبوا فيها، إلى مناصب القيادة في ميادين الفكر والقوة والإدارة، وأنّ الإدارة ساءت عما كانت عليه يوم كان يتولاها مخاتير القرى وشيوخ العشائر... والسبب الرئيسي في

ذلك كله هو غياب الأذكياء وهجرتهم إلى مؤسسات العلم والبحث في الأقطار الأخرى وتولي الأغبياء مركز القيادة والتوجيه في العالم الإسلامي »(١)(٢).

فالإحصائيات تشير إلى أنّ عدد الأطر ذوي الكفاءات العالية من العالم الثالث الذين هاجروا إلى الدول المصنعة خلال العقدين الأخيرين بحوالي٥٠٠,٠٠٠ ألف شخص(٣).

بينما في المقابل ، نجد أنّ قادة الجيل في الدول المتقدمة هم هذه النخبة أو الزبدة ، أصحاب العقول والمواهب ، أذكياء الطلبة وأوائل الصفوف. حيث تُهيأ لهم دولهم ما يستحقونه من العناية والرعاية، لكي تؤهلهم في المستقبل للقيادة في مختلف الميادين. « إنّ السر في قوة الدول الكبرى هو تكامل الفكر والسياسة واعتماد رجال التخطيط والتنفيذ في دوائر السياسة والإدارة على ما يقدمه لهم رجال الفكر العاملين في مراكز البحوث والدراسات خلال اللقاءات الدورية التي تجمع بين الفريقين لمناقشة وتقويم القضايا الداخلية والخارجية في جميع الميادين والأقطار.ففي بلد كالولايات المتحدة هناك ٩ آلاف مركز بحوث ودراسات

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس: ماجد عرسان الكيلاني: الدار السعودية للنشر والتوزيع / جدة / المملكة العربية السعودية / ط(١) / ١٩٨٥م / ص٢٧١-٢٧٢.

(٢) أرجو أن لا يؤخذ أو يُفهم هذا الكلام على إطلاقه فهناك بكل تأكيد استثناءات له- الباحث - .

(٣) ينظر: آليات تنفيذ استراتيجيا تطوير العلوم والتكنولوجيا في البلدان الإسلامية: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة/ ١٩٩٩م/ نقلاً عن: الإسهام الحضاري للأمة المسلمة: سعيد عبد الله حارب / ص٢٢٩ / بحث مقدم للندوة الفكرية التي أعدها مركز البحوث والدراسات في دولة قطر بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع وشارك في أعمال هذه الندوة نخبة كبيرة من العلماء والباحثين وقامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر بطباعة إعمال هذه الندوة في كتاب بعنوان (الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد) / ط(١) / ٢٠٠٠م .

متخصصة في بحث شؤون السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة والتربية والعلوم والصناعة والتجارة ، وشؤون الأقليات العرقية وشؤون الأقطار التي لها مصالح فيها، وفي كل مركز مئات الباحثين المتخصصين الذين كانوا أوائل صفوفهم منذ الدراسة الابتدائية حتى نهاية أعلى مراتب الدراسة الجامعية »[1].

نعم إنّ هذه النخبة أو القلة القليلة من العقول والمواهب، هي التي تقود البلاد، وتوجه الشعب، وتبني له مستقبله، وتسير به نحو النجاح والرقي والتقدم، وبقية أفراد الشعب تابع لها، مؤمن بكفاءتها وكفايتها لتولي المهمة وعلى أحسن وجه، يحصل ذلك في الدول المتقدمة المتطورة. والمطلوب من المؤسسات التربوية والتعليمية في دولنا العربية والإسلامية أن تعتمد هذه الفكرة وتؤمن بها وتطبقها، فكرة تَبَنّي الكفاءات والمواهب والعقول من أبنائها، والاعتماد عليها في قيادة المؤسسات التربوية والتعليمية- فضلاً عن المؤسسات الأخرى- وإعطاءهم المكانة التي يستحقونها، وتوفير وتسخير أقصى ما يمكن من الإمكانيات المادية والمعنوية المتاحة، من أجل الوصول إلى الأهداف التي يرسمونها ويخططون لها ويرومون تحقيقها.

هذا بالنسبة للعقول والمواهب وكيفية تسخيرها في خدمة الأمّة وهويتها وثقافتها. أمّا بالنسبة للمناهج ، فلابد من بلورة منهج تربوي وعلمي متميز يجمع بين الأصالة والمعاصرة، يهدف إلى إخراج جيل مسلم ، بقدر ما هو مستوعب لأسس الشريعة الإسلامية ، وبقدر ما هو متشبع بعقيدة التوحيد ومتمسك بمقتضياتها، بقدر ما هو مستوعب لعلوم العصر ومتفاعل مع مستجداته وتطوراته، وبكل تأكيد إن المجال الأبرز للوصول إلى هذه الغاية هو المدارس والمعاهد

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس : ماجد عرسان الكيلاني / ص٢٨٢ / مصدر سابق.

والجامعات، « فالمهمة التربوية الكبرى يجب أن تحظى باهتمام القادة والتربويين في البلاد الإسلامية، وهي مهمة متشعبة الأطراف تتضمن وضع مناهج وكتب دراسة العلوم على كافة مستوياتها بُدءاً بأدناها بحيث تعكس الرؤية والمفاهيم والغايات الإسلامية، لأنّ المهمة التي تبدأ ببدء حياة الصغير وتتدرج مع عمره في مراحل التربية والتعليم يجب أن تؤخذ على محمل الجد من قبل هؤلاء القادة والمربين دون أدنى تهاون أو تراخٍ، حتى لا تستمر نفوس الأجيال الناشئة وعقولها تعاني مما عانى منه جيل الآباء من تشوهات في البناء النفسي والفكري ومن عجز في الأداء الحضاري »[1].

ومن الواضح في هذا النص أن عبد الحميد أبو سليمان يركز في مشروعه الهادف هذا إلى إعادة تشكيل وصياغة العقل المسلم، من خلال تطوير وإصلاح المؤسسة التربوية والتعليمية في العالم العربي والإسلامي، على الناشئة، فيقول: « إنّ الطفل الناشئ يحتاج مِنّا ولاشك إلى خطاب يبني ويُكوِّن ويغرس في نفسه الصفات والطاقات النفسية الإيجابية التي تدفعه إلى الثقة بنفسه والرغبة في أداء مهمته في الحياة والاعتزاز بها، والشوق إلى النجاح فيها، ومعرفة أسرارها، بما يجعل شخصيته تتجلى بالقوة والثقة والاعتزاز والمبادرة وما يتصل بها من صفات لازمه لنجاح الأمّة في أداء مهمتها في الخلافة... وأن ننهج في تربيته وفي الإجابة على تساؤلاته منهج الحب والتشجيع فيما يتعلق بمفهومه ونظرته وعلاقته بالله ﷻ. بحيث يُقبل الطفل في قوة وفي صبر وفي تشوق وفي حب على الله ﷻ ، وعلى الحياة ودوره فيها »[2].

---

(١) أزمة العقل المسلم : عبد الحميد احمد أبو سليمان / المعهد العالمي للفكر الإسلامي / فيرجينيا / الولايات المتحدة الأمريكية / ط(١) / ١٩٩١م / ص٢١٦ .

(٢) المصدر نفسه / ص١٩٣ .

وبتحويل مثل هذه الأفكار والرؤى والطروحات إلى واقع، يصبح لدينا جيل مسلم عميق الصلة بالله ﷻ ، يعرف قيمته وقيمة الأفكار والمبادئ التي يحملها، فضلاً عن التمسك والاعتزاز والافتخار بها، فيسعى جاهداً لأن يحافظ عليها ويتصدى لكل حملة أو هجمة تستهدف النيل من هذه القيم والأفكار التي يؤمن بها، والتي تشكل بمجموعها هويته وثقافته التي تميزه عن غيره وتعطيه شعوراً بالفرادة والاستقلال.

والمؤسسة الأخرى هي المؤسسة الإعلامية، والتي برز دورها في الفترة الأخيرة وبشكل لم يسبق له مثيل. وتعد الآن في عصر العولمة واحدة من أهم وأخطر المؤسسات التي تملك القدرة والإمكانية والفاعلية لتهيئة النفوس والعقول لاستقبال وتقبل الأفكار والرؤى والمضامين التي يحملها الخطاب الإعلامي ، بما يملكه من وسائل متطورة، وتقنية عالية، وأسلوب جذّاب، وقدرة على تغيير القناعات والمشاعر والأحاسيس، بطريقة قد يشعر بها المخاطَب - بفتح الطاء - ويتنبه إليها أحيانا، وفي أغلب الأحيان لا يشعر بها ولا ينتبه إليها.

« فالإعلام الآن هو الذي يحضّر الأمم، وينشئ عندها القابليات للعمالة الثقافية والحضارية، ويفقدها ذواتها دون أن تدري أنّها لا تملك من أمرها شيء...وبالإمكان القول: بأنّ المعركة الحقيقية المستمرة والفاصلة اليوم هي معركة الإعلام، بعد أن سكتت أصوات المدافع، وتوارى أصحابها، وأصبحوا لا يُدعون إلى الظهور إلاّ في الأوقات الاستثنائية التي يغيب فيها الرُشد، وتهزم الفكرة،

وتنتصر الشهوة، ويرتكس الإنسان إلى حياة الغابة.وحتى في هذه الأوقات الاستثنائية يبقى الإعلام من أخطر أسلحتها أيضاً »[١].

والمطلوب اليوم من المؤسسة الإعلامية في بلداننا العربية والإسلامية، أن تستغل التطورات والتقنيات الهائلة التي طرأت على هذا العلم ووسائله، تستغلها في حفظ هوية الأمّة وقيمها وثوابتها، وذلك بنشرها وغرسها في نفوس وعقول أبنائها، وتوعية المواطن العربي المسلم بأهمية وخطورة ومعنى أن يكون له هويته الخاصة المتميزة، وثقافته المستقلة المتفردة، وأهمية ومعنى تمسكه بها والاعتزاز والافتخار بانتمائه إليها.

وأيضاً تعريف المسلمين قاطبةً -عرباً وعجماً- بالثوابت التي تربطهم ببعضهم، وتجمع بينهم، وتجعلهم في نظر أنفسهم وفي نظر الآخرين إليهم، أمّة واحدة، وشعباً واحداً، بما يجمعهم من دين وثقافة وتاريخ وتراث وقيم وأخلاق وأخوة ومصالح مشتركة ومصير واحد، فضلاً عن اللغة العربية، لغة القرآن الكريم لغة كل مسلم وإن لم يكن عربي النسب.

وأن تسعى المؤسسة الإعلامية الحكومية وبكل جدّية إلى ردم الهُوّة الهائلة، وتقليص الفجوة الكبيرة بين إعلامنا العربي والإسلامي، المتدني الهزيل، وبين إعلام الآخر المعادي القوي، الذي يرسم صورة بدائية، وحشية، عدوانية، إرهابية للإسلام والمسلمين، ولا يُظهر إلاّ النماذج المشوهة التي تمارس العنف والإرهاب، أو التي تهاجم الإسلام وتفتري عليه -وهم قلة- لكي تقول للعالم هذا هو الإسلام وهؤلاء هم المسلمون، أمّا النماذج المعتدلة المتحضرة التي تُعبّر عن الإسلام حقاً،

---

(١) مراجعات في الفكر والدعوة والحركة : عمرو عبيد حسنه / الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي/ الرياض(المملكة العربية السعودية) / فيرجينيا(الولايات المتحدة الأمريكية) / ط(٢) /١٩٩٢م/ ص٣٦ .

وعن مضمونه الحقيقي، فإنّها تحاربه وتطارده وتضيق عليه وتسعى لتشويه سمعته[1].

« فلابد أن نرد في عصرنا الراهن على الثقافة بالثقافة، والشعر بالشعر، والقصة بالقصة، والعلوم بالعلوم، والفنون بالفنون، والمسرح بالمسرح، والتلفزيون بالتلفزيون، ولا ينبغي لهذا أن يكون لمجرد الرد والدحض، وإنّما يكون مجالاً

---

(١) ومن الأمثلة على ذلك إظهار وسائل الإعلام الغربية بعض الأشخاص المحسوبين على الإسلام-من أصحاب الأفكار والمعتقدات التكفيرية- والذين يعاني منهم أهل الإسلام أنفسهم الأمرين من أولئك الأشخاص المغمورين الذين لم يسمع بهم المسلمون ولم يعرفوهم إلاّ من وسائل الإعلام الغربية تلك التي تظهرهم للعالم على أنّهم نماذج لبقية المسلمين.

وأيضاً إظهار وسائل الإعلام الغربية، بعض الأشخاص المرتدين عن الإسلام- الذين سبّوا وشتموا القرآن الكريم وطعنوا فيه، وشتموا الدين الإسلامي في كتب أو مقالات، من أمثال سلمان رشدي وتسليمة نسرين، أولئك أظهرتهم وسائل الإعلام الغربية وعرفتهم إلى الناس، على أنّهم رمز من رموز الفكر والحرية والإبداع.

وبالمقابل يوصف العلامة الشيخ يوسف القرضاوي، الذي يُعَدّ الآن رمز من رموز الفكر الديني، المعتدل السليم، المتحضر المتمدن، يوصف في أجهزة الإعلام الغربية بالإرهابي المتشدد .

ينظر: تسليمة نسرين والعربي الكشاط : عصام العطار/مجلة الرائد/بون(ألمانيا)/العدد(١٦٨)/ رمضان١٤١٥هـ/فبراير١٩٩٥م/ص٤٤ / وينظر أيضاً حول هذا الموضوع: أبعد من الهجمة على القرضاوي : ياسر الزعاترة / جريدة الوطن العمانية / يوليو ٢٠٠٤م / من على موقع الجريدة على الشبكة: www.alwatan.com

وينظر أيضاً: مهرجان الدوحة لمناصرة القرضاوي/١٨-٢-٢٠٠٥م / من على موقع قناة الجزيرة الفضائية على الشبكة: www.aljazeera.net

للإبداع الحقيقي ووفقاً للشروط التي يقتضيها كل مجال حتى يكون ذلك جزءاً من المعركة الحضارية الأكبر»[1].

ولتحقيق هذه الأهداف فلابد من العمل الجاد والدؤوب لتأسيس أجهزة دولية قوية في الإعلام ، تأخذ على عاتقها وضع الخطط وإعداد البرامج والكوادر الكفوءة والقادرة على عرض الحقائق وتحليل الأحداث من منطلق علمي إسلامي رصين، ((فالإعلام هو السفير، وهو المعبر عن الرسالة الإسلامية، وهو الذي يحمل القيم والأخلاق الإسلامية، يحمل النظرية، والنموذج، والمثل الأعلى إلى العالم، يدلل على صدقها، ويثير الإقتداء بها بمختلف الوسائل، ويحاول أن يفيد من كل التقنيات الإعلامية الحديثة، ويضبط مضامينها بالقيم الإسلامية، ويُحسِن توظيفها لخير البشرية، وإلحاق الرحمة بالعالمين استجابة لقوله تعالى محدداً الغاية من النبوة: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[2].. »[3].

---

(١) النظام العالمي الجديد : منير شفيق / الناشر للطباعة والنشر والإعلان / ط(١) / ١٩٩٢م / ص١٦ / نقلاً عن: العولمة من المنظور الإسلامي: محسن عبد الحميد / ص٤٦ / مصدر سابق .

(٢) سورة الأنبياء / الآية(١٠٧) .

(٣) مراجعات في الفكر والدعوة والحركة: عمرو عبيد حسنة / ص٥١ / مصدر سابق .

المبحث الثاني

دور الخطاب الإسلامي

يُعّد الخطاب أحد أهم المؤثرات الأساسية على النفس البشرية، فقد كان وما زال الوسيلة الرئيسية المعتمدة في توجيه الأفراد وتغيير المجتمعات.

ويمثل الخطاب الإسلامي المكون الأساسي للعقل المسلم، كما أنّه يشكل المصدر الأساسي لوعي الآخر -غير المسلم- بالإسلام. وهذا يعني أنّه مهما يكن حال المسلمين وواقعهم من الجهل أو العلم، الرشاد أو الضلال، الوحدة أو الشقاق، والتحضر أو التخلف، ومهما يكن عليه وعي الآخر بالإسلام من حال الفهم أو الإشكال، الصحة أو الزيف، السلامة أو التشوه، فإنّه إنّما يعكس أساساً حال الخطاب الإسلامي السائد.

والقول بأنّ إشكالية الحضارة الإسلامية، هي إلى حدّ ما إشكالية خطابية، وإنّ الخلل في فهم المسلمين للخطاب الشرعي -على اختلاف العصور والأزمنة- وما ترتّب عليه من خلل في الخطاب الإسلامي نفسه، هو أهم أسباب تدهور وتراجع الحضارة الإسلامية، كلام صحيح وسليم. فلو أننا راجعنا تاريخنا الإسلامي، أو حتى نظرنا إلى واقعنا اليوم، فسنجد حقيقة أنّ أكثر اختلافاتنا التي أذهبت ريحنا، وثيقة الصلة بالخطاب الإسلامي السائد في وقته. وأنّ أغلب مظاهر الخلل عندنا اليوم، مثل ضعف الحصانة الذاتية الثقافية والفكرية، وضمور المنهج العقلاني المتزن، والتوجهات الفقهية الخاطئة، لو بحثنا عن جذورها جيداً، لوجدناها في الخلل الكبير القائم في الخطاب الإسلامي المعاصر. والذي هو في مجمله تقليد ومحاكاة واستمرار لنمط الخطاب الإسلامي الذي كان سائداً طوال سنوات القرن المنصرم، والذي من أهم سماته أنّه كان خطاباً دفاعياً تعبوياً، يثير الحماسة

ويخاطب العاطفة أكثر مما يخاطب العقل، وذلك بحكم الظروف التي كان يعيشها، وبحكم التحديات الداخلية والخارجية التي كان يواجهها.

والحقيقة التي يتفق عليها كل العقلاء والمفكرون المخلصون، أنّ هذا الخطاب ما عاد يصلح ليكون خطاب عصرنا الذي نعيشه. والدليل على ذلك أننا شهود اليوم على عصر جديد تعيشه البشرية، عصر الإنترنت والمعلومات، عصر الفضاء الكوني والقرية الكونية، عصر ثورة الاتصالات والتقنية، عصرُ التغلب على المسافات، ومع هذا فما زلنا نطرح على أنفسنا السؤال الذي طرحناه قبل أكثر من سبعين عاماً (لماذا تقدموا ولماذا تأخرنا).

وهذا المعنى يؤكد عليه المفكر الإسلامي طه جابر العلواني فيقول: « ما اتفقت كلمة مثقفي الأمّة في عصرنا على شيء، مثل اتفاقها على أنّ الأمّة الإسلامية في سائر شعوبها، وفي مقدمتها الشعب العربي، تعيش أزمة فكرية تتجلى في شكل غياب ثقافي، وكسوف حضاري، وتخلف علمي، وتتجسد في عجز الخطاب الفكري المعاصر عن إيصال مضمون الخطاب الإسلامي السليم ومحتواه قرآناً وسنّةً، شريعةً وأخلاقاً، وإنّ اختلفوا في تحديد الأسباب ووسائل العلاج »[1].

إنّ العقيدة والمبادئ والقيم، هي من الثوابت في ديننا وفي مجتمعنا الإسلامي، وأنّ المتغير هو الفكر والفهم والتطبيق والخطاب وأسلوب الخطاب ووسائله، فهذه كلها متغيرات تخضع لظروف العصر ومتطلبات المرحلة. وهذا يعني أننا في حاجة دائمة ومستمرة لتجديد الخطاب الإسلامي، فالتطور الحضاري وتغير الأزمنة يجلبان معهما أسئلة وتحديات جديدة، وأنّ أيّ خطاب ينشد الاستمرارية والبقاء، لابد له من مواكبة الواقع والإجابة على أسئلته، واستيعاب

---

(١) أزمة الخطاب الإسلامي المعاصر: طه جابر العلواني / موقع بلاغ الإلكتروني على الشبكة: www.balagh.com

المستجدات والتطورات،كي لا تتسع الفجوة والهوة بينه وبين هذا الواقع، فيفقد بالتالي تأثيره وموقعه ووقعه في عقول وقلوب المخاطبين.

ومن هنا تبرز أهمية التجديد في الخطاب الديني الإسلامي، الذي ينطلق من ثوابت العقيدة وقيمها المتعالية الخالدة، وأن يعيد قراءتها وفهمها على ضوء المستجدات والتطورات في المجالين العلمي والفكري الإنساني، وليقدمها بلغة وأسلوب وحُلة جديدة، يستوعبها الواقع الجديد، ويعيد قراءة أحكام الشريعة وفقهها، بما يؤكد صلاحيتها لكل زمان ومكان وخلودها وعدم تخلفها عن الواقع ومتغيراته[1].

وبناءاً عليه فأنّ هناك حقيقة يجب أن نقر بها، وهي أنّ حَمَلَة الخطاب الإسلامي- أياً كانوا- يتحملون الجزء الأكبر من هذه الأزمة الفكرية التي تعيشها الأمّة، وتتجلى بالتقصير في إيصال مضمون الخطاب الإسلامي بصورته النقية الصافية، سواء إلى جماهير الأمّة المسلمة أم إلى الآخرين-غير المسلمين-.

وعندما نقول-حملة الخطاب الإسلامي- فالمقصود هم: أساتذة العلوم الإسلامية في الجامعات والمعاهد الإسلامية، والمفكرون والكتّاب الإسلاميون ومدرسو العلوم الإسلامية في المدارس الثانوية والابتدائية، وأيضاً خطباء المساجد وأئمتها والدعاة والوعاظ...الخ من أولئك الذين يتبنون الإسلام منهجاً شاملاً للحياة، ويدعون إليه في كتبهم وبحوثهم، وآرائهم وطروحاتهم، فهؤلاء جميعاً نستطيع أن نصفهم بأنّهم حَمَلَة الخطاب الإسلامي، إلى جماهير الناس.

وقد يظنّ القارئ الكريم، عندما يقرأ عنوان هذه الأطروحة، ويصل في قراءته إلى هذا المبحث، أنّ الباحث يهدف إلى خطاب تعبوي تحريضي، موجّه لهذه

---

(١) ينظر: تجديد الخطاب الديني: محمد دكير/ مجلة الكلمة / العدد(٤٢) / السنة(١١) / شتاء ٢٠٠٤م / من على موقع المجلة على الشبكة: www.kalema.net

الفئة أو الشريحة من المجتمع لكي تحرض الناس على إعلان الحرب على الآخر وأبادته وإزالته، وبالتأكيد إنّ هذا ليس هو مضمون ولا فكرة هذا البحث، فنحن لا ينقصنا الخطاب الحماسي العاطفي التحريضي، الذي يقتصر على إثارة واستفزاز العواطف والأحاسيس، وتوليد ردة الفعل دون أيّ تخطيط مسبق بما سينتج عنه من أحداث ووقائع في المستقبل القريب أو البعيد. فمثل هذا الخطاب الذي ما زالت الأمّة الإسلامية تملك منه الكثير، لم يحقق لها شيئاً كثيراً، بل في أغلب الأحيان كان مردوده سلبياً جداً على الأمّة الإسلامية.

ويبقى السؤال الأهم في هذا المبحث، هل يستطيع الخطاب الإسلامي أن يُساهِم في حفظ الهوية الإسلامية وتعزيز الانتماء إليها وتوظيفها في مواجهة العولمة الثقافية التي تفرُض نفسها على هذا العصر ؟.

الجواب.. بالتأكيد : نعم .

وذلك يتأتى من خلال–ما تقدَّم ذكره–من إصلاح وتطوير الخطاب الإسلامي المعاصر،بما يؤهله ليكون عاملاً مساعداً قوياً لمواجهة العولمة الثقافية.وهنا يبرز دور حملة الخطاب الإسلامي الذين يقع عليهم العبء الأكبر في هذا الأمر، وذلك بأن يسعى المفكرون والكتّاب الإسلاميون في كتبهم وبحوثهم ومقالاتهم إلى توعية المسلمين بموضوع الهوية الإسلامية ومقوماتها وسماتها وأهميتها بالأخص في الوقت الراهن، وأيضاً تعريف المسلمين وتوعيتهم بأهداف العولمة الثقافية ومخاطرها والنتائج السيئةَ التي ستترتب على اختراقها لحضارتنا ولثقافتنا، وتمييع انتمائنا لهويتنا الحضارية الإسلامية.

وهناك شريحة أخرى من حملة الخطاب الإسلامي، وهم أساتذة العلوم الإسلامية في الجامعات والمعاهد الإسلامية ومدرسو العلوم الإسلامية في المدارس

الثانوية والابتدائية، وهذه الشريحة لها دور كبير ومؤثر في نشر ثقافة التمسك والاعتزاز بالهوية الثقافية. فعلى الرغم من أنّ موضوع الهوية وأهميتها وخطورتها ليس جديداً أو غريباً على الفكر والثقافة العربية الإسلامية، وعلى الرغم من تأكيدات أغلبية الباحثين والمتخصصين والمهتمين بالقضايا الفكرية المعاصرة ، على وصف موضوع الهوية بالصخرة التي تتحطم عليها أمواج العولمة الثقافية العاتية. على الرغم من كل هذه الأهمية والحساسية التي تثيرها قضية الهوية، فإنني -على المستوى الشخصي على سبيل المثال- تعتريني الدهشة والذهول، ذلك أنني لا أذكر خلال مسيرتي الدراسية،من المرحلة الابتدائية وحتى المرحلة التي أنا عليها الآن ، أن درست كتاباً منهجياً يتحدث عن موضوع الهوية، أو حتى حاضرنا أستاذ عن هذا الموضوع وذكرنا به أو نبهنا إلى أهميته وخطورته ومدى حساسيته.

بل إنّه لا توجد لحد الآن مادة منهجية في الجامعات والمعاهد الإسلامية[١]، تدرس العولمة، وتشرحها وتوضحها للطلبة، مع أنّ هذه الظاهرة هي الآن الشغل الشاغل للعالم بأسره، فلا أدري بعدها كيف ستستطيع هذه الشريحة المهمة من المجتمع، والذين يُصنَّفون مع حملة الخطاب الإسلامي ، كيف سيستطيعون مواجهة أهداف ومخاطر العولمة الثقافية ، وهم لا يعرفون شيئاً عنها !.

والفئة الأخرى من حملة الخطاب الإسلامي هم الخطباء والأئمة في المساجد، الذين يستطيعون من خلال خطبة الجمعة، توعية النّاس بموضوع العولمة ومظاهرها وأهدافها ومخاطرها على ثقافتنا وهويتنا وخصوصياتنا الحضارية، وأن يبينوا لهم سبل التعامل معها، وكيفية مواجهتها والتصدي لمساوئها. وأيضاً إثارة قضية الهوية والخصوصية، وبيان أهميتها ودورها في التصدي للعولمة وأهدافها.

---

(١) الحديث هنا عن البلد التي يسكن فيها الباحث.

وبرأيي فأنّ خطبة الجمعة هي أقوى وأمضى سلاح يملكه المسلمون ينافسون ويواجهون به آليات العولمة وتقنيتها المتطورة، وهو سلاح لا يحتاج إلى مال أو تقنية، إنّه يحتاج فقط إلى الخطيب الكفوء المخلص، المتسلح بسلاح العلم والثقافة والذكاء وسعة الإطلاع، وامتلاك القدرة والموهبة على مخاطبة الناس، خطاباً عقلانياً منسجماً مع واقع الأمّة وحاجاتها. أن يكون مواكباً لقضايا الساعة، وأن يملك القدرة على تحليل الأحداث واستنباط الحلول .

فخطبة الجمعة هي بحقّ وسيلة إعلامية فائقة الجودة ، للعدد الهائل الذي يحضرها ويستمع إليها من المسلمين، وأيضاً لما لها من قدسية وتأثير كبير في نفوس المسلمين. فإذا ما أحسنا استغلالها وتوظيفها لخدمة قضايا أمتنا، فأننا نكون بهذا قد قمنا بخطوة في غاية الأهمية، لمواجهة تحديات العولمة الثقافية.

فيا ترى هل يملك خطباؤنا تلك الصفات التي أشرنا إليها ؟ وهل يعرفون أهمية الوظيفة التي يقومون بها ؟ وهل يدركون خطورة السلاح الذي يملكونه-منبر الجمعة- وأنّه ربما يكون السلاح الحسم في هذه المواجهة الحضارية التي تخوضها الأمّة الإسلامية ؟ هل يا ترى يعرف خطباؤنا العولمة وأنواعها وأهدافها ومخاطرها ومساوئها ومحاسنها ؟ وهل يعرفون كيفية التعامل معها، وكيفية التصدي لمخاطرها؟ حتى ينقلوا هذه المعلومات لجماهير الأمّة الغفيرة التي تستمع إليهم؟.

كل هذه الأسئلة ينبغي أن تُثار وأن تُسأل، ويجب على المسئولين أيّاً كانوا، إيجاد الأجوبة أو بالأحرى حلول لهذه الأسئلة أو المشاكل الخطيرة التي تعاني منها أمتنا.

إذن فلا سبيل لإعادة تشكيل العقل المسلم، وإصلاح حال المسلمين، وإعادة بناء الحضارة الإسلامية، بدون إحداث ما يلزم من تغيير وإصلاح وتطوير وتجديد في الخطاب الإسلامي المعاصر.

ولكن ينبغي التأكيد والتذكير هنا، على أنّ التجديد ليس فعلاً أو مشروعاً ينجز في لحظة زمانية مكانية، وينتهي كل شيء، بل التجديد هو تعاط إيجابي تفاعلي بين الواقع الحي والمتغير باستمرار، وبين قيم ومبادئ النص (الوحي)، لتأكيد نزولاته المتكررة والمستمرة، والتي تستوعب الواقع وتوجهه نحو أهداف ومقاصد الشريعة، في الخلق والاستخلاف، لذلك فالتجديد كان و لا يزال ضرورة شرعية وحاجة موضوعية للانسجام مع سنن التطور في الحياة[١].

المبحث الثالث

دور الشعوب المسلمة

جاء في لسان العرب في معنى الأمّة بأنّ: الأمّة: الدين والشريعة... وتعني أيضاً الجيل والجنس من كل حي... والأمّة الجماعة... والأمّة القرن من الناس، يقال: قد مضت أمم أيّ قرون، وأمّة كل نبيّ من أرسل إليهم[٢].

وإذا نحن تأمّلنا في هذه المعاني اللغوية لمفردة الأمّة، فسنخرج بنتيجة أنّ لفظة (الأمّة) تطلق على الجماعة التي يجمعها دين واحد وشرعة واحدة ورابطة واحدة، يوصف بها أفراد تلك الجماعة أو الأمّة .

وفي حدود الموضوع الذي نبحث فيه، فأنّ مصطلح الأمّة المسلمة يطلق على الجماعة التي يوحد ويجمع بينها الدين الإسلامي .

---

(١) ينظر: تجديد الخطاب الديني : محمد دكير / مصدر سابق .

(٢) لسان العرب : ابن منظور/ ج(١٢) / ص٢٤-٢٨ / مصدر سابق.

وهذه الجماعة هي المقصودة والمعنية في هذا المبحث، وهي العنصر الموجه إليه هذا الخطاب، وهي اللاعب الأكبر والأهم في موضوعنا، ومن الأهمية بمكان على الشعوب المسلمة أن تعي هذه المسألة وتدركها جيداً.

فنحن تكلمنا عن دور مؤسسات الدولة المسلمة الرسمية، وتكلمنا عن دور الخطاب الإسلامي ودور حَمَلَة هذا الخطاب في حفظ الهوية الإسلامية وتوظيفها لمواجهة مخاطر العولمة الثقافية. وليس من المعقول ولا من الصواب أن لا يكون للشعوب المسلمة دور في هذا الموضوع أو أن يكون دورهم سلبياً أو هامشياً. فيجب على الجماهير المسلمة أن تتحمل مسؤولياتها الكاملة تجاه هذا الموضوع الخطير والحسّاس. وذلك يتأتى من خلال:

أولاً .. الاعتزاز بالذات :

إنّ الموقف من الذات وإمكاناتها عامل في غاية الأهمية في بلوغ النجاح أو السقوط في الفشل، وهذا الأمر كما يسري على الأفراد فإنّه يسري على الأمم والشعوب بنفس الدرجة. فالأمّة التي لا تثق بقدراتها ولا تقدر إمكاناتها الذاتية حقّ قدرها لا يمكن إلاّ أن تكون على الدوام ظِلاً للآخرين، تابعة لهم، لا تعتقد إلاّ ما يقولون ولا تنفذ إلاّ ما يقررون، وهذا هو(التسول الحضاري)[١] بعينه الذي يمثل قمة العجز والفشل والاستسلام أمام التحديات التي تواجهها.

فلا يمكن لأمّة أن تنهض وهي تشعر بمركب نقص في ذاتها يجعلها تنظر إلى نفسها على أنّها عاجزة عن مسايرة الأمم القوية المزدهرة ، فضلاً عن التقدم عليها.ولهذا كان المستعمر دائماً يعمد إلى فرض الأفكار التي تعبر عن ثقافته وحضارته، على الشعوب التي يستعمرها، ويجبرها على تبني هذه الأفكار بطريقة أو بأخرى.

---

(١) العالم الإسلامي وتحديات .. العولمة / الحسين عصمة / مصدر سابق.

إذن لابد أن ينغرس في وعي الجماهير المسلمة أنّهم أصحاب رسالة سامية، وأنّ البشرية التي تعيش في فوضى، واضطراب نفسي، وفراغ روحي، وسقوط أخلاقي، هي في أمس الحاجة إلى تعاليم الإسلام لينتشلهم مما هم فيه. ولابد أن تؤمن الجماهير المسلمة أنّهم يملكون كل المقومات والعوامل التي تجعلهم يعيدون بناء حضارتهم ومجدهم، ويعيدون تسلم دورهم وموقعهم الغائب المغيب كقادة للبشرية، وما عليهم ليفعلوا ذلك إلاّ أن يجعلوا من إسلامهم: « إسلام يقوم على عقيدة روحها التوحيد، وعبادة روحها الإخلاص، وعمل روحه الإتقان، وأخلاق روحها الخير، وآداب روحها الذوق، وتشريع روحه العدل، ورابطة روحها الإخاء، فيكون ثمرة ذلك كله حضارة روحها التوازن والتكامل »[1].

ثانياً.. التحصين الذاتي:

أصبح معلوماً لدينا أنّ العولمة الثقافية تستهدف إلغاء الهويات والثقافات الأخرى والقضاء عليها، وتبين لنا أنّ الأمر ليس بهذه السهولة التي يتصورها أصحاب ودعاة العولمة الثقافية، حيث أنّ الهويات والثقافات الوطنية والقومية والدينية عميقة الجذور في وعي ولا وعي الشعوب، وأنّها- أي الشعوب- تستنفر ذاتها وقدراتها في التمسك والتشبث بثقافاتها وهوياتها وخصوصياتها ضد كل ما يحاول النيل منها، حتى لو كانت ردة الفعل هذه عن طريق إغلاق النوافذ والأبواب، والانكفاء على الذات والعزلة عن الآخر نهائياً، كما هو الحال عند بعض الثقافات والحضارات والأديان- أو على الأقل عند بعض الجماعات والفئات والطوائف داخل هذه الحضارات والأديان-مثل الجماعات الأصولية الكونفوشيوسية

---

(١) حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا: يوسف القرضاوي/ ص٦٩٥/ بحث مقدم لندوة (الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد)/ مصدر سابق .

والهندوسية والطاوية[1]، وحتى عند بعض الجماعات الإسلامية التي تؤمن بالعزلة والانكفاء على الذات والعودة للماضي بكلِ ما فيه، وترفض كل ما هو آتٍ من الآخر، فقط لأنّه آت من بلاد الكفار[2].

ولكن الموقف الإسلامي السليم المعتدل، الذي ينبغي على المسلمين أن يؤمنوا ويعملوا به، هو أنّ ثقافتهم وهويتهم وحضارتهم الإسلامية، قادرة بصورة فاعلة ومؤثرة على مواجهة كل التحديات التي تتعرض لها، وقد أثبت التأريخ هذه الحقيقة، فبالرغم من كل المحاولات الشرسة التي تعرضت لها الحضارة الإسلامية من أجل طمس معالمها والنيل من مقوماتها وبالتالي ثقافتها وهويتها، إلاّ أنّها كانت دائماً تبهر أعداءها بنهوضها من جديد، واستيعابها واحتوائها لكل الضربات الموجعة التي تعرضت لها، لا بل والاستفادة منها في تقوية وترسيخ وجودها وزيادة خبرتها في التعامل مع هذه التحديات، « فالفتن الكبرى، والنكبات، التي لحقت وتلحق بالأمّة، ما هي في الحقيقة إلاّ تحديات واستفزازات، ومنبهات حضارية، تحمل الأمم الحية للعكوف على ذاتها، والقيام بالمراجعة الكاملة لمواريثها الفكرية ومواقفها العملية، بجرأة وشجاعة، لامتحان القيّم والأفكار والثقافات التي تحكم حياة الناس، وتنظم وتفرز سلوكهم، وتصنع اهتماماتهم، في محاولة لتحديد

---

(١) ينظر: الفكر الإسلامي وقضايا العولمة : زكي الميلاد / مصدر سابق .

(٢) ينقل الأستاذ محمد عمارة عن الأستاذ زكي نجيب محمود واقعة تصور هذه الحالة، فيقول: «تحدث إليّ واحد من علمائنا الذين يُدرّسون في جامعات تلك الدولة المسلمة التي تُحرّم الحديث عن كروية الأرض، عن ذلك الحضر المفروض على العلماء أن يحدثوا طلابهم عن هذه النظريات، فلمّا سألته: وماذا كنت تقول لطلابك، وأنت العالم، عن كروية الأرض، إذا استدعى الحديث ذكرها في المحاضرات ؟! فأجاب العالم المصري: كنت أقول لهم: يقول الكفرة الملحدون: إنّ الأرض كروية، وإنّها تدور!». ينظر: الإسلام وقضايا العصر: محمد عمارة/ ص٨١-٨٢/ مصدر سابق

أسباب القصور، ومواطن التقصير. فالتحديات الكبرى، والأزمات الكبرى، هي التي توقظ الشعوب والأمم من سباتها، وتصنع الحضارة، وتشكِّل التحولات الكبرى في مسيرة الحياة، وتقضي على الصور المشوهة، والعناصر الشائخة، والكيانات الرخوة في حياة الشعوب، وتحفزها للإقلاع من جديد »[١].

وفي ظل هذه الهجمة التي تتعرض لها أمتنا الإسلامية باسم العولمة الثقافية، فهي أيضاً قادرة على مواجهتها، والتصدي لهذا الاختراق الذي تتعرض له.

ولكننا يجب أن نعترف بأنّ مجرد الحديث عن الخوف الحقيقي على هويتنا وثقافتنا من اكتساح واختراق العولمة الثقافية لها، إنّما هو تعبير – بصورة أخرى – عن ضُعفٍ وتراجع وخلل في أصحاب هذه الثقافة وعدم مقدرتهم على المحافظة عليها، والسمّو والارتقاء بها إلى مصاف العصر، فلذلك كان لابد من التجديد الداخلي لهذه الهويات والثقافات، بما يكسبها المزيد من الحماية والمناعة والتحصُّن.

ومن أهم خطوات المجابهة الفعلية التي ينبغي على الشعوب المسلمة، أن تتخذها لمواجهة أيّ اختراق على مستوى الثقافة والهوية، لكي تكتسب المناعة الحضارية والتحصّن الذاتي، هو العمل على زيادة الوعي، تحصيناً للذات المسلمة من الانحرافات الفكرية، وتقوية الجانب الروحي في الشخصية المسلمة، وتوثيق الروابط بين الخالق والعبد، وخلق أجواء روحية في المجتمع المسلّم. فبهذا وقف الجيل الأول من هذه الأمّة بوجه كل اخترق فكري وواجهه، وبهذا يستطيع هذا الجيل أن يقف ويتصدى لاختراق العولمة الثقافية.

---

(١) مراجعات في الفكر والدعوة والحركة: عمرو عبيد حسنة / ص٨٧ / مصدر سابق .

ثالثاً.. تبني ثقافة المقاطعة :

ليس صحيحاً أن يُلقى العبء في كل أمر على الحكومة والمؤسسات الرسمية، ذلك أنّ هناك أموراً كثيرة لا تستطيع تلك الحكومات أو المؤسسات الرسمية اتخاذها أو تنفيذها- لأي سبب من الأسباب- أمورٌ لا تستطيع إلاّ الجماهير اتخاذها والعمل بها، إذا ما آمنت بها وأرادت فعلاً أن تُنفِذها، ومن أبرز وأهم تلك الأمور هي (المقاطعة)، مقاطعة أي شيء في أي مجال من مجالات الحياة، بمقاطعته ينزال أو يخف تهديده لديننا، لأمتنا، لحضارتنا، لقيمنا، لهويتنا، لثقافتنا، ولخصوصياتنا، بُدءاً من عالم الأفكار وحتى رغيف الخبز.

ويوضح لنا العلامة يوسف القرضاوي هذا الأمر، فيقول: « فنحن لا نستطيع أن نجبر الحكام على السياسية التي نريدها، إنّما نستطيع أن نقوم بواجبنا الذي لا يجبرنا عليه أحد، ونحن أحرار فيه ومختارون »[(١)].

فعلى سبيل المثال يتضح لنا جدوى المقاطعة الاقتصادية، إذا ما قامت بها الشعوب المسلمة، حيث يُقدِّر الأستاذ أحمد جويلي الأمين العام لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية حجم الأموال العربية المتواجدة في الخارج والمستثمرة فيه بنحو (٢٤٠٠) مليار دولار[(٢)]. فيا ترى ماذا لو سحب أصحاب رؤوس الأموال أموالهم من باب المقاطعة الاقتصادية والاعتراض والاحتجاج على السياسات الغربية الجائرة المتبعة تجاه أمّتهم الإسلامية وقضاياها، فضلاً عن استثمارها في بلدانهم

---

(١) العولمة والسيطرة على الثقافة : يوسف القرضاوي / مصدر سابق .

(٢) ينظر: كلمة الدكتور مجدي قرقر الأمين العام المساعد لحزب العمل المصري التي قدمها أمام مؤتمر الأحزاب العربية الذي عقد في دمشق (٢٠٠٢) / نقلاً عن: ثقافة المقاطعة ضرورة عملية لمواجهة الهيمنة / يوسف البجيرمي/ من على موقع المركز الفلسطيني للإعلام على الشبكة: www.palestine-info.info

العربية والإسلامية، والتي هي في حاجة ماسة إليها. بكل تأكيد إن مثل هكذا إجراء- والذي هو منوط بأصحاب رؤوس الأموال هذه وليس بيد الحكومات أو المؤسسات الرسمية - سيؤثر بصورة كبيرة على اقتصاديات تلك الدول- المعروفة - التي تودع فيها هذه الأموال، والذين سيضطرون لتغيير سياساتهم والاستجابة للمطالب، أو على الأقل تقديم التنازلات والتخفيف من حدة العداء.

لقد أثبتت سياسة المقاطعة من قبل الشعوب أنّها سياسة ناجعة وفاعلة، وأنّها تحقق المرجو منها، نجد هذا في نوع آخر من أنواع المقاطعة وهي المقاطعة الثقافية، والتي لا تقل أهمية وخطورة عن المقاطعة الاقتصادية بل وتزيد، حيث تستطيع الشعوب من خلالها أن يؤدوا عملاً كبيراً ومهما في مواجهة الهيمنة الثقافية الغربية الأمريكية التي تريد أن تفرض على العالم ثقافتها بِاسم العولمة الثقافية.

ومن الأمثلة على المقاطعة الثقافية الناجحة، ما قام به الجمهور التونسي في مهرجان قرطاج السينمائي في دورته التاسعة عشرة (٢٠٠٢م) عندما قاطعوا فيلماً تونسياً عُرِضَ داخل الكيان الصهيوني، حيث تجمع عشرات الشبان من نشطاء نوادي السينما التونسية وعشرات الطلبة الذين تشبعوا بروح المقاومة، أمام قاعة العرض التي تستقبل فيلم (فاطمة) المذكور، مطالبين الهيئة المنظمة بإلغاء عرض الفيلم في الدورة واصفين المخرج بأنّه عميل، ورافعين شعارات ترفض كل أشكال التطبيع مع الدولة العبرية...واعتصم الشبان قرابة ساعة أمام قاعة العرض رافضين السماح بعرض الفيلم، وكادت أن تحدث مصادمات مع قوات الأمن التي حضرت بكثافة، لولا قرار الهيئة المنظمة بسحب الفيلم من الدورة، وإعلام المحتجين بذلك رسمياً، وهو ما عدّه الملاحظون نجاحاً لدعاة المقاطعة[١].

---

(١) ينظر: ثقافة المقاطعة ضرورة عملية لمواجهة الهيمنة : يوسف البجيرمي/ مصدر سابق.

وبهذا نصل إلى حقيقة أنّ ثقافة المقاطعة هي ركن أساسي وحيوي في ثقافة المقاومة، وثقافة المقاومة يجب تسبق قرار المواجهة، وقرار المواجهة هذا ليس مجرد خيار يطرح أمام الشعوب المسلمة، ولكنه ضرورة لازمة وعملية لمواجهة الهيمنة، ولا بديل عنها إلاّ تكريس التبعية أو إعادة إنتاج التخلف بكل أشكاله.



الفصل الخامس
حاجة الإنسانية للرسالة الحضارية
للدين الإسلامي



درج الكتاب والمثقفون العرب والمسلمون عامة ، وكتاب ومنظرو الحركات الإسلامية خاصة ، في المائة سنة الأخيرة على نقد الحضارة الغربية نقداً لاذعاً ، ووصفها بالضعف والفساد والخور، وإنّها تمثل حضارة الرذيلة وسقوط الأخلاق ، وأنّها حضارة منهارة من الأساس[1].

ولكننا إذا نظرنا إلى الواقع ، وإلى حقيقة ما عليه الحال ، فإنّ هذا الحكم ليس صحيحاً تماما ، وهو من ثم يحتاج إلى إعادة نظر فيه.

ولقد أدرك الرئيس البوسني علي عزت بيجوفيتش ، خطأ هذه الفكرة وصححها بقوله : ‹‹ إنّ الغرب ليس فاسداً كله ، لأنّ القوة لا تجتمع مع الفساد ››[2].

نعم إنّ الحقيقة التي نغمض أعيننا عنها عمداً تارةً ،وغفلة تارةً أخرى، هي أنّ الحضارة الغربية التي تبسط جناحيها على العالم منذ أكثر من ثلاثة قرون،

---

(١) من ابرز و اشهر الكُتّاب الإسلاميين الذين هاجموا الحضارة الغربية هجوماً عنيفاً ووصفوها بهذه الأوصاف وكتبوا عنها بهذه المعاني وبهذه الروح ، الشهيد سيد قطب في عدد من كتبه من مثل كتاب (العدالة الاجتماعية في الإسلام) وكتاب (معركة الإسلام والرأسمالية) ، وكتاب (السلام العالمي والإسلام) وكذلك الشيخ أبي الأعلى المودودي . أمير الجماعة الإسلامية في باكستان في عدد من كتبه أيضاً من مثل كتاب (الحجاب) .
ينظر : سيد قطب : صلاح عبد الفتاح الخالدي / دار القلم / دمشق / ط(١) /٢٠٠٠م/ ص٣٨٢ / ٤٠٨ / وينظر أيضاً : الحجاب : أبو الأعلى المودودي / دار الفكر/ دمشق / بدون(ت) / ص٥٩-١٠٠ .

(٢) من محاضرة له ألقاها في الرياض / ٦- ديسمبر- ١٩٩٧م / بمناسبة انعقاد المؤتمر العام السادس للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة / ايسيسكو/ نقلا عن : الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري .. طبيعة التحدي الحضاري المعاصر: عبد العزيز بن عثمان التويجري من على الموقع **www.isesco.org.ma**

حضارة قوية ، وحضارة مبدعة، وحضارة تسمو بالعقل البشري ، وتحترم الإبداع، وتَنزَع نحو الدقة والنظام والانضباط ، واحترام الوقت ، وتقوم على تسخير الطاقة الكامنة في الإنسان ، وفي الكون ، وفي الطبيعة ، لتعمير الأرض وإسعاد الإنسان – وإن مِنَ الناحية المادية دون الروحية – وإنّ قوة الغرب هذه إنّما تنبع من قوة حضارته ، وهي قوة العلم الآخذ بأسباب التدبير الرشيد للموارد، والتسيير المحكم لشؤون الحياة، والتعمير في الأرض(١).

ولقد استطاعت الحضارة الغربية بسبب من أخذها العلم منهجاً وأسلوباً لإدارة شؤون الحياة كلها ، وبوساطة تقدُّم العلوم المادية البحتة، وتطبيقاتها التكنولوجية المختلفة، أن تمنح البشرية قدرات وإمكانيات لم تمنحها حضارة أخرى قبلها ، ووفرت للإنسان وسائل وأدوات وأشياء ما كان يحلم بها في نوم ولا في يقظة.

وإنّ الحضارة الغربية هي اليوم أقوى حضارة عالمية سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وعلمياً ، ومنذ زمن ليس بالقصير ، ومن المتوقع أن تستمر هذه الحضارة في فرض سيطرتها وهيمنتها على العالم لزمنٍ أطول ، إذ لم تكتمل ولم تنضج بعد الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى سقوط هذه الحضارة وانهيارها وتلاشيها – على الرغم من وجود علامات ومؤشرات هذا السقوط – وهذه كلها حقائق يجب علينا الاعتراف بها.

وعليه فإنّ كتاباتنا وأدبياتنا العربية والإسلامية – بالذات – التي تتحدث عن سقوط الحضارة الغربية وضعفها وفسادها وقرب انهيارها وتلاشيها ، تصبح بلا

---

(١) ينظر: الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري ، طبيعة التحدي الحضاري المعاصر:عبد العزيز بن عثمان التويجري / مصدر سابق .

قيمة ولا طائل يرتجى من ورائها – فضلاً عن انعكاس سلبياتها وآثارها علينا – وذلك لأسبابٍ عدة :

الأول : إنّ الانشغال بسب وشتم الحضارة الغربية ووصفها بالفساد والخور والضلال المبين ، والتبشير بقرب زوالها ، من شأنه أن يغرس لدى المسلمين صفة الإتكالية ويوفر عليهم عناء الاستعداد والمواجهة ، ويشغلهم عن القيام بالدور الحضاري المطلوب منهم وهو قبول وممارسة سنة التحدي والتدافع الحضاري، والتي نستنبطها من قوله ﷻ : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[1]. وأيضاً من قوله ﷻ: ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[2].

‹‹ فبما أن لكل مجتمع حضارته التي تميزه عن غيره ، فعليه تكون الحضارة بهذا المعنى ، تحدٍّ دائم لعوادي الأيام ، ولمشكلات الحياة ، ولعناصر التلاشي والفساد ، ولعوامل النقص والعجز ... فما من حضارة إلاّ وهي تتحدى على الدوام ، مِن أجل أن تبقى ، فإذا لم تتحد ، تراجعت وتضاءلت وانهارت مثلما انهارت حضارات قامت وسادت ثم بادت ››[3].

الثاني: إن هذا الأمر هو ليس من شأننا ولا من مهماتنا ولا من واجبنا، وإنّما هو مِن اختصاص أهل تلك الحضارة فقط، وصدوره منّا لا يعني شيئاً كثيراً بالنسبة لهم، ولا يؤثر فيهم، بخلاف ما إذا صدر منهم هم أنفسهم وبالأخص من عباقرتهم وفلاسفتهم ومفكريهم، عند ذلك يكون وقعه شديد عليهم. وهذا ما هو

---

(١) سورة آل عمران / من الآية (١٤٠) .

(٢) سورة البقرة / من الآية (٢٥١) .

(٣) الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري .. مفهوم الحضارة:عبد العزيز بن عثمان التويجري/ مصدر سابق.

حاصل فعلاً، حيث أخذ تيار النقد يتنامى مِن داخل الحضارة الغربية، وعلى مستوى نماذج فكرية وعلمية مختلفة من قمة مجتمع النخبة في الغرب، من أمثال اوزوالد اشبنغلر في كتابه الشهير (**تدهور الحضارة الغربية**)، وارنولد تويينبي في كتابه (**الحضارة في الميزان**)، و البيردوما في(**انحطاط أوربا**)، ودانييال هاليفي في (**انحطاط الحرية**)، وكولين ولسن في (**سقوط الحضارة الغربية**)، وروبير آرون وارنود دآنديو في (**انحطاط الأمة الفرنسية**).. وغيرهم الكثير من عباقرة الغرب(١).

وليس هذا فقط وإنّما ظهر من داخل الغرب نفسه، من يحذر من تبني النموذج الغربي واعتماده في الإنماء وصنع التقدم، ويطالب المجتمعات والأمم غير الغربية بأن تكشف لنفسها نموذجها الخاص في صنع التقدم من داخل بيئتها وهويتها وخصوصيتها، من غير النظر إلى الغرب على أنّه النموذج الوحيد للتقدم في العالم(٢).

الثالث : إنّ الاستمرار في سب وشتم الحضارة الغربية ووصفها بأنّها تمثل وتُجسد حضارة الرذيلة والجريمة وتفكك الأسرة وانعدام الأخلاق وبشكل استفزازي، استعدائي، إنّما يثير العداء والكراهية ضدنا ، خاصة إذا ما ظهر هذا النقد مِنّا- نحن المسلمين-على احتساب أننا نمثل الندّ المكافئ والمنافس القوي لهذه الحضارة على تبوء منصب الزعامة العالمية ، وهذه حقيقة يجب علينا أن نعيها جيداً . فالغرب بدأ يحسب للعالم الإسلامي حساباً دقيقاً ، وتُبذَل حالياً جهود علمية وأكاديمية كبيرة في رصد كل ما يجري في بلداننا العربية والإسلامية، ولا تخفي دوائر

---

(١) ينظر: مأزق اللبرالية .. نهاية التاريخ نموذجاً : سهيل عمروسي / مجلة الفكر السياسي/ العدد(١٥) / خريف ٢٠٠١م وشتاء ٢٠٠٢م / من على الموقع : www.awu-dam.org

(٢) ينظر: تعارف الحضارات:زكي الميلاد مجلة رسالة التقريب/العدد(٢٤)/ من على الموقع: www.taghrib.org

الدراسات الستراتيجية في الغرب تخوّفها من الإسلام وحضارته،واعتقادها بأنّ العالم الإسلامي يمثل تحدياً مستقبلياً للحضارة الغربية وخاصة في عالم ما بعد الحرب الباردة،وهذه الفكرة هي محور نظرية(**صِدام الحضارات**) التي بات الغرب والغرب الأقصى- على الأخص -يؤمن بها ويسير على نهجها[١].

يقول أحد مفكري الغرب: ‹‹ هناك ضرب فريد من تحديات السياسة الخارجية والأمنية لفترة ما بعد الحرب الباردة التي يواجهها الغرب، وهو ضرب له بعد إسلامي . ولكن هذا لا يعني تلقائياً أنّ الإسلام ذاته يمثل تحدياً موحداً أمام الغرب . بيدَ أنّ قوة وتباين أسباب قلق الغرب واحتمال أنّ تتداخل أسباب القلق هذه مع تصورات المسلمين،إنّما تسير إلى مستقبل يرجح فيه أن يعدوا العامل الإسلامي أكثر بروزا في الشؤون الدولية العامة ، وفي الأمن الغربي بخاصة ››[٢].

على إننا -بعد كل هذا- لا نستطيع أن نُنكر أنّ هناك أزمة عميقة وخطيرة تعصف بالحضارة الغربية المعاصرة، تتجلى في أزمة القيم والمبادئ والسلوك والأخلاق، والانحرافات الفكرية والعقائدية وما ينتج عنها، والتي ترجع إلى طغيان الجانب المادي والمصلحي على الجانب الروحي والقيمي .

فالمجتمع الغربي المعاصر – كما يصفه مراد هوفمان[٣]– هو: ‹‹أول مجتمع

---

(١) ينظر صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي الجديد : صومائيل هنتنغتون / ص٤٢٥-٤٤٣ / مصدر سابق .

(٢) الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة،المعضلات العصرية التي يفرضها العالم الإســلامي على الغرب : جراهام أي.فوللر ، وأيان أو.لير/ ترجمة : شوقي جــلال / مركــز الأهــرام للترجمة والنشر/ القاهرة /١٩٩٦م / ص٥٩ / نقلاً عن : الأمّة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري : التويجري/ مصدر سابق .

(٣) سفير ألماني سابق اعتنق الإسلام .

يعيش الإلحاد عمليا على أساس معرفي ››[1].

لقد كانت النهضة الأوربية، أو ما يسمى (**ثورة العقل ضد الدين**) حقاً ثورة الفطرة والعقل ضد التسلط والاستبداد الذي كان يفرض على الأوروبيين بأسم الكنيسة والمسيح ! لقد قامت تلك الثورة من أجل أن تُعيد للإنسان إنسانيته وكرامته وحريته التي سلبتها منه الكنيسة، لقد قامت تلك الثورة من اجل النهوض الحضاري والتقدم العلمي ، بدلاً من واقع التخلف والجهل الذي كانت تعيشه أوربا، فأبعدت الكنيسة نهائياً عن مسرح الحياة في أوربا ، بعد إن ذاقت منها الأمرّين. ولكن!.

إنّ رواد تلك الثورة أو النهضة من أمثال ماركس، وفرويد، وداروين ونيتشه، قد ساروا بتلك النهضة في الاتجاه الخاطئ، وبالغوا كثيراً في معاداة الدين، حتى عمموا المفاهيم الخاطئة والمحرّفة التي كانت عليها الكنيسة على الأديان كافة. فكفروا بكل ما هو غير مادي وغير ملموس، وأقاموا حضارتهم على أسس وأفكار مادية بحته من مزاياها أنّها قضت على الاستبداد والكبت والظلم والجهل الذي فرضته الكنيسة وأطلقت الحرية للإنسان بصورتها المطلقة. فكانت نتيجة ذلك أن وقعت في متاهة من نوع آخر عندما أساءت فهم معنى (الحرية) .

‹‹ لقد تحول انعتاق الحركة التنويرية في القرن التاسع عشر من سلطة الكنيسة إلى انعتاق من الدين نفسه . فلم تنبذ عقائد الكنيسة باعتبارها غير عقلانية ، بل عُدَّ الأيمان بوجود (الله) نفسه أمر غير عقلاني، وبدأت حاكمية (الله) تُستبدل تدريجياً بالحرية الذاتية للبشر، التي أصبحت بذلك الفيصل في قياس كل الأمور.... وعندما أعلن (نيتشه) أخيرا بأنّ (الله) قد مات، فانه لَم يَقتل (الله) بل طرح تشخيصاً مفاده أنّ فكرة الإله قد انتهت وزالت من قلوب الملايين وسوف يستمر

(١) الإسلام والبرود في الغرب : مراد هوفمان / بحث مقدم إلى الندوة الفكرية (الدور الحضاري للأمّة المسلمة في عالم الغد) / ص٥٨١ / مصدر سابق .

الأمر كذلك ... وسرعان ما أدرك الناس أنه إذا كان (الإله) قد مات ، فكل شيء قد صار مباحاً ››[1].

ونتيجة لمفهوم الإرادة الحُرّة، والحقّ الفردي الطبيعي بمعزل عن فكرة الدين. تشير التقارير الإحصائية الغربية إلى إنّه في فرنسا على سبيل المثال، بلغت نسبة الولادة من دون زواج (٤٠%) من مجمل نسبة مواليد ١٩٩٧م، وأنّ أكثر من نصف النساء(٥٣%) يضعن أطفالهن من دون زواج غير شرعي... ممّا يهدد بانقراض الأسرة الفرنسية(التقليدية) بحسب التقرير السنوي للدراسات الديمغرافية في باريس، الذي أكدّ أنّ الزواج أصبح عادة (روتينية) أقلع عنها الكثيرون[2].

وقد بلغت معدلات الجريمة الأمريكية على سبيل المثال،وطبقاً لإحصائيات سنة١٩٩٨م ما يلي:

- وقوع جريمة سرقة عادية كل ٣ ثوان .
- وجريمة سطو كل ١٤ ثانية .
- وجريمة سرقة سيارة كل ٢٥ ثانية .
- وجريمة سرقة مقرونة بالعنف كل ٦٠ ثانية .
- وجريمة اغتصاب كل ٦ دقائق ، وجريمة قتل كل ٣١ دقيقة[3].

ويُقدَّر إجمالي كلفة الجريمة العنيفة في الولايات المتحدة (عدا المخدرات) بأكثر من(٧٠٠) بليون دولار سنوياً، وهو مبلغ يفوق إجمالي الدخل السنوي الفردي

(١) المصدر نفسه / ص٥٨٤-٥٨٥ .

(٢) ينظر : الأسرة بين الحداثة الغربية والرؤية الإسلامية : معتز الخطيب / مصدر سابق.

(٣) ينظر: المصدر نفسه .

في نحو (١٢٠) دولة في العالم. ويُقدّر عدد المتعاطين للمخدرات بنحو (١٢) مليون شخصاً في أمريكا وحدها[1].

هذا فضلاً عن السياسات العدوانية الإجرامية التي نهجتها في السابق الأنظمة الغربية – وما زالت تنتهجها لغاية اليوم – ضد دول وشعوب العالم المختلفة، والتي يتحدث عنها الباحث الفرنسي المسلم عبد الحليم هربرت بقوله: «لقد قام الغرب على أساس منطق نفي وتدمير الحضارات الأخرى ، فكان قيام أسبانيا – وهي أول قوة غربية معاصرة تقوم في أوربا– حصيلة حرب دامت لأكثر من أربعة قرون،وأسفرت في عام ١٤٩٢ م عن تدمير الأندلس التي كانت تعد واحدة من أهم نقاط الإشعاع الحضاري في العالم في ذلك الوقت. وفي نفس العام أيضاً قامت أسبانيا بغزو القارة الأمريكية، وخلال قرن واحد فقط لم يبق من مجموع (١٠٠) مليون نسمة وهم السكان الأصليون للقارة عند وصول الأوربيين سوى (١٠) ملايين نسمة،فالغزو قد أهلك تسعة أعشار السكان . وتقوم أسبانيا وفرنسا وإنكلترا وهولندا بعد ذلك بتنظيم تجارة العبيد للتعويض عن نقص القوى البشرية في القارة الأمريكية، بعد المجازر التي ارتكبها الأوربيون ضد سكان القارة الأصليين من الهنود الحمر. فتمّ شراء ونقل (١٠٠) مليون أفريقي من القارة السوداء إلى القارة الجديدة »[2].

وما الذي جرى وما زال يجري في فلسطين والشيشان وكوسوفا والبوسنة وأفغانستان وأخيراً ولا يبدو انه آخراً العراق، إلاّ استمرار من هذه الأنظمة في

---

(١) ينظر : المصدر نفسه .

(٢) مجلة الطليعة الإسلامية : صدرت في لندن وتوقفت / العدد(١٥) / ١٩٨٤م / نقلا عن: تعارف الحضارات : زكي الميلاد / مصدر سابق .

انتهاج هذه السياسات العدوانية الظالمة وهذا المنطق المجحف ضدّ دول وشعوب العالم .

وبكل تأكيد إن استمرار الغرب في هذا النهج سوف يزيد من حالات العداء والشعور بالحقد والكراهية للغرب بل لكل ما يمت للغرب بصلة. وقد يأتي يوم يفلت فيه زمام الأمور، وينطلق المظلومون إلى القيام بأي شيء وبكل شيء من أجل الدفاع عن أنفسهم وكرامتهم وشعوبهم وهويتهم . ولرُبّما تكون حادثة (**الحادي عشر من سبتمر سنة ٢٠٠١م**) الشهيرة من تداعيات هذا الموضوع – بغض النظر عن ملابسات الحادث وأسراره المجهولة لغاية اليوم – .

ولقد بات الغرب يدرك تماماً هذه النقطة – أكثر من أي وقت مضى – ولهذا نجد أن هناك توجسا دائما في الغرب، من أنّ انبعاث الحضارات وتصاعدها ، قد يدفع بهذه الحضارات إذا وصلت إلى مرحلة من التقدم والقوة يمكنها من الانتقام مما قام به الغرب من تدمير وعدوان ونهب لهذه الحضارات في القرون الماضية وإلى اليوم(١).

إنّ مثل هذه الأرقام والإحصائيات والحقائق لا بُدّ مخيفة ومرعبة وتُشكّل جرحاً عميقاً في جسد الحضارة الغربية المعاصرة. ولكنها ليست النهاية بالتأكيد ؟! وإنّ تركيزنا نحن– المسلمين– في حديثنا عن الغرب ومعه على هذه المسائل أو على نقاط الضعف هذه – بزعمنا – لايعني شيئاً كثيراً لنا ولا يُؤثِر فيهم أيضاً،وللأسباب التي سبق ذكرها.

فيجب أن نُفرّق في حديثنا عن الغرب بين الشعوب والأنظمة، وأن نعتقد بأنّ الإجراءات المتعسفة والويلات والحروب والمظالم التي ذقناها نحن المسلمين خاصة وذاقتها شعوب العالم الأخرى على يد الغرب إنّما كانت بسبب الأنظمة والحكومات

---

(١) ينظر: صدام الحضارات : صموئيل هنتنفتون / الفصل الرابع والتاسع / مصدر سابق.

المتعصبة المتعنصرة التي يقودها أشخاص متطرفون وأشرار وحاقدون ينطلقون من منطلق ديني متعصب أعمى أو من جشع اقتصادي ليس له حدود. ونظرة إلى كتاب **(النبوءة والسياسية: الإنجيليون العسكريون في الطريق إلى الحرب النووية)** لمؤلفته غريس هالسل، يَتضِح لنا مدى التطرف الديني العميق الذي هُم عليه صُنّاع القرار في الأنظمة السياسية الحاكمة في الغرب، وكيف يُؤثِّر في قراراتهم وسلوكهم وعلاقتهم مع الآخرين(١).

وعليه يكون من الصواب والحكمة ومن مصلحتنا أيضاً في تعاملنا مع الغرب ونظرتنا إليه، ألا نهاجم الحضارة الغربية بهذا الأسلوب القاسي الذي يُظهرها وكأنّها من سقطات التأريخ الإنساني، فهذا الأسلوب لن ينفعنا ولن يضرهم. وأيضاً من الحكمة ومن مصلحتنا ألا نُحمّل شعوب الغرب مسؤولية ما اقترفته أنظمتهم المتعصبة العنصرية بِنا وبشعوب العالم وحضاراته الأخرى، علماً أنّ هذه هي الحقيقة فعلاً. وإلاّ فكيف نفسِّر خروج الملايين في أوربا وأمريكا معارضين ومنددين بالحرب التي شنتها قوّات التحالف على العراق، وأيضاً خروج الملايين في أوربا وأمريكا ما بين فترة وأخرى ليندّدوا بسياسات حكوماتهم في التدخل السافر بالشؤون الداخلية للدول الأخرى - دول العالم الثالث - وأيضاً ضد العولمة وما تجلبه على العالم الفقير الضعيف من ويلات ودمار ، ولمطالبة حكوماتهم بإلغاء ديون الدول الفقيرة.... كلّ هذا وغيره تؤمن وتقوم به شعوب أوربا وأمريكا أصحاب الحضارة الغربية . وإذا كان من نقاط تسجل على تلك الشعوب فبإمكاننا أن نعزوها إلى الجهل بالآخر أو إلى الإعلام المعادي المغرض الذي يتعمد الإساءة،

---

(١) ينظر: النبوءة والسياسة .. الإنجيليون العسكريون في الطريق إلى الحرب النووية : غريس هالسل / ترجمة : محمد السّماك / الناشر للطباعة والنشر والتوزيع / ط(٣) / ١٩٩٠م .

والذي ينقل إلى الشعوب الغربية صورة مُشوَهة ومُزيفة وفيها الكثير الكثير من الكذب والأباطيل عن شعوب العالم الأخرى وبالأخص الشعوب المسلمة .

ثم إننا نحن المسلمين مأمورون بحُسن الخِطاب وحُسن العرض والتفاوض والحوار مع الآخر ومع أهل الكتاب بصورة خاصة . يقول الله ﷻ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]. وأيضاً قوله ﷻ :﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [2]. وقــولـــه ﷻ : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[3] .

فإذا كنّا نحن المسلمين لا نتعامل مع غيرنا بهذا الأسلوب وبهذه العقلية – ونحن المأمورون من ربنا سبحانه وتعالى بهذا – فكيف نطالب به غيرنا ونتهمه بعدمه .

وحول طبيعة علاقتنا مع الغرب يلفت ماجد الكيلاني نَظَرنا إلى حديثين جميلين فيهما وفي جمعها معاً وفي تحليلهما بعد نظر عميق، ومنطق عقلي قويم، وواقعية لا شك فيها.

الحديث الأول : هو قوله ﷺ : (فارس نطحة أو نطحتان ثم لا فارس بعدها أبداً, والروم ذات القرون، أصحاب بحر وصخر كلما ذهب قرن خلف قرن مكانه، هيهات إلى آخر الدهر، هُم لأصحابكم ما دام في العيش خير)[4].

---

(١) سورة الحجرات / الآية (١٣) .

(٢) سورة فصّلت / الآية (٣٤) .

(٣) سورة العنكبوت / الآية (٤٦) .

(٤) مصنف بن أبي شيبه : أبو بكرعبد الله بن محمد / ج(٤) / ص٢٠٦ / مصدر سابق .

والحديث الآخر: «... قال المستورد القرشي ثم عمرو بن العاص، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تقوم الساعة والروم أكثر الناس. فقال له عمرو: أبصِر ما تقول. فقال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ قال: لئن قلت ذلك، إنّ فيهم لخصالاً أربع: إنهم لأحلم الناس ثم فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فَرَّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف. وخامسةٌ حسنةٌ جميلةٌ: وأمنعهم من ظلم الملوك)[1].

يقول الكيلاني: « فالغرب هو التحدي الأكبر لدار الإسلام، وهو تحدٍ عنيد ومستمر، كلما هلك جيل من الغرب خَلِفه جيل آخر ذوي صبر على متطلبات المواجهة وتكاليفها. والأمثلة لهذا العناد والصبر الغربيين أمام المدّ الإسلامي كثيرة ومتنوعة. ولقد تمثلت مظاهرها في الأندلس وصقلية وشرق أوربا، وفي الكَّرات والهجمات المتوالية على دار الإسلام عبر ثغور بلاد الشام ومصر والمغرب العربي، وفي معابر البحر الأحمر والمحيط الهندي. أمّا الخطر الشرقي الذي كانت تُمثله فارس فقد أنهار بعد نطحة أو نطحتين ثم لا فارس بعد... وثمة أمر آخر يشير إليه التوجيه النبوي وهو إيجابية النظر في تحدي الغرب رغم عناده واستمراره. فـــهم (**لأصحابكم ما دام في العيش خير**). ولعل العيش المقصود هنا هو أسلوب الحياة في المجتمع الإسلامي. فما دام هذا المجتمع يلتزم منهج الله سبحانه في العيش وفي توفير أسباب المنعة فسوف يُقدِّر الغربيون الخير في هذا المنهج ويسعون لمصاحبة أهله. أمّا حين ينعكس هذا المنهج في حياة المسلمين فسوف ينظر الغرب إليهم نظرة استخفاف ويعاملونهم بما يستحقون. وهذا يعني أنّ حسم المواجهة مع الغرب يجب أن تقوم على ركني الخير في الاستراتيجية

---

(١) صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج / ج(٤) / ص ٢٢٢٢ / رقـم الحـديث(٢٨٩٨) / مـصدر سابق.

الإسلامية . **الركن الأول** : إعداد ما يُستطاع من قوة ومن رباط الحاملات العسكرية حتى لا يستسهلوا مهاجمة دار الإسلام . **والركن الآخر** : هو حسن عرض الإسلام بالفكر والتطبيق ، وهو ما يتفق مع مستوى التفكير الغربي الذي يتمتع بكثير من الخصائص الإيجابية في هذا المجال . **والإشارة الثالثة هنا** : هي أنّ العقل الإسلامي لا يبحث في الغرب عن السلبيات فقط ، وإنّما يرى الايجابيات ويعترف لهم بها " **فهُم أحلم الناس** " في مواجهة المشكلات ، وأسرعهم نهوضاً بعد النكسات، وأوشكهم كَرَّةً بعد هزيمة ، وخيرهم في توفير الضمان الاجتماعي للمساكين والأيتام والضعفاء ، وصفة خامسة جميلة وهي تمسكهم بالديمقراطية والحرية ومناعتهم ضد الملوك والرؤساء ››[1].

وعليه فان المنهج السليم – برأي الباحث – في تحديد علاقتنا وفي أسلوب خطابنا مع الحضارة الغربية العالمية المعاصرة ، يجب أن يتركز على الأمور الآتية :

الأول: فضح السياسة الخارجية العدوانية للأنظمة والحكومات الغربية وتدوين وتوثيق جرائمهم وانتهاكاتهم لحقوق الإنسان ، ونهبهم للثروات في تلك الدول التي يتدخلون في شؤونها أو يغزونها تحت حجج وأعذار شتى . والسعي ما أمكن لإيصال هذه الحقائق إلى الشعوب الغربية ، ونشرها بينهم .

الثاني : السعي لإقناع الغرب بأنّ حضارته تعاني من أزمات ومشاكل وأمراض خطيرة قد تؤدي بها إلى الهاوية ، وذلك من باب النصيحة والتعاون الحضاري الإنساني . بدلاً من تعييره بهذه الأمراض والأزمات وبالتالي استفزازه وكسب عدائه والنتيجة هي إصراره على مواصلة أخطائه وانحرافاته ، والانغماس في الغي

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس : ماجد عرسان الكيلان / ص٣٠٧-٣٠٩/مصدر سابق

والضلال والظلم والإجرام ، مما يؤثر على أهل هذه المعمورة سلباً، كَون الحضارة الغربية الأقوى والأعظم في العالم اليوم .

ويجمع العلامة القرضاوي مشاكل الحضارة الغربية في خمسة أمور ، هذه الأمور الخمسة نستطيع أن نعدها من سمات هذه الحضارة ، وهي :

١ – الغبش في معرفة الألوهية ، فليست رؤية الفكر الغربي الذي قامت عليه الحضارة الغربية ، رؤية صافية تُقدِّر (ﷻ) حقّ قدره ، وإنّما هي رؤية غائمة ومضطربة .

٢ – النزعة المادية ، وهي التي تؤمن بالمادة وحدها لتفسير الكون والمعرفة والسلوك ، وتنكر الغيبيات وكل ما وراء الحس .

٣ – النزعة العلمانية، وهي ثمار الخصيصتين السابقتين ولوازمها، وهي تلك النزعة التي تفصل بين الدين والحياة الاجتماعية .

٤ – الصراع ، فهي حضارة تقوم على الصراع، لا تعرف السلام، ولا الطمأنينة، ولا الحُب، إنهّ الصراع بين الإنسان ونفسه، صراع الإنسان والطبيعة، صراع بين الإنسان والإنسان وصراع بين الإنسان والإله ! .

٥ – الاستعلاء على الآخرين وهي نزعة تسري وتتحكم في عقول الغربيين كافة ، فهم يعتبرون أنّهم أفضل من غيرهم وأنّ الحضارة الغربية هي الحضارة الإنسانية وحدها،ولا يعترفون بحضارة سواها[1].

---

(١) ينظر : الإسلام حضارة الغد : يوسف القرضاوي / مكتبة وهبة / القاهرة / ١٩٩٥م / ص١٣-٢٣ . / نقلا عن : خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل ... الحضارات الكبرى المعاصرة : عبد العزيز بن عثمان التويجري / من على الموقع : www. isesco.org

فإذا ما استطعنا إيصال هذا الخلل الكبير، وهذه الشروخ العظيمة ، التي تعاني منها هذه الحضارة إلى أهلها ، من باب – كما قلنا – النصيحة والتعاون الحضاري الإنساني ، واستعملنا في ذلك حسن العرض وحسن الخطاب وأتقناه – وهو ما يتفق مع مستوى التفكير الغربي الذي يتمتع بكثير من الخصائص الإيجابية في هذا المجال ، كما قال –الكيلاني– فمن المُرَّجح جداً أنّ الغربيين سيُقدّرون ويثمنون هذا العمل وهذه النصيحة ، وأن تنفتح بذلك آفاقاً واسعة للتعارف والتعاون والحوار . ولكن هذا كله لا يَصِح ولا يتم إلاّ بشريطة أن ... ! ؟ .

الثالث: أن نرسم صورة مُشرِقة ومُشرفة للإسلام والمسلمين ، فلا يُعقل أن نتوقع مِنَ الآخر أن يسمع أو يأخذ مِنّا ونحن على هذا المستوى من الضعف والتخلف في كل مجالات الحياة ، بل نحن ضعفاء حتى في المجال الذي من المفترض أننا متفوقون فيه ونطرحه كدواء لغيرنا وهو المجال الروحي والقيمي . وهذا طبعاً لا يتم إلاّ بزراعة الثقة في نفوس العرب والمسلمين بأنّهم أصحاب حضارة أصيلة ومبادئ سامية ، وأنّ الرسالة الحضارية أو الرؤية الحضارية للدين الإسلامي رسالة ورؤية متكاملة تملك الحلول لكل ما يعاني منه الغرب من الأمراض الحضارية الروحية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية... الخ. وأن نوقن بأنّ الإنسانية في حاجة ماسة للرؤية الحضارية للدين الإسلامي .

فنحن–حسب تعبير مراد هوفمان– : « أصحاب رسالة يجب أن يصغي لها الجميع »[1]. ولا بُدّ لتحقيق هذا أن نثبت لأنفسنا – أولاً – وللآخرين بأننا نستحق هذه المكانة التي نبتغيها ، وهذا الادّعاء الذي ندّعيه . وللوصول لهذه الغاية، لا بُدّ

(١) الإسلام والبرود في الغرب : مراد هوفمان / ص٥٩٥ / مصدر سابق .

– كما يقول محمد أسد– : ‹‹ إذا أردنا أن نُجبر أوربا على احترامنا ، فعلينا أن نثبت لهم بأننا أقوياء ››[١].

وليس عندي أدنى شك في أنّ القوة المقصودة هنا ، هي قوة العقيدة وقوة الأيمان ، وقوة الأخلاق ، وقوة العلم ، وقوة الثقافة ، وقوة الاقتصاد ، وقوة السلاح... الخ .

وعليه فيجب أن تكون مشاركتنا – نحن المسلمين – في هذا البناء الحضاري الإنساني من موقع النِدّية والاقتدار ، لا من موقع التبعية والانهيار ، وإلاّ فهذا لا يُسّمى مشاركة وإنّما يُسّمى هزيمة واستجداء وتملق واعتراف بالفشل . ‹‹ فيجب أن ينظر إلى المسلمين ليس على أساس أنهم مجموعة تطلب شيئاً ، بل على أساس أنّهم أناس لديهم شيء جوهري يمكنهم تقديمه ، شيء يفتقده الغرب دون أدنى شك ، ويحتاج إليه إذا أراد لحضارته البقاء ››[٢].

وهذا هو عين ما يذهب إليه الرئيس الفرنسي الأسبق (**شارل ديغول**) الذي يشخص أزمة الحضارة الغربية ويحدد لها ملامح العلاج ، بفكر وعقلية تدل على نفاذ الرؤية وعمق البصيرة ، فيقول : ‹‹ إن مجتمعاتنا الأوربية فقدت شيئا ثمينا جدا تحت وطأة تقدمها الضخم ، ألا وهو (**الإنسانية**) ، وأعني بها القيم البشرية العليا. فقد قطعت حضارتنا تلك الصلة المعنوية التي تربط البشر بعضهم ببعض . لقد جَفّ شعورنا وتجمدت قيمنا الأخلاقية وانحلت ... وأعتقد أنّ اتصالنا بالمجتمعات العربية

(١) الإسلام على مفترق الطرق : محمد أسد / ص٦٢ / مصدر سابق .

(٢) الإسلام والبرود في الغرب : مراد هوفمان / ص٥٧٩-٥٨٠ .

والإسلامية التي حافظت على تلك الروح الإنسانية التي فقدناها سينقذنا من مَغبات حضارتنا وسيكون مفيداً لنا جداً ››[1].

إنّ ما يطرح اليوم من مصطلحات على الساحة الفكرية العلمية ، من مثل (**حوار الحضارات**) و(**حوار الأديان**) و(**حوار الثقافات**) و(**والتفاعل الحضاري**) و(**التثاقف الحضاري**) .... الخ ؛ فمثل هذا النوع من الحوار ، لا تكتمل عناصر النجاح فيه ولا يعد طرحاً جدياً ، أو خطوة جدّية نحو الأمام ، إلاّ إذا كان هناك اعتراف متبادل من الطرفين أو أطراف الحوار بالآخر ، وأيضاً يجب أن يتوفر هناك شرط الندية والتكافؤ والإرادة المشتركة من الجميع في الخروج من هذا الحوار بنجاح .

ويذهب المفكر الإسلامي (زكي الميلاد) – صاحب نظرية تعارف الحضارات – إلى ضرورة استخدام واعتماد الحضارات المختلفة لمصطلح ومفهوم (التعارف) قبل (الحوار) أو (التفاعل) أو (التثاقف) أو حتى (الصدام والصراع). مستنداً في نظريته تلك على الآية القرآنية الكريمة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[2].

فيقول بهذا الشأن : ‹‹ إنّ تعارف الحضارات يُعَد بمثابة الطريق الثالث الذي هو بحاجة إلى اكتشاف في مقابل ما يطرح في الغرب من (**صِدام الحضارات**) و(**حوار الحضارات**)، فمن غير أن تبدأ الحضارات من التعارف ، فلن

---

(١) الإسلام وأزمة الحضارة في ضوء الفقه الحضاري : عمر بهاء الدين الأميري / مؤسسة الشرق للنشر والترجمة ط(١) / ١٩٨٣م / ص٢١ ./ نقلا عن : أزمة الحضارة المعاصرة وسبل معالجتها : سالم أحمد محل / بحث مقدم لندوة (الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد) / ص١٨٦ / مصدر سابق .

(٢) سورة الحجرات / الآية (١٣) .

تتخلص من رواسب الصدام وتصل إلى حوار الحضارات..والتعارف هو أحد أرقى المفاهيم، وأكثرها قيمة وفاعلية،ومن أشد وأهم ما تحتاج إليه الأمم والحضارات ، وهو دعوة لأن تكتشف وتتعرف كلّ أمة وكلّ حضارة على الأمم والحضارات الأخرى ، بلا سيطرة ولا هيمنة ، أو إقصاء أو تدمير، والتعارف هو الذي يحقق وجود الآخر ولا يلغيه ، ويؤسس العلاقة والشراكة والتواصل معه لا أن يقطعها أو يمنعها أو يقاومها . وإذا كان من مفهوم الإسلام أو الرؤية الإسلامية للعولمة ، فهو مفهوم التعارف الذي يعني التواصل الكوني والانفتاح العلمي على مستوى الأمم والحضارات وربط هذا المفهوم بوحدة الأصل الإنساني ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾ وبقاعدة التنوع الإنساني ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ وإكرامية التقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾»[1].

ولكن إذا حصل هذا وتعرّف الغرب علينا، فماذا يمكن أن يجد عندنا ، وما الشيء الذي نستطيع أن نعطيه إيّاه ، وهل حقاً يملك الإسلام الحلول والعلاج لما يعاني منه الغرب من الأزمات والأمراض الحضارية ؟

يُشّخِص(**مراد هوفمان**) أربعة عشر مرضاً حضارياً يكاد يفتك بالحضارة الغربية ويودي بها. تتوزع وتتنوع هذه الأمراض، ما بين روحية، وقيمية، وعقدية، وأخلاقية، وفكرية، واجتماعية، واقتصادية، وحتى صحية وبدنية. ويصف لها في نفس الوقت العلاج، من الإسلام[2]. وبدورهِ يؤكد على أنّ الإسلام هو الأمل الوحيد والأخير للحضارة الغربية لتنقذ نفسها ، فيقول: « إنّ ما وصفته– بأمانة–

---

(١) الفكر الإسلامي وقضايا العولمة : زكي الميلاد / مصدر سابق ./ وينظر أيضاً : تعارف الحضارات : زكي الميلاد / مصدر سابق .

(٢) ينظر : الإسلام والبرود في الغرب : مراد هوفمان / ص٥٨١ / مصدر سابق .

يعني أنّ هناك أزمة تعصف بالغرب... والمطلوب هو نموذج ديني جديد لفهم العالم. وقناعتي أنّ الأمل معقود على الإسلام في تحقيق ذلك إن شاء الله... فالإسلام يوفر كل ما هو مطلوب لإنقاذ الغرب على الرغم من السلبيات التي يعاني منها العالم الإسلامي نفسه ››[١].

والشيء ذاته يخاطب به الفيلسوف الفرنسي المسلم (رجاء جارودي) الشعوب الغربية ، ويدعوها إلى التعّرف على الإسلام والتقرب منه أكثر ، وأن يلتمسوا منه الدواء الشافي لما يعانون منه ، نجد هذا في كتابيه (**وعود الإسلام**) و(**الإسلام مستقبلنا**)[٢].

ويسأل الشيخ القرضاوي ، في معرض حديثه عن الدور الحضاري للأمّة المسلمة في عالم الغد ، فيقول : ‹‹ هل يستطيع الإسلام ، ويستطيع المسلمون أن يقوموا بدور المنقذ للبشرية التي تكاد تشرف على الغرق ؟! وبعبارة أخرى : هل لدى أمّتنا (**مشروع حضاري**) تقدمه للبشرية في دورتها المقبلة أو في قرنها الجديد ››[٣] .

ويجيبنا القرضاوي نفسه على هذا التساؤل بالقول: ‹‹ نعم عند امتنا مشروعها الحضاري المتميز... فمما لا ريب فيه إننا أمّة ذات (رسالة حضارية) متميزة، وهي رسالة جامعة، تبدأ بتزكية الفرد، مروراً بإسعاد الأسرة، وإصلاح المجتمع، وبناء الأمة، وإقامة الدولة، وانتهاءً بسلام العالم وخيره، حتى يتحقق

(١) المصدر نفسه– ص٥٨٥ .

(٢) ينظر: مع الأستاذ رجاء جارودي في الحوار والأفكار : عدنان سعدالدين / شركة السرمد للطباعة المحدودة / بغداد / ط(٣) / ٢٠٠٠م / ص٥ .

(٣) حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لامتنا : يوسف القرضاوي / ص ٦٩٦ / مصدر سابق.

قــوله ﷻ لرسوله ﷺ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1]. وقوله ﷺ: (إنما أنا رحمة مهداة)[2].... ولهذا أقول بكل ثقة واطمئنان : نعم لدى أمتنــــا (رســالة حضارية) متميزة تستطيع أن تقدمها للعالم الذي تدل كل الدلائل أنّه في أشد الحاجة إليها، لــو وجدت من يحسن تقديمها إليه ››[3][4].

ومن هنا أرى أنّ علينا أن نتبنى وأن نعتمد في خطابنا الداخلي والخــارجي على فكر جديد يطرح (**الإسلام كحــل**) ولــيس (**الإســلام كبــديل**) . وأرى أنّ اعتمادنا على هذا الفكر في ظلّ الظروف التي نعيشها والمواقع والموازين الدولية ، هو الأنسب والأصح والأنفع لنا ، والأنسب والأصح والأنفع للعصر الذي نعيــشه . وان علينا ترك فكرة (الإسلام كبديل) أو بالأحرى تأجيلها إلى الوقت والظــروف

---

(١) سورة الأنبياء / الآية (١٠٧) .

(٢) المستدرك على الصحيحين : الحاكم / ج(١) / ص٩١ / رقم الحــديث (١٠٠) / مــصدر سابق.

(٣) قد يسأل القارئ الكريم في هذا الفصل عن سبب تحول الحديث من الهوية إلــى الحــضارة ، فأقول انه لا بأس في ذلك ، ما دامت الحضارة أعمق دلالة ، وأوسع معنىً ، وأرحب أفقــاً، وأبعد مدى ، في التعبير عن الروح التي تسري في مجتمع من المجتمعات ، أو كمــا يقــول توينبي: ‹‹ الحضارة تشمل ... ولا يشملها غيرها ››أ . وأيضاً قول الشيخ يوسف القرضاوي: ‹‹ إنّ لكل مجتمع حضارته التي هي جوهر خــصوصياته ومميزاتــه وخلاصــة مقوماتــه ومكوناته ، فالحضارة هي الهوية ››ب.

أ – مختصر دراسة للتاريخ : ارنولد توينبي / ترجمة : محمد فؤاد شبل / مراجعة : محمد شــفيق غربال / الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية / القاهرة / ١٩٦٦م / ج(١) / ص٤٥٥ .

ب– الإسلام وحضارة الغد : يوسف القرضاوي / ص١٥ / نقلاً عن : الأمّة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري .. مفهوم الحضارة : عبد العزيز بن عثمان التو يجري / مصدر سابق .

(٤) حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لامتنا : يوسف القرضاوي / ص٦٩٧ / مصدر سابق .

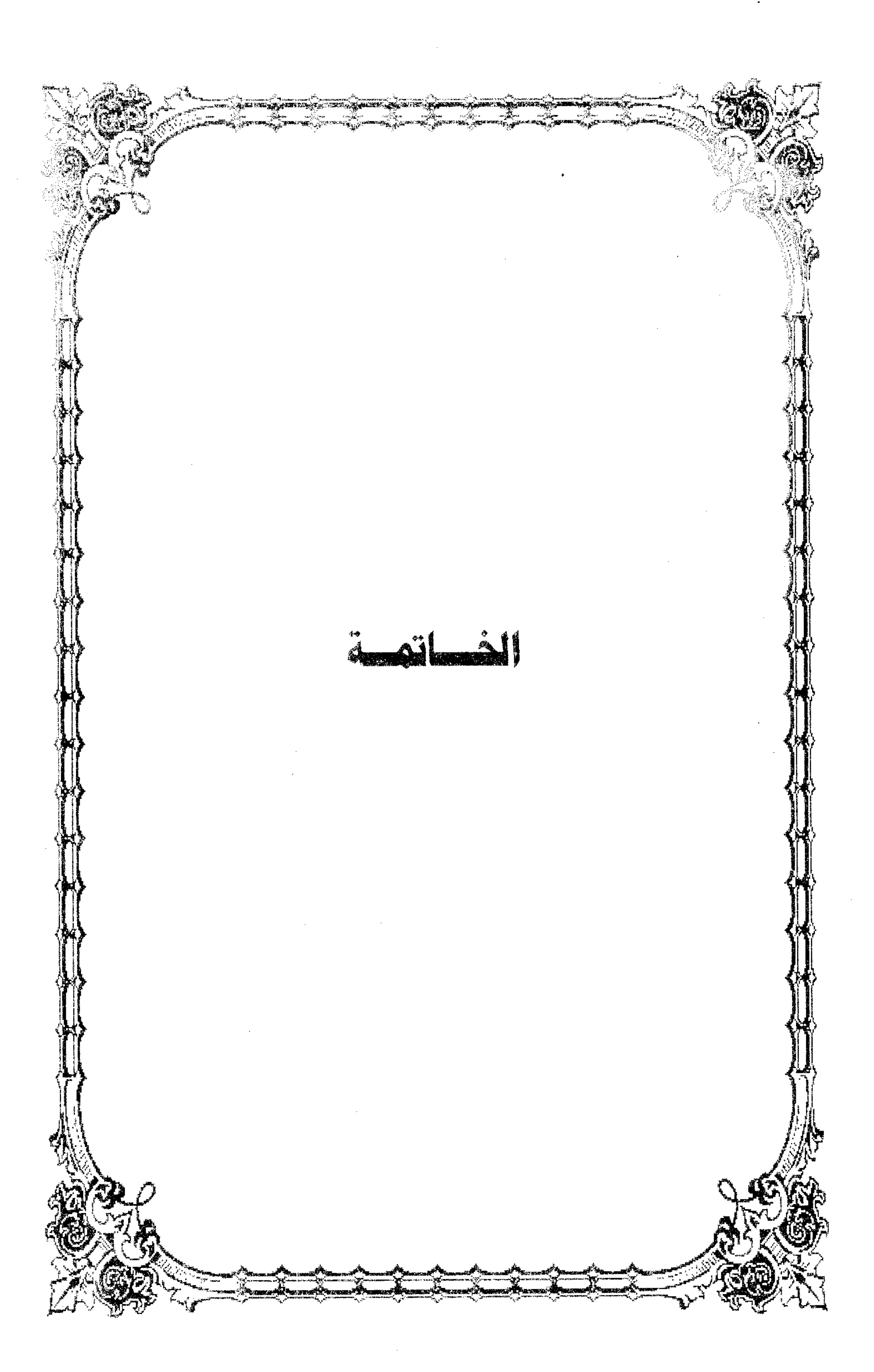
والعصر الذي تكون ملائمة ومناسبة فيه ، والذي هو بالتأكيد ليس عصرنا الذي نعيشه الآن ، وليست ظروفنا التي نواجهها الآن.

إنّ التحدي الأكبر الذي يواجهنا، كوننا أمّة عربية إسلامية هو احتساب الغرب لنا أننا نمثل تحدياً له، يَعد له العُدة الكافية للتعامل معه ولمواجهته بما يحفظ مصالحه الكاملة، وهو الأمر الذي يقتضينا أن نجدد من أسلوب حياتنا، ومن تفكيرنا، ومن خطابنا، بجدية أكثر، وبهمة أقوى، وتمسك واعتزاز أشد وأكبر بهويتنا الإسلامية التي هي حصننا الأخير في هذا الأمر برمته .

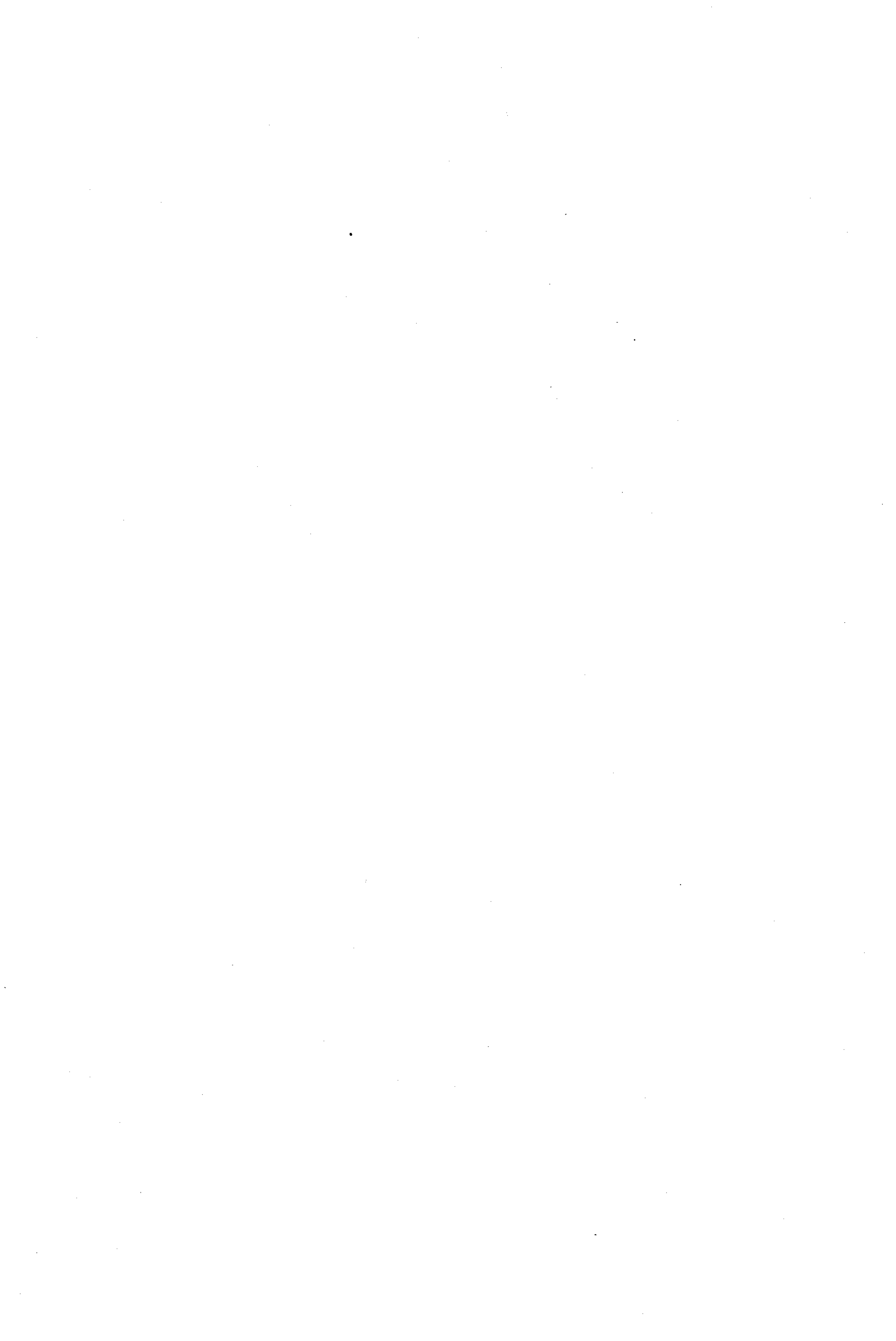
قال الله ﷻ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

---

(١) سورة المنافقين / الآية (٨)



الخاتمة



تُعد قصة (الأميرة النائمة والأقزام السبعة) واحدة من روائع القَصَصَ العالمي التي انتشرت واشتهرت عند الناس على اختلاف لغاتهم وثقافاتهم وحضاراتهم.

في هذه القصة نجد (الأميرة بياض الثلج) الفتاة الطاهرة البريئة المحبة للخير والسلام، ذات القلب الكبير، والعاطفة الجياشة، والجمال الباهر، والصدق والبراءة التي ليس لهما حدود، ونجد أيضاً الساحرة العجوز الشريرة القوية الماكرة الخبيثة التي لا تتردد في القيام بأي عمل مهما كان من أجل الحصول على مآربها وغاياتها ومطامعها التي لا تنتهي. حيث تريد الساحرة العجوز الشريرة أن تزيح (الأميرة بياض الثلج) عن طريقها، لتكون هي الأميرة وحدها وهي الجميلة وحدها وهي الموجودة وحدها، ولا أحد ينافسها أو يشاركها أيّ شيء. وقد حاولت الساحرة الشريرة مراراً وتكراراً وبأساليب وطرق مختلفة، أن تتخلص من (الأميرة بياض الثلج) ولكنها كانت تفشل في كل مرة لسبب أو لآخر. ولكن في هذه المرة دبرّت الساحرة الشريرة خطة محكمة للقضاء على (الأميرة بياض الثلج) بعد أن عرفت نقطة ضعفها وما هي بحاجة إليه. فـ (الأميرة بياض الثلج) كانت تحب التفاح كثيراً ! لذا تنكرت الساحرة الشريرة بزي امرأة تبيع التفاح، وقامت بوضع سم قاتل في نصف التفاحة وأبقت النصف الآخر سليماً، واستغلت الساحرة الشريرة فترة غياب فرسان (الأميرة بياض الثلج) وحماتها وأبطالها والمدافعون عنها وهم (الأقزام السبعة) الذين يشكل وجودهم مع (الأميرة بياض الثلج) وحولها سوراً واقياً لها وحصناً منيعاً وسيفاً صارماً، فلا يتهددها أي خطر لا من الساحرة الشريرة ولا من غيرها. وعندما عرضت الساحرة الشريرة على (الأميرة بياض الثلج) بضاعتها، عندها شعرت (الأميرة بياض الثلج) باللهفة وغمرتها السعادة والنشوة لرؤية التفاح، ولكنّها خافت وترددت في بادئ الأمر، ذلك أنّها تعلم أنّ لها عدّوة

تسعى جاهدة للتخلص منها، وأيضاً لأنّ فرسـانها وحماتهـا (الأقـزام الـسبعة) أوصوها وحذروها بشدّة ألا تفتح الباب لأحد وألاّ تثق بأحـد إلاّ عنـدما يكونـوا موجودين معها، ولكن الساحرة الشريرة أغرت (الأميرة بيـاض الـثلج) بالتفاحـة الحمراء وراحت تحدثها عن لذتها وحلاوتها، وأنّ من يأكلها تتورد خدوده وتتلـون باللون الأحمر الزاهي، ولكي تطمئنها أكثر فان الساحرة الشريرة قضمت قضمة من التفاحة أمام (الأميرة بياض الثلج) وأكلتها ولم يحدث لها شيء، ذلك أنّها أكلت من النصف الصالح من التفاحة الذي تعرفه جيداً .

عند هذا الحد أتوقف في سرد بعض تفاصيل قصة (الأميرة النائمة والأقـزام السبعة) وأقول إن قضيتنا نحن العرب والمسلمون مع العولمة تشبه إلى حـد كبيـر هذه القصة. فـ(الأميرة بياض الثلج) تمثل الأمة العربيـة الإسـلامية. والـساحرة الشريرة تمثل صناع العولمة ودعاتها والمنظرون لها، وأصحاب السلطة والقـرار والقوة في العالم، وأصحاب رؤوس الأموال الطائلة الذين تتجاوز ثرواتهم ما يملكه شعوب قارات بأكملها.

و(الأقزام السبعة) أو الفرسان الذين يحمون (الأميـرة بيـاض الـثلج) ويحرسونها، والذين هم حصنها الحصين وسورها الواقي وسلاحها القوي ، ضد أي خطر يستهدفها، فأنّهم هنا يمثلون دور سلاح الأمّة وسـورها وحـصنها ألا وهـو هويتنا الإسلامية.

أمّا التفاحة الحمراء ذات النصف الصالح والآخر المسموم، فهي تمثـل هنـا دور العولمة بإيجابياتها وسلبياتها. حيث يقوم صـناع العولمـة ودعاتهـا بـإغراء الآخرين بالعولمة وتحسينها وتزيينها لهم ، ووعدهم بأنّهم إذا أخذوا وعملـوا بهـا،

فسوف يتحسن حالهم ويترقى نحو الأفضل - تماماً كما الساحرة الشريرة أغوت (الأميرة بياض الثلج) بالتفاحة - .

وهناك نقطة مهمة ينبغي أن نشير إليها في هذا الجزء بالذات - جزء الأغراء والاختيار من ناحية القبول أو الرفض- فـ(الأميرة بياض الثلج) لم تكن تعرف أنّ التفاحة في أحد نصفيها سم قاتل ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، حتى لو عرفت (الأميرة بياض الثلج) أنّ التفاحة في أحد نصفيها سم قاتل، فليس من السهولة أبداً، أن تعرف أي نصف هو، فالمسألة إذن ليست مسألة اختيار، وهي أيضاً ليست مسألة قبول أو رفض، فـ(الأميرة بياض الثلج) لا تستطيع أن ترفض العرض المغري ، فهي جائعةُ، وهي تحب التفاح وفي حاجة إليه، وأيضاً هي لا تستطيع أن تقبل بسهولة وتوافق لأنّها خائفة أن تكون هذه حيلة من الساحرة الشريرة للتخلص منها. إذن تحتاج (الأميرة بياض الثلج) إلى ذكاء خارق، وشجاعة كبيرة، وتحتاج أيضاً إلى أن يكون سلاحها أو فرسانها وحماتها معها لكي يكونوا عوناً وسنداً لها في هذه القضية الصعبة.

وكذلك قضيتنا نحن- العرب والمسلمون- مع العولمة إنّها ليست مسألة اختيار، نرفض العولمة أم نقبلها، أو أن نختار- هكذا بهذه البساطة والسذاجة- الجزء الصالح منها ونترك الجزء المسموم القاتل. فعلينا أن نعترف بأنّ أخطر ما في العولمة، هو أننا في حاجة إليها، ولا نستطيع أن نرفضها. وإن قبلناها هكذا كما هي، فكأننا وقعنا في الفخ الذي نصبه لنا أعداءنا وشربنا السم القاتل.

ومسألة اختيار الجزء الصالح النافع من العولمة وترك الجزء القاتل السلبي السيئ، تحتاج منا إلى ذكاء كبير، والى حكمة وخبرة وحنكة في التعامل مع هذا الموضوع، نحتاج إلى أن نتسلح بسلاحنا الذي ينفع ويجدي مع هذا النوع من

المخاطر، ألا وهو سلاح الهوية الإسلامية والتمسك والاعتزاز بها وإشهارها وإعلاءها دائماً وفوق كل شيء في هذا الصراع مع العولمة والعولمة الثقافية -على وجه الخصوص- فالموضوع حقيقة يحتاج منا جهاداً كبيراً بكل ما تحمله كلمة الجهاد من معنى، وأن نبحث ونَجِّد ونجاهد من أجل أن نأخذ ما ينفعنا من هذه العولمة وأن لا نغفل أو نترك أبداً الجزء المسموم يؤثر فينا أو يهلكنا.

بقي أن نعرف من تفاصيل قصة (الأميرة النائمة والأقزام السبعة) أن نهايتها كانت مأساوية، فقد استسلمت (الأميرة بياض الثلج) لإغراء التفاحة، وقضمت من النصف المسموم قضمة أودت بحياتها.

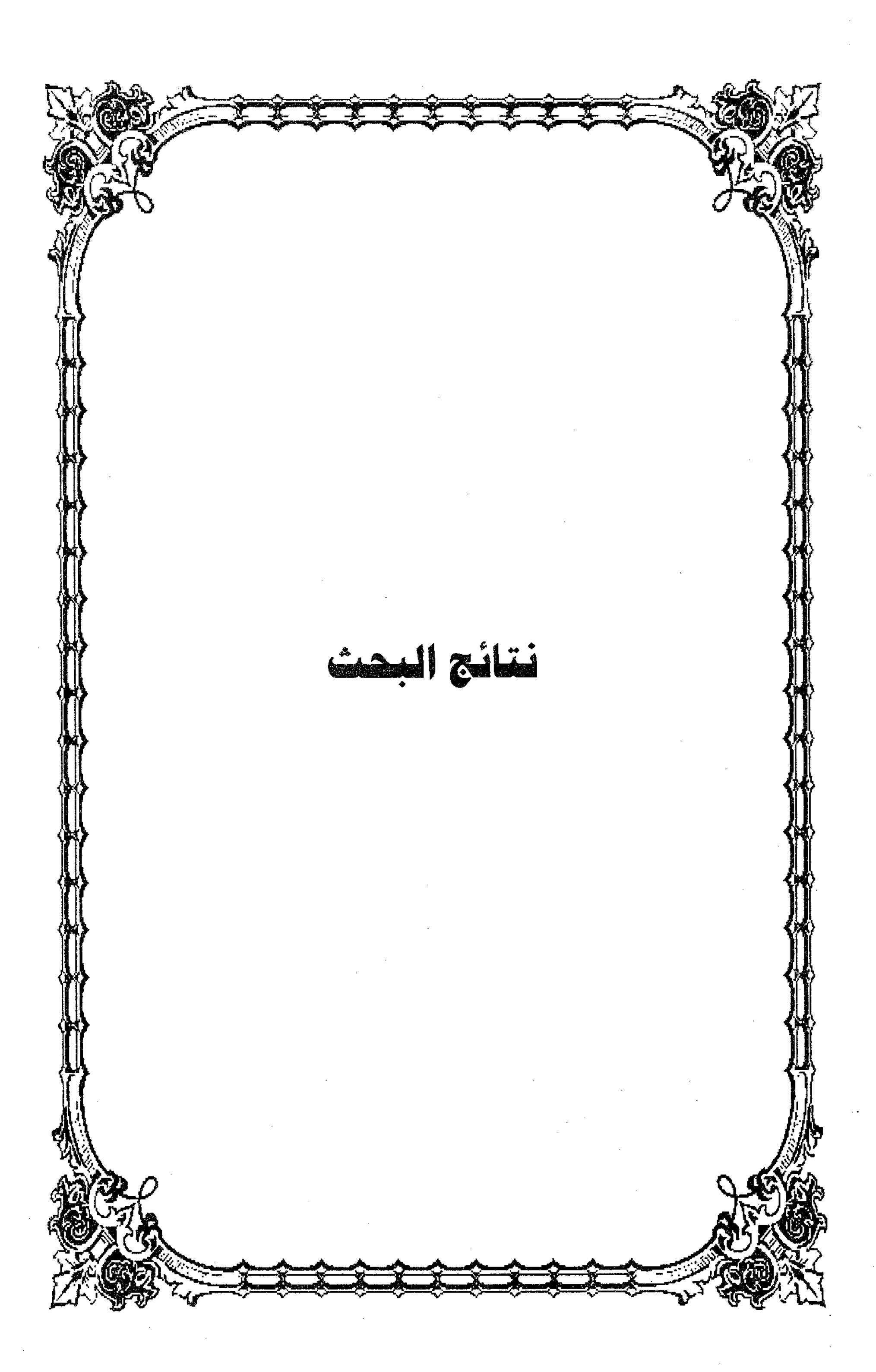
أمّا في قضيتنا مع العولمة، فنحن- المسلمون- على ثقة كبيرة بأنّ صراعنا معها سوف ينتهي- إن شاء الله- لصالحنا، بالشروط التي ذكرناها، فنحن حملة الرسالة السماوية الخاتمة، والتي توعد-رب العزة- بحفظها وحمايتها مهما حاول أعداءها طمسها، ومهما سيحاولون: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1]

اللهم أنّي أسألك بفضلك وكرمك أن تجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم، وأن تتقبله مني بقبول حسن، وأن تجعله في ميزان حسناتي يوم توزن الأعمال.

اللهم إنّ هذا ما اجتهدت فيه واستطعته، فأن كان خيراً فبفضلك وكرمك وإن كان غير ذلك فمن نفسي فأغفر لي يا غفور يا رحيم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) سورة الصف/ الآية (٨).



نتائج البحث



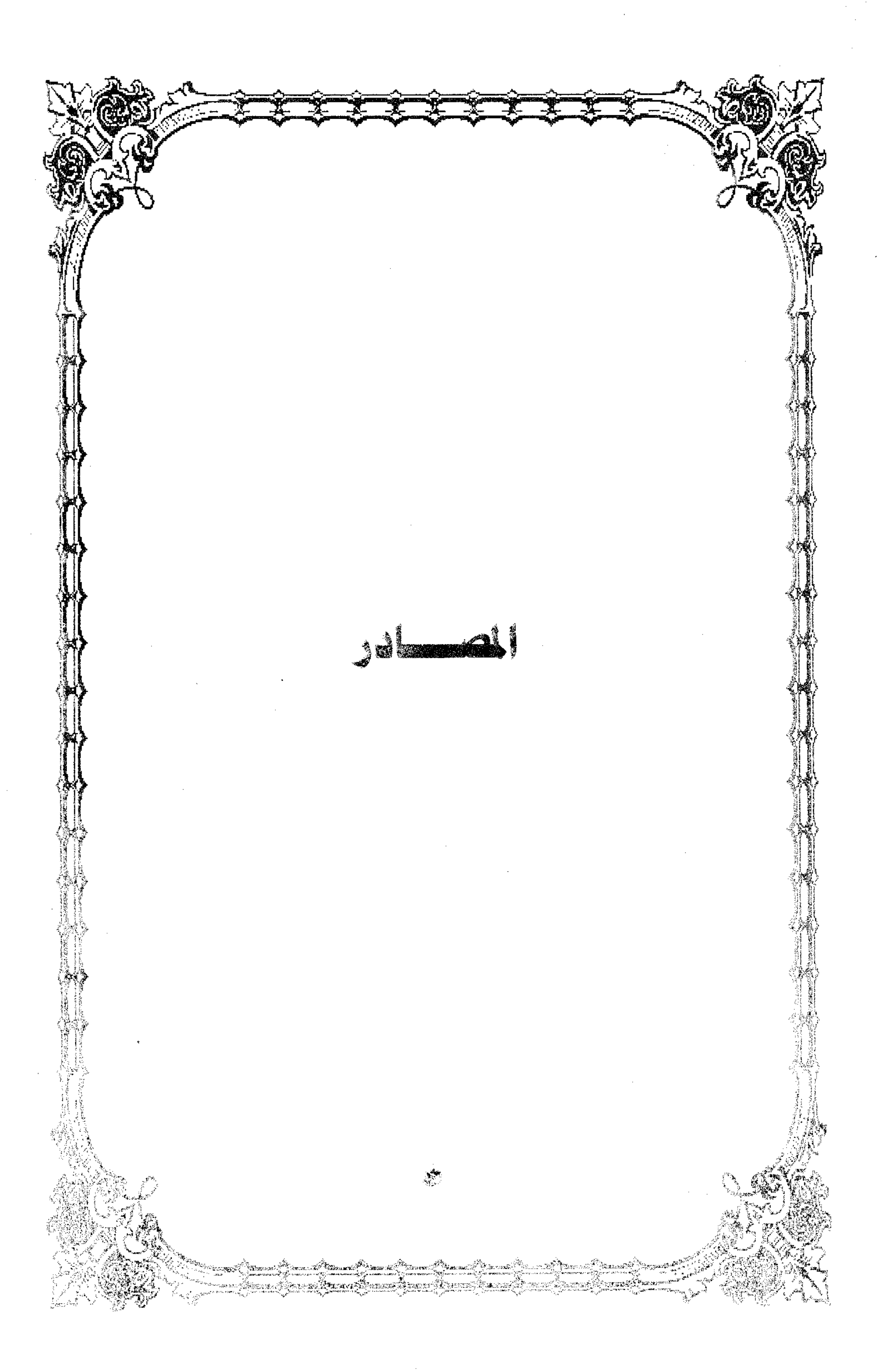
- إنّ مشروع النهضة الحضارية العربية الإسلامية الذي نادى بـه المؤسسون الأوائل في القرن الثالث عشر الهجري ، كان ذا هوية إسلامية صـرفه ، وان الأفكار الأخرى المنافسة أو المعادية للمشروع النهضوي الإسلامي كانـت غريبة على مجتمعنا العربي والإسلامي ومستمدة من الخارج .
- إنّ مؤسسي ودعاة المشروع النهضوي الحضاري الإسلامي كانوا ، إسلاميين المنهج والفكر والسلوك والرؤية ، وليس غير ذلك .
- إنّ الهوية الإسلامية لأي مشروع إصلاحي نهضوي حضاري ، هو ما يناسب امتنا العربية والإسلامية فقط ، وهو فقط الذي يحقق لها طموحاتها وأهـدافها وأحلامها ، بدليل فشل كافة الرؤى والأفكار والمشاريع الأخرى على سـاحتنا العربية والإسلامية وبشهادة أصحاب ومؤدي ومنظري هذه الأفكار أنفـسهم – كما رأينا – وبدليل ما يشهده اليوم من الصعود الهائل والانتشار الكبير للأفكار والطروحات الإصلاحية النهضوية ذات الهوية الإسلامية .
- إنّ مفهوم الهوية ليس مفهوما متخبطا قلقا كما يحاول البعض – وخاصة مـن معادي موضوع الهوية – أن يثبت ، مفهوم الهوية واضح سهل لا يحتاج إلـى هكذا تعقيد .
- إنّ للهوية العربية الإسلامية سماتاً ومقومات ، تؤهلها – بدون أدنـى شـك – لان تكون هوية عالمية ، تستوعب كل الذين ينضون تحت لوائها ، بـدون أن يؤثر ذلك على خصوصياتهم وثقافاتهم وهوياتهم الخاصة .
- إنّ موضوع الهوية ليس بدعا من المواضيع في شريعتنا الإسلامية الخالـدة ، بل انه يحتل الصدارة في سلم المواضيع التي لها بالغ الأثر في أمـور ديننـا ودنيانا .

- إنّ العولمة ما هي إلاّ مظهر من مظاهر ثقافة المنتصر ، وما هي إلاّ واجهة من واجهات النظام العالمي الجديد ، الذي برز بعد سقوط الاتحاد السوفيتي. وأنها لا تمثل حالة جديدة مبتكرة وإنما هي أشبه بحسم قديم بملابس جديدة.
- إنّ ما نسميه (عولمة) هو في حقيقته وواقعه (أمركة) .
- إنّ العولمة الثقافية ، هي أرادة وسعي لمحو ثقافات وهويات شعوب وبالأخص الهوية الثقافية الإسلامية ، لصالح هوية وثقافة واحدة هي (ثقافة الأمركة).
- إنّ كلتا الحضارتين الإسلامية والغربية ، تتمتعان بهوية ذات مواصفات عالمية، لذا تسعى كل واحدة منهما لنشر هذه الهوية بين الناس ، بغض النظر عن أسلوب وهدف وغاية كل واحد منهما – ولهذا فان الصراع بينهما قائم لا محالة .
- إنّ خطورة العولمة والعولمة الثقافية على وجه الخصوص ، لا تكمن في قوتها وقدرتها على الاختراق الحضاري ، بقدر ما تكمن في ضعف الآخر وعدم استعداده لمواجهة هذا الاختراق.
- إنّ احد أهم الأزمات التي تعاني منها الهوية الإسلامية ، هي ضعف ارتباط وتمسك واعتزاز المسلمين بها ، وعدم فهمهم وتقديرهم لمفهومها ولسماتها ولمقوماتها وبالتالي للدور الذي يمكن أن تلعبه في هذا الصراع الحضاري . وان من أهم أولويات رفع هذه الأزمة هو الإصلاح الحضاري الشامل سواء على مستوى مؤسسات الدولة الرسمية ، أم على مستوى الخطاب الإسلامي ، وحتى على مستوى الشعوب ومدى فهمهم لهذه القضية واستيعاب دورهم فيها.
- أنّ الحضارة الغربية ليست كلها سيئة ، ففيها إيجابيات ومحاسن عدة ، وهي حضارة قوية ، بيد أنّها تمثل الآن الحضارة العالمية الرائدة والقائدة شئنا أم أبينا ، وعليه فيجب أن يكون حوارنا وخطابنا خطاباً عقلياً محضاً ، وأن نترك

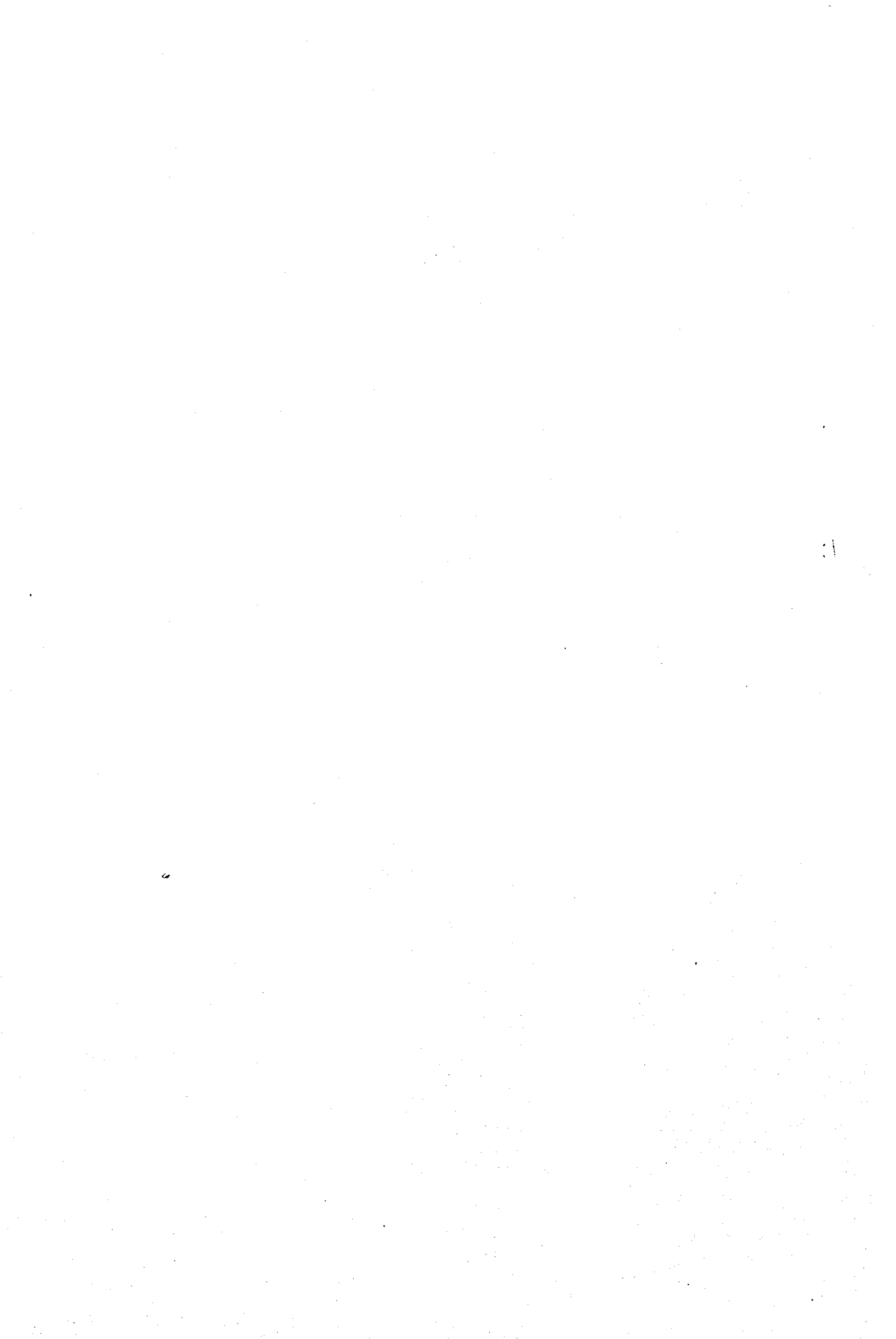
(التشنجات الفكرية) و الأسلوب الخطابي العاطفي في خطابنا وفكرنا عنها ومعها ، فهو لم يقدّم شيئاً كثيراً خلال العقود الماضية ، وبالتالي فإنّ أنسب خطاب معها برأي هو طرح فكرة (الإسلام كحل) لما تعانيه الحضارة العالمية المعاصرة من مشاكل وأزمات ، بدلاً من الفكرة والأسلوب والخطاب السائد عندنا أي (الإسلام كبديل) .

إنّ الهوية الإسلامية قد خاضت صراعاً مريراً مع هويات وأفكار أخرى كثيرة ، داخلية وخارجية ، وانتهت جميعها بانتصار الهوية الإسلامية وازديادها قوةً وانتشاراً ، وربما يكون صراعها مع العولمة الثقافية (الأمركة الثقافية) هو الصراع الأخير ! ونحن كمسلمين واثقون من نصر الله ﷻ وبالشروط التي حددها سبحانه .





المصادر



أ-قائمة الكتب

١- **القرآن الكريم**

٢- أزمة العقل المسلم : عبد الحميد أبو سليمان / المعهد العالمي للفكر الإسلامي / فرجينيا / الولايات المتحدة الأمريكية / ط(١) / ١٩٩١م .

٣- الإسلام وأصول الحكم : علي عبد الرازق / دراسة ووثائق / محمد عمارة / المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت / ط(١) / ١٩٧٢م .

٤- الإسلام على مفترق الطرق : محمد أسد / ترجمة : عمر فروخ ومصطفى الخالدي / دار العلم للملايين / بيروت / ط(٤) / ١٩٦٢م .

٥- الإسلام وقضايا العصر : محمد عمارة / دار الوحدة / بيروت / ط(١) / ١٩٨٠م .

٦- الإسلام والقومية الإسلام والأممية :عبد الله سلّوم السامرائي/ دار الحرية للطباعة / بغداد / ط(١) / ١٩٨٥م .

٧- الإسلام والقومية العربية : المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت / ط(٢) / ١٩٧٩م .

٨- الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : دراسة وتحقيق : محمد عمارة / المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت / ١٩٧٢م .

٩- الأعمال الكاملة للشيخ جمال الدين الأفغاني- دراسة وتحقيق : محمد عمارة / دار الكتاب العربي / القاهرة / بدون(ت) .

١٠- الأعمال الكاملة للشيخ رفاعة رافع الطهطاوي - دراسة وتحقيق : محمد عمارة / المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت / ط(١) / ١٩٧٤م .

١١- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم:أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرّاني/تحقيق : محمد حامد الفقي/مطبعة السُنّة المحمدية/القاهرة/

ط(٢) /١٣٦٩هـ .

١٢- الإقليمية الجديدة : عبد الله الريماوي / دار الطليعة / بيروت / ط(١) /١٩٧٠م .

١٣- الإقليمية جذورها وبذورها: ساطع الحصري/ دار العلم للملايين / بيروت /١٩٦١م .

١٤- أمّ القرى : عبد الرحمن الكواكبي / المطبعة العصرية / حلب / ١٩٥٩م .

١٥- الأمّة العربية وقضية الوحدة :محمد عمارة / دار الوحدة / بيروت/ ط(٣) /١٩٨١م .

١٦- أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين : أ.ج.جرانت وهارولد تمبرلي/ ترجمة:بهاء فهمي/دار الحمامي/ القاهرة / ترجم إلى اللغة العربية عن الطبعة (٦) / بدون(ت) .

١٧- البيريسترويكا : ميخائيل غورباتشوف / دار الشروق / بيروت / ط(٢) / ١٩٨٨م .

١٨- تأريخ الإسلام في الأندلس : محمد عبد الله عنان / مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة / ط(٣) / ١٩٦٠م .

١٩- تأريخ الأمم والملوك : محمد بن جرير الطبري / دار الكتب العلمية / بيروت / ط(١) / ١٤٠٧هـ .

٢٠- التبشير والاستعمار: عمر فروخ ومصطفى الخالدي / المكتبة الحديثة / بيروت / ط(٦) / ١٩٧٩م .

٢١- تجديد الفكر الإسلامي : محسن عبد الحميد / المعهد العالمي للفكر الإسلامي/ فرجينيا / الولايات المتحدة الأمريكية / ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

٢٢- التحديات المستقبلية للتكتل الاقتصادي العربي .. العولمة والتكتلات

الإقليمية البديلة: إكرام عبد الرحيم / مكتبة مدبولي / القاهرة / ٢٠٠٢م .

٢٣- تخليص الإبريز في تلخيص باريز : رفاعة رافع الطهطاوي / تحقيق : مهدي علاّم وأحمد محمد بدوي وأنور لوقا / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / مصر/ ١٩٥٨م .

٢٤- التعريفات : علي بن محمد الجرجاني / تحقيق : إبراهيم الابياري / دار الكتاب العربي / بيروت / ط(١) / ١٤٠٥هـ .

٢٥- تفسير البيضاوي : ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي / دراسة وتحقيق: عبد القادر عرفان العشا / دار الفكر/ بيروت /١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

٢٦- تفسير القرآن العظيم : إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفدا / دار الفكر/ بيروت /١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

٢٧- ثقافة العولمة وعولمة الثقافة: برهان غليون وسمير أمين / دار الفكر/ بيروت / ط(٢) / ٢٠٠٢م .

٢٨- الحجاب - أبو الأعلى المودودي - دار الفكر -دمشق - بدون (ت) .

٢٩- الجامع لأحكام القرآن : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي / تحقيق : أحمد عبد العليم البردوني / دار الشعب / القاهرة / ط(٢) / بدون(ت).

٣٠- حرب الخليج .. أوهام القوة والنصر: محمد حسنين هيكل / مركز الأهرام للترجمة والنشر/ القاهرة / ١٩٩٢م .

٣١- الحرب العالمية الثانية: صلاح العقاد / مكتبة الإنجلوالمصرية / القاهرة / بدون (ت) .

٣٢- حول الحركة العربية الحديثة:محمد عزة دروزه/المكتبة العصرية/ بيروت /

١٩٥٠م .

٣٣- حول القومية العربية:جابر العمر/مكتبة العلوم والآداب للطباعة والنشر/دمشق/١٩٨٤م.

٣٤- الدولة المارقة... أحادية الدفع في السياسة الخارجية الأمريكية : كلايد برستوفتز/ تعريب : فاضل جتكر/ شركة الحوار الثقافي / بيروت / ط(١) /٢٠٠٣م .

٣٥- رفاعة الطهطاوي : حسين فوزي النجار / الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر/ مصر/ بدون(ت).

٣٦- سنن الترمذي : محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي / تحقيق : احمد محمد شاكر وآخرون / دار إحياء التراث العربي / بيروت / بدون(ت) .

٣٧- السنن الكبرى : أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي/ تحقيق : عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن / دار الكتب العلمية / بيروت ط(١) /١٤١١هـ .

٣٨- سيد قطب : صلاح عبد الفتاح الخالدي / دار القلم / دمشق / ط(١) /٢٠٠٠م .

٣٩- سير أعلام النبلاء محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز الذهبي/ تحقيق: شعيب الارناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي/ مؤسسة الرسالة / بيروت / ط(٩) / ١٤١٣هـ .

٤٠- صحيح البخاري : محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري / تحقيق : مصطفى ديب البغا / دار أبن كثير / اليمامة / ط(٣) / ١٤٠٧هـ .

٤١- صحيح ابن حبّان : محمد بن حبّان بن احمد أبو حاتم التميمي / تحقيق: شعيب الارناؤوط / مؤسسة الرسالة / بيروت / ط(٢) / ١٩٩٣م .

٤٢- صحيح ابن خزيمة : محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري / تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي / المكتب الإسلامي/ بيروت /١٣٩٠هـ .
٤٣- صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري / تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي / دار إحياء التراث العربي / بيروت / بدون (ت).
٤٤- عروبة الإسلام وعالميته: شبلي العيسمي/ دار الطليعة / بيروت / ط(٢) / ١٩٨٥م .
٤٥- العروبة أولاً / ساطع الحصري / دار الملايين / بيروت / ط(٤) /١٩٦١م.
٤٦- الضوء الكاذب في السينما الأمريكية : قاسم عبد الأمير عجام / سلسلة الموسوعة الصغيرة/ العدد(٤٤٥) / دار الشؤون الثقافية / بغداد /٢٠٠١م.
٤٧- صِدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي: صموئيل هنتنغتون / ترجمة: مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف / الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان / ليبيا / ط(١) / ١٩٩٩م .
٤٨- صراع الأفكار في المجتمع الإسلامي : محسن عبد الحميد / مطبعة وزارة التربية / ط(١) / ١٩٩٨م .
٤٩- العروبة بين دعاتها ومعارضيها:ساطع الحصري/دار الملايين/بيروت/ط(٤)/١٩٦١م .
٥٠- العروة الوثقى:جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده/ دار العرب /القاهرة/ ط(١) /١٩٥٧م.
٥١- العقيدة والشريعة : كولدزيهر/ ترجمة : محمد يوسف موسى وعلي حسن عبد القادر وعبد العزيز عبد الحق / دار الكتب الحديثة / القاهرة / ط(٢) / ١٩٥٩م .

٥٢- العولمة من المنظور الإسلامي : محسن عبد الحميد / بغداد /٢٠٠٠م .
٥٣- فتوح البلدان : أبو الحسن البلاذري / تحقيق: رضوان محمد رضوان / مطبعة السعادة / مصر / ١٩٥٩م .
٥٤- الفكر الإسلامي الحديث .. تقويمه وتجديده : محسن عبد الحميد / دار الخلود / بغداد / ط(١) / ١٩٨٧م .
٥٥- الفكر السياسي العربي الإسلامي بين ماضيه وحاضره : فاضل زكي محمد / دار الحرية للطباعة / بغداد / ط(٢) / ١٩٧٦م .
٥٦- في أصل الأزمة الجزائرية (١٩٥٨ – ١٩٩٩م) : عبد الحميد الإبراهيمي / مركز دراسات الوحدة العربية / بيروت / ط(١) /٢٠٠١م.
٥٧- في ظلال القرآن : سيد قطب / دار الشروق / بيروت / ط(١٥) / ١٤٠٨هـ .
٥٨- الكامل في التاريخ : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن الكريم المعروف بـ(ابن الأثير) / دار الكتب العلمية / بيروت / ط(١) / ١٩٨٧م .
٥٩- الكليات : أبو البقاء الكفوي / تحقيق : عدنان درويش ومحمد المصري / مؤسسة الرسالة / بيروت / ط(١) / بدون (ت) .
٦٠- لسان العرب : محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري / دار صادر / بيروت / ط(١) / ١٩٩٢م .
٦١- لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم : شكيب أرسلان/دار الفكر/بيروت/ط(٤)/١٩٦٥م .
٦٢- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : أبو الحسن الندوي / دار السلام / حلب ، بيروت / ط(٩) / ١٩٧٦م .

٦٣- ما هي القومية : ساطع الحصري / دار الملايين / بيروت / ط(١) / ١٩٥٩ م .

٦٤- مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنّا.. رسالة المؤتمر الخامس/ المكتبة التوفيقية / القاهرة / بدون(ت) .

٦٥- مختصر دراسة للتاريخ : ارنولد توينبي/ ترجمة : محمد فؤاد شبل / مراجعة : محمد شفيق غربال / الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية / القاهرة / ١٩٦٦م .

٦٦- مذهبية الحضارة الإسلامية وخصائصها : محسن عبد الحميد / شركة الرشد للطباعة والنشر / بغداد / ط(١) /٢٠٠١م .

٦٧- مراجعات في الفكر والدعوة والحركة : عمرو عبيد حسنة / المعهد العالمي للفكر الإسلامي / فرجينيا / الولايات المتحدة الأمريكية / ط(٢) / ١٩٩٢م.

٦٨- مسألة الهوية..العروبة والإسلام والغرب: محمد عابد الجابري / مركز دراسات الوحدة العربية / بيروت / ط(٢) / ١٩٩٧م .

٦٩- المستدرك على الصحيحين : محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري / تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا / دار الكتب العلمية / بيروت / ط(١) / ١٩٩٠م.

٧٠- مستقبل الثقافة في مصر: طه حسين / مطبعة المعارف / القاهرة / ١٩٣٨م.

٧١- المسلمون والعولمة: يوسف القرضاوي/ دار التوزيع والنشر الإسلامية/مصر/٢٠٠٠م .

٧٢- مسند أحمد: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني/ مؤسسة قرطبة / مصر/ بدون(ت) .

٧٣- مُصنف بن أبي شيبة : أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي/

تحقيق : كمال يوسف الحوت / مكتبة الرشد / الرياض / ط(١) / ١٤٠٩هـ .

٧٤- مع الأستاذ رجاء جارودي في الحوار والأفكار: عدنان سعد الدين / شركة السرمد للطباعة المحدودة / بغداد / ط(٣) /٢٠٠٠م .

٧٥- معالم التأريخ الأوربي الحديث : جلال يحيى وجاد طه / منشاة المعارف / الإسكندرية / ١٩٧٤م .

٧٦- معجم علم النفس : فاخر عاقل / دار العلم للملايين / بيروت / ط(١) / ١٩٨٥م .

٧٧- المعجم الفلسفي : جميل صليبا / دار الكتاب اللبناني / بيروت /١٩٨٢م .

٧٨- المعجم الفلسفي: مجمع اللغة العربية / الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية / القاهرة / ١٩٧٩م .

٧٩- معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: احمد زكي بدوي / مكتبة لبنان / بيروت / ط(١) /١٩٧٧م .

٨٠- معنى القومية العربية : جورج حنا / دار بيروت / بيروت / ١٩٥٧م .

٨١- مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون/دار القلم/بيروت/ط(٥)/١٩٨٤م .

٨٢- من وحي العروبة : عبد الرحمن البراز / دار القلم / القاهرة / ط(٢) / ١٩٦٣م .

٨٣- منجد في اللغة والأعلام / مجموعة من الباحثين / دار المشرق / بيروت / ط(٣٨) /٢٠٠٠م .

٨٤- الموسوعة الفقهية : مجموعة من العلماء / صادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية / الكويت .

٨٥- – النبوءة والسياسية .. الإنجيليون العسكريون في الطريق إلى الحرب النووية: غريس هالسل /ترجمة: محمد السماك / الناشر للطباعة والنشر والتوزيع / ط(٣) / ١٩٩٠م .

٨٦- نهاية التاريخ : فرانسيس فوكوياما / ترجمة : حسين الشيخ / دار العلوم العربية / بيروت / ط(١) / ١٩٩٣م .

٨٧- هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس : ماجد عرسان الكيلاني / الدار السعودية للنشر والتوزيع / جدة / ط(١) / ١٩٨٥م .

٨٨- وجهة العالم الإسلامي : مالك بن بني / ترجمة : عبد الصبور شاهين / دار الفكر/ دمشق / ١٩٧٩م .

ب- الدوريات

١- إعلام العولمة وتأثيره في المستهلك : السيد أحمد مصطفى عمر / مجلة المستقبل العربي / العدد (٢٥٦) / السنة (٢٣) / حزيران ٢٠٠٠م .

٢- تسليمة نسرين والعربي الكشاط : عصام العطار / مجلة الرائد / بون (ألمانيا) / العدد(١٦٨) / رمضان ١٤١٥هـ / فبراير ١٩٩٥م .

٣- التكاثر البشري بعد مؤتمر القاهرة : نبيل شبيب / مجلة قضايا دولية / تصدر عن معهد الدراسات السياسية(إسلام آباد – باكستان)/العدد(٢٤٩)/ السنة(٥) /٥-جمادى الأولى-١٤١٥هـ الموافق١٠-أكتوبر-١٩٩٥م .

٤- تهديدات العولمة للوطن العربي: مها ذياب / مجلة المستقبل العربي/ العدد(٢٧٦) / السنة(٢٤) / شباط ٢٠٠٢م .

٥- الثنائيات، المصطلحات، الاتجاهات في الفكر الإسلامي: حوار مع رضوان السيد / مجلة قضايا إسلامية معاصرة / تصدر عن مركز دراسات فلسفة الدين / بغداد / العدد(٢٦) / السنة(٨) / شتاء ٢٠٠٤م .

٦- جدلية العولمة بين الاختيار والرفض: عبد الجليل كاظم الوالي/ مجلة المستقبل العربي/ العدد(٢٧٥) / السنة(٢٤) / كانون الثاني٢٠٠٢م .

٧- الدولة .. والعولمة في الوطن العربي في ضوء مفهوم الدولة الوطنية: محمد عبد الشفيع عيسى/ وهي في الأصل ورقة قدمت إلى ندوة (الدولة الوطنية وتحديات العولمة في الوطن العربي) التي نظمها مركز البحوث العربية في(القاهرة) ومركز الدراسات والبحوث الاستراتيجية بجامعة دمشق وعقدت بمقر الأخير في ٥-٧/ مايو/ ٢٠٠١م . وقد قام مركز دراسات الوحدة العربية بنشر هذا البحث ضمن مجموعة بحوث أخرى في كتاب تحت عنوان(العولمة وتداعياتها على الوطن العربي)/ لبنان / ط(١) / ٢٠٠٣م .

٨- سيناريو ابستيمولوجي حول العولمة: هشام البعّاج /مجلة المستقبل العربي/العدد(٢٤٧) / السنة(٢٢) / أيلول ١٩٩٩م .

٩- صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية التمهيدية لعلم الاجتماع في الولايات المتحدة الأمريكية : أياد القزاز/ مجلة المستقبل العربي/العدد(٢٧٨)/السنة(٢٤)/ نيسان ٢٠٠٢م .

١٠- العرب والعولمة .. مشكلات الحاضر وتحديات المستقبل : مهيوب غالب أحمد / مجلة المستقبل العربي/ العدد (٢٥٦) / السنة (٢٣) / حزيران ٢٠٠٠م .

١١- العربي كما تراه هوليود: جاك شاهين /مجلة العربي(الكويت)/العدد(٣٥٣)/ نيسان ١٩٨٨م .

١٢- عولمةالسياسة والعولمةالسياسية: عبدالخالق عبدالله /مجلة المستقبل العربي /العدد (٢٧٨) / السنة(٢٤) / نيسان ٢٠٠٢م .

١٣- العولمة والهوية الثقافية والمجتمع التكنولوجي الحديث / جلال أمين / مجلة المستقبل العربي / العدد(٢٣٤) / السنة(٢١) / آب ١٩٩٨م .
١٤- القرية الكونية..واقع أم خيال : نايف علي عبيد / مجلة المستقبل العربي/العدد(٢٦٠)/ السنة (٢٣) / تشرين أول ٢٠٠٠م
١٥- قضايا العولمة بين القبول والرفض : ثناء فؤاد عبدالله / مجلة المستقبل العربي/ العدد(٢٥٦) / السنة (٢٣) / حزيران ٢٠٠٠م .
١٦- مستقبل النظام الإقليمي العربي : جميل مطر/ مجلة المستقبل العربي/ العدد(١٥٨) / نيسان ١٩٩٢م .
١٧- مناهج التعليم وخطيئة التبديل : محمد احمد منصور / مجلة البيان(لندن) / العدد(١٧٣) / محرم ١٤٢٣هـ الموافق نيسان ٢٠٠٢م .
١٨- هويتنا الإسلامية..بين التحديات والانطلاق: مجموعة من الباحثين/ مجلة البيان (لندن) / العدد(١٢٨) / ربيع الأول ١٤١٩هـ الموافق أغسطس ١٩٩٨م .

ج- قائمة الكتب والبحوث والمقالات المستلة من الشبكة العالمية للمعلومات (الانترنيت):

١- أبعد من الهجمة على القرضاوي : ياسر الزعاترة / جريدة الوطن العمانية / يوليو ٢٠٠٤م / من على موقع الجريدة على الشبكة: www.alwatan.com
٢- أزمة الخطاب الإسلامي المعاصر: طه جابر العلواني / موقع بلاغ الإلكتروني على الشبكة : www.balagh.com
٣- أسئلة العولمة ... ملاحظات حول تشكيل مفهوم العولمة في الكتابات العربية : كمال عبد اللطيف / مجلة الفكر السياسي / تصدر عن إتحاد

الكتاب العرب بدمشق / العـــددان(٤-٥) / الــسنة(٢) / شـــتاء ١٩٩٨م-١٩٩٩م / من على موقع الاتحاد على الشبكة: www.awu-dam.org

٤- الاستراتيجيات المفاهيمية للعولمة وبدائلها .... آثار العولمة علـــى العـــالم الإسلامي : محمد السيد سليم /٣٠-٣-٢٠٠٣م / من على موقع إسلام أون لاين على الشبكة : www.islamonline.net

٥- الأسرة بين الحداثة الغربية والرؤية الإسلامية : معتز الخطيـــب / ٦-١١-٢٠٠٢م / من على الموقع : www.islamonline.net

٦- الإسلام والعولمة .. صراع أم حوار: أحمد درويش / من على موقع بلاغ الالكتروني على الشبكة : www.balagh.com

٧- الإسلام هو العدو الأول للإمبراطورية الأمريكية .. كيف ولمـــاذا : محمـــد عابد الجابري / من على الموقع الشخصي لمحمد عابـــد الجـــابري علـــى الشبكة : www.aljabriabed.com

٨- الإعلام العربي ومعطيات العولمة : محي الدين عبد الحليم / مجلة الرسالة / العدد(٩) / ديسمبر٢٠٠٣م - يناير٢٠٠٤م / من على موقع المجلة علـــى الشبكة : www.masrawy.com

٩- الأمّة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري .. طبيعة التحدي الحضاري المعاصر: عبد العزيز بن عثمان التويجري / من علـــى موقـــع المنظمـــة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة على الشبكة : www.isesco.org

١٠- الانتماء القومي وإشكالية الهوية : جـــاد الكـــريم الجبـــاعي / مـــن علـــى الموقع:www.alfikralarabi.com

١١- انهيار مزاعم العولمة : قراءة في تواصل الحضارات وصراعها... البعـــد المفهومي والتاريخي : عزت السيد أحمد / من منشورات إتحـــاد الكتـــاب

العرب بدمشق /٢٠٠٠م / من على موقع الاتحاد على الشبكة : www.awu-dam.org

١٢- أوراق مشاكسة : مقالات في الفكر والأدب ...... عن العولمة والثقافة : أحمد يوسف داوود / من منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق / ٢٠٠١ م / من على موقع الاتحاد على الشبكة : www.awu-dam.org

١٣- أوربا تحصين القلعة ضد الهجرة الوافدة : رائدة شبيب / ١٧-٣-٢٠٠١م / من على الموقع : www.islamonline.net

١٤- أوربا تدرس تشديد قوانين الهجرة : جريدة البيان / الثلاثاء ١٨- يونيو- ٢٠٠٢ م / من على موقع الجريدة على الشبكة : www.albayan.co.ae

١٥- أيّهما أولاً ... الهوية أم النهضة : محمد عمارة / جريدة الشرق الأوسط / ٢٣-١- ٢٠٠٤م / من على الموقع : www.al-eman.com

١٦- بين رفض العولمة وقبولها ...... محاولة لتفكيك خطاب على حرب المعولم : عبد الله العلي العليان / صحيفة الخليج / ١-١١-٢٠٠٤م / من على موقع الصحيفة على الشبكة : www.alkhaleej.ae

١٧- تجديد الخطاب الديني: محمد دكير/مجلة الكلمة/(نيقوسيا- قبرص)/العدد(٤٢)/السنة (١١) / شتاء٢٠٠٤م / من على موقع المجلة على الشبكة : www.kalema.net

١٨- تحديات النظام العالمي الجديد..جوهر العولمة وبديلها:عماد الدين خليل/٦-٨-٢٠٠٣م / من على الموقع : www.islamonline.net

١٩- تحدي الثقافة المعولمة : باسل حسين / مجلة فضاءات(ليبيا) / العدد(٦) / من على موقع المجلة على الشبكة : www.fadaat.com

٢٠- تحيز الغرب لتصوراته في قراءة عالم الإسلام : محمد الدعمي / مجلة

الكلمة / العدد(٢٣) / السنة(٦) / ربيع الأول ١٩٩٩م / من على موقع المجلة على الشبكة : www.kalema.net

٢١- تداعيات أحداث سبتمبر على النظام الدولي : نظام بركات : ١١-٩-٢٠٠٢م / من على موقع قناة الجزيرة الفضائية على الشبكة : www.aljazeera.net

٢٢- التراث العربي من التثقيف إلى المثاقفة : يوسف زيدان / من على موقع يوسف زيدان الشخصي على الشبكة : www.Ziedan.com

٢٣- تعارف الحضارات : زكي الميلاد / مجلة رسالة التقريب(إيران) / العدد(٢٤) / من على موقع المجلة على الشبكة : www.taghrib.org

٢٤- تعليق على رؤية مجموعة يسارية : علاء كمال / من الموقع على الشبكة : www.jeocities.com

٢٥- تقرير التنمية البشرية للعام ٢٠٠٤ م : الصادر عن البرنامج الإنمائي التابع لمنظمة الأمم المتحدة / من على موقع المنظمة الخاص على الشبكة : www.undp.org

٢٦- تقرير التنمية البشرية للعام ١٩٩٩م : من على موقع المنظمة الخاص على الشبكة : www.undp.org

٢٧- تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣ م : برنامج الأمم المتحدة الإنمائي والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي / ط(١) / نيويورك / ٢٠٠٣م / عرض : إبراهيم غرايبة / ٣-١٠-٢٠٠٤م / من على موقع قناة الجزيرة الفضائية على الشبكة : www.aljazeera.net

٢٨- ثالوث العولمة القاهر : العسكرة والاقتصاد والثقافة .. الاقتصاد المحرك الرئيسي للعولمة : منير شفيق / من على الموقع : www.islamonline.net

٢٩- الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية .. الإشكال النظري : حسن حنفي / مجلة الفكر السياسي / العددان(٤-٥) / السنة(٢) / شتاء ١٩٩٨م - ١٩٩٩م / من على موقع المجلة على الشبكة : www.awu.dam.org

٣٠- ثقافة المقاطعة ضرورة عملية لمواجهة الهيمنة : يوسف البجيرمي / من على موقع المركز الفلسطيني للإعلام على الشبكة : www.palestine-info.info

٣١- جدلية الثابت والمتحرك وحدود المسموح والممنوع في الحضارة والتفاعل الحضاري : عبد الله الفريجي / مجلة الكلمة / العدد(١٩) / السنة(٥) / ربيع ١٩٩٨م / من على موقع المجلة على الشبكة : www.kalema.net

٣٢- الحرب العالمية الأولى الحقيقية .. الاستعمار الجديد : أيوب المزين / صحيفة الحوار المتمدن / العدد(٨٥٥) / ٥-٦-٢٠٠٤م / من على موقع الصحيفة على الشبكة : www.rezgar,com

٣٣- الحفاظ على الهوية والثقافة الإسلامية في إطار الرؤية المتكاملة : عبد العزيز بن عثمان التويجري / من على الموقع : www.islamtoday,net

٣٤- حقوق الإنسان في عصر العولمة .. رؤية عربية : محمد فائق / برلين / ٢٤-٥-٢٠٠٤م / من على الموقع : www.ibn.rushd.org

٣٥- حوار الحضارات على ضوء العلاقات الدولية الراهنة : نادية مصطفى / مجلة رسالة التقريب / العدد(٣١) / من على موقع المجلة على الشبكة : www.taghrib.org

٣٦- خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل ..الحضارات الكبرى المعاصرة : عبد العزيز بن عثمان التويجري / من على الموقع : www.isesco.org

٣٧- الخصوصيات الحضارية وعالمية حقوق الإنسان : هيثم مناع / من على

الموقع : www.bredband,net

٣٨- خطاب العولمة ... راهنية المفهوم كونية الهيمنة : ذاكر آل حبيل / مجلة الكلمة / العدد(١٩) / السنة(٥) / ربيع ١٩٩٨م / من على موقع المجلة على الشبكة : www.kalema.net

٣٩- رهانات العولمة : برهان غليون / نوفمبر١٩٩٩م / من على الموقع : www.mafhoum.com

٤٠- العالم الإسلامي والتحديات الحضارية : رشيد أبو ثور/ مجلة الكلمة / العدد(٢٢) / السنة(٦) / شتاء ١٩٩٩م / من على موقع المجلة على الشبكة : www.kalema.net

٤١- العالم الإسلامي وتحديات العولمة: الحسين عصمة /مجلة الكلمة /العدد(١٩) / السنة (٥) / ربيع ١٩٩٨م / من على موقع المجلة على الشبكة : www.kalema.net

٤٢- العولمة وأثرها على المجتمعات في الأرض : عصنام خوري / من على الموقع:www.bredband.net

٤٣- العولمة وأثرها على اقتصاديات الدول الإسلامية: محمد آدم /مجلة النبأ(إيران) / العدد(٤٢)/شباط٢٠٠٠م/ من على موقع المجلة على الشبكة: www.aannabaa.org

٤٤- العولمة بوصفها أمركة ووراء الأكمة ما ورائها: محمد عابد الجابري /١٨-٨-٢٠٠٣م / من على موقع محمد الجابري الشخصي على الشبكة : www.aljabriabed.com

٤٥- العولمة تهدد باختفاء اللغات المحلية والثقافات / ١٠-٢-٢٠٠١م / من على موقع قناة الجزيرة الفضائية على الشبكة : www.aljazeera.net

٤٦- العولمة والثقافة : علي عقلة عرسان / مجلة الفكر السياسي / العدد(٤-٥) / السنة(٢) / شتاء ١٩٩٨م - ١٩٩٩ م - من على موقع المجلة على الشبكة : www.aw-.dam.org

٤٧- العولمة والحياة الثقافية في العالم الإسلامي : عبد العزيز بن عثمان التويجري / من على الموقع : www.isesco.org

٤٨- العولمة والسيطرة على الثقافة: يوسف القرضاوي/ برنامج الشريعة والحياة /١٨-١١-٢٠٠١م / من على موقع قناة الجزيرة الفضائية على الشبكة : www.aljazeera.net

٤٩- العولمة في الخطاب العربي المعاصر: عوني المشيني / مجلة آفاق / من على موقع المجلة على الشبكة : www.aafaq.org

٥٠- العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الأيدلوجي...العولمة وهاجس الهوية في الغرب : محمد عايد الجابري / مجلة فكر ونقد / العدد(٢٢) / من على موقع محمد عايد الجابري الشخصي على الشبكة: www.aljabriabed.com

٥١- العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الأيديولوجي.. تعريفات ومقارنات : محمد عابد الجابري / مجلة فكر ونقد (المغرب) / العدد (١٣) / من على موقع محمد الجابري الشخصي على الشبكة: www.aljabriabed.com

٥٢- العولمة الموضوعي والذاتي في المشهد العربي الراهن : سيار الجميل / جريدة الزمان / (لندن) / العدد(١٧١٩) / ٢٦-١-٢٠٠٤م / من على موقع الجريدة على الشبكة: www.azzaman.com

٥٣- العولمة والهوية الثقافية في أفريقيا: هويدا عدلي / مجلة دراسات (ليبيا) /

العدد(١٠) / خريف ٢٠٠٢م / من على موقع المجلة على الشبكة: www.dirasaat.com

٥٤- الفرقان الأمريكي بديلاً عن القرآن:مصطفى بكري/صحيفة الأسبوع المصرية/العدد (٣٧٣)/السنة(٨)/٣-٥-٢٠٠٤م / من على موقع الصحيفة على شبكة: www.elosboa.com

٥٥- الفكر الإسلامي وقضايا العولمة : زكي الميلاد / مجلة الكلمة / العدد(٢٠) / السنة(٥) / صيف ١٩٩٨م / من على موقع المجلة على الشبكة : www.kalema.net

٥٦- قاطعوهم ما استطعتم: فهمي هويدي /صحيفة الأهرام/العدد(٤١٦١٦)/السنة(١٢٤) / الثلاثاء ١٨-شعبان-١٤٢١هـ الموافق ١٤-نوفمبر-٢٠٠٠م / من على موقع الصحيفة على الشبكة : www.ahram.org

٥٧- القرن الواحد والعشرون..صراع أم حوار ثقافي بين الأمم : عبد الواحد مشعل / مجلة دراسات / العدد(١٠) / خريف٢٠٠٣م / من على موقع المجلة على الشبكة www.dirasaat.com

٥٨- قضية الهوية الإسلامية في عصر العولمة / من على موقع بلاغ الالكتروني : www.balagh.com

٥٩- كتاب التأريخ في المنهج البريطاني:المرحلة الثانوية..محاولة في تحليل الخطاب التاريخي: عبد المحسن بن سالم العقيلي / ٢٨-٥-٢٠٠٣م / من على الموقع على الشبكة : www.lahaonline.com

٦٠- كيف يقرأ المثقفون العرب العولمة:إدريس هاني/مجلة الكلمة/العدد(١٩)/السنة(٥)/ربيع ١٩٩٨م/ من على موقع المجلة على الشبكة: www.kalema.net

٦١- مأزق الليبرالية..نهاية التاريخ نموذجاً:سهيل عمروسي/مجلة الفكر السياسي/العدد(١٥)/خريف٢٠٠١م/ شتاء٢٠٠٢م / من على موقع المجلة على الشبكة:www.awu-dam.org

٦٢- مسألة الهوية في الدستور الفلسطيني : إبراهيم أبراش / ٢٠٠٣ م / من على موقع جامعة بيرزيت على الشبكة : www.hom.birzeit.edu

٦٣- مسار الافتراق الأوربي عن الولايات المتحدة : خير الدين عبد الرحمن / مجلة الفكر السياسي / العدد (١٦) / ربيع وصيف ٢٠٠٢ / من على موقع المجلة على الشبكة : www.awu-dam.org

٦٤- مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية : محمد عمارة / من على الموقع على الشبكة : www.islamna.org

٦٥- المشروع الإسلامي للتغير ومطاعن العلمانيين عليه : محمد عمارة /١٥-١-٢٠٠٤م / من على موقع الوحدة الإسلامية على الشبكة: www.alwihadah.com

٦٦- مشكلة الهوية والانتماء القومي عند العرب : جورج قرم / من على موقع جورج قرم الشخصي على الشبكة : www.Georgescrom.com

٦٧- مصير الديمقراطية في النظام العولمي الجديد : يوسف الأشقر/ مجلة انتليجينسيا / (باريس) / العدد(٥) / ٩-٧-٢٠٠٤م / من على موقع شبكة المعلومات السورية القومية الاجتماعية على الشبكة : www.ssnp.info

٦٨- مقالات في الهوية : سليم مطر/ جنيف / ٢٠٠٣ م / من على موقع سليم مطر الشخصي على الشبكة : www.salimater.com

٦٩- مقدمات الهوية الوطنية واشكالياتها : سلافة حجاوي / من على موقع السلطة الوطنية الفلسطينية على الشبكة : www.sis.gov.ps

٧٠- مهرجان الدوحة لمناصرة القرضاوي / ١٨-٢-٢٠٠٥م / من على موقع قناة الجزيرة القضائية على الشبكة : www.aljazeera.net

٧١- النظام العالمي الجديد.. رؤية إسلامية: محمد عمارة /مجلة العربي (الكويت) /العدد (٤٤٣)/١-١٠-١٩٩٥م /من على موقع المجلة على الشبكة: www.alarabimag.net

٧٢- النظام العالمي الجديد والعالم الإسلامي : سعيد بن عبد الله المهيري / مجلة رسالة التقريب / العدد(٢٧) / من على موقع المجلة على الشبكة : www.taghrib.org

٧٣- هوليود في خدمة البيت الأبيض: نجدت لاطه /٢٠-٩-٢٠٠٣م/ من على موقع رابطة أدباء الشام على الشبكة : www.adabasham.org

٧٤- الهوية وتفاعل العروبة والإسلام:محمد خالد عمر/مجلة الفكر السياسي/العدد(١٧)/السنة (٥)/خريف وشتاء٢٠٠٢م/من على موقع المجلة على الشبكة: www.awu-dam.org

٧٥- الهوية وسلطة المثقف في عصر ما بعد الحداثة : شريف يونس/ ٢٢-١٢-٢٠٠٢م / من على الموقع : www.rezgar.com

٧٦- الهوية العربية أسيرة التأريخ : محمد جابر الأنصاري / ٢٣-١٠-٢٠٠٣م / من على موقع صحيفة الحياة على الشبكة : www.darlahyat.com

٧٧- الهوية والعولمة من منظور حق التنوع الثقافي:عبد العزيز بن عثمان التويجري/مجلة رسالة التقريب/العدد(٢٣)/ من على موقع المجلة على الشبكة: www.taghrib.org

٧٨- هويتنا الثقافية في خضم تحولات العولمة .. من الاختراق إلى الممانعة : عبدالعزيز انميرات / مجلة الكلمة / العدد(٢١) / السنة(٥) / خريف

١٩٩٨م / من على موقع المجلة على الشبكة www.kalema.net

٧٩- هويتنا الثقافية نحو تناول نقدي : سالم يفوت / مجلة فكر ونقد / العدد(١١) / من على موقع محمد عابد الجابري الشخصي على الشبكة: www.aljabriabed.org

٨٠- واقع النظام العربي الحالي ..... بين العوامل الداخلية والعوامل الخارجية للتشرذم : ٣-١١-٢٠٠١م / من على موقع جورج قرم الشخصي على الشبكة: www.georgescrom.com

٨١- وثيقة مؤتمر السكان والتنمية .. رؤية شرعية : الحسيني سليمان جاد / سلسلة كتاب الأمّة / قطر/ جمادى الأولى-١٤١٥هـ الموافق١٠- أكتوبر-١٩٩٤م / من على الموقع الخاص بكتاب الأمّة على الشبكة : www.islamweb.net

٨٢- الوحدة الوطنية وهوية الأمّة : محمد عمارة / جريدة الشرق الأوسط /٣١-١-٢٠٠٣م من على الموقع : www.al-eman.com .

د: الندوات والمؤتمرات الفكرية

١- ندوة (التباسات المفاهيم في الفكر الإسلامي المعاصر) وهي ندوة فكرية نظمتها مجلة (قضايا إسلامية معاصرة) الصادرة عن مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد وقد شارك فيها مجموعة من الأكاديميين المتخصصين / العددان (٢٤-٢٥) / صيف وخريف ٢٠٠٣م.

٢- مؤتمر تنصير المسلمين في العالم :

وهو مؤتمر فكري عقد في كولورادو بأمريكا سنة (١٩٧٨م) وحضره (١٥٠) من قادة المبشرين في العالم المسيحي وقد طبعت أعمال المؤتمر ومقرراته تحت إشراف دار (Marc) للنشر في كتاب تحت عنوان (The

Gospel and Islam – ١٩٧٨ Compendium) وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية وطبع في كتاب تحت عنوان (التنصير .. خطة لغزو العالم الإسلامي) وليس عليه اسم المترجم ولا دار النشر ولا تاريخ ومكان الطبع.

٣- ندوة (الدور الحضاري للأمّة المسلمة في عالم الغد) :

وهي ندوة فكرية نظمها مركز البحوث والدراسات في دولة قطر بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع وقد شارك في أعمال هذه الندوة نخبة كبيرة من العلماء والباحثين وقامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر بطباعة ونشر أعمال هذه الندوة في كتاب تحت عنوان (الدور الحضاري للأمّة المسلمة في عالم الغد) / ط(١) / ٢٠٠٠م / وقد اعتمدت فيها على البحوث الآتية :

أ- أزمة الحضارة المعاصرة وسبل معالجتها : سالم احمد محل.

ب- الإسلام والبرود في الغرب : مراد هوفمان.

ت- الإسهام الحضاري للأمّة المسلمة : سعيد عبدالله حارب.

ث- حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لامتنا: يوسف القرضاوي .

٤- ندوة (العرب والعولمة) :

وهي ندوة فكرية نظمها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت بتاريخ ١٨-١٩٩٧/١٢/٢٠م وقد قام المركز بطباعة ونشر أعمال هذه الندوة في كتاب تحت عنوان (العرب والعولمة) / ط(٣) / نيسان ٢٠٠٣م / وقد اعتمدت فيها على البحوث والتعقيبات والمداخلات الآتية:

أ- العرب والعولمة ... ما العمل : محمد الأطرش.

ب- العرب والعولمة.. والعولمة والاقتصاد والتنمية العربية(العرب

والكوكبة): إسماعيل صبري عبد الله .

ت- العولمة والهوية الثقافية .. عشر اطرورحات : محمد عايد الجابري .

ث- العولمة والهوية والثقافية ... عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة : عبدالإله بلقزيز .

ج- العولمة والدولة : جلال أمين .

ح- في مفهوم العولمة : السيد يسين .

خ- تعقيب سيّار الجميل على بحث السيد يسين (في مفهوم العولمة) .

د- تعقيب طلال عتريسي على بحث السيد يسين (في مفهوم العولمة) .

ذ- تعقيب عمرو محي الدين على بحث السيد يسين (في مفهوم العولمة) .

ر- مداخلة جميل مطر ضمن المناقشات التي دارت حول بحث السيد يسين (في مفهوم العولمة) .

٥- ندوة (النظام الدولي الجديد ومخاضاته) :

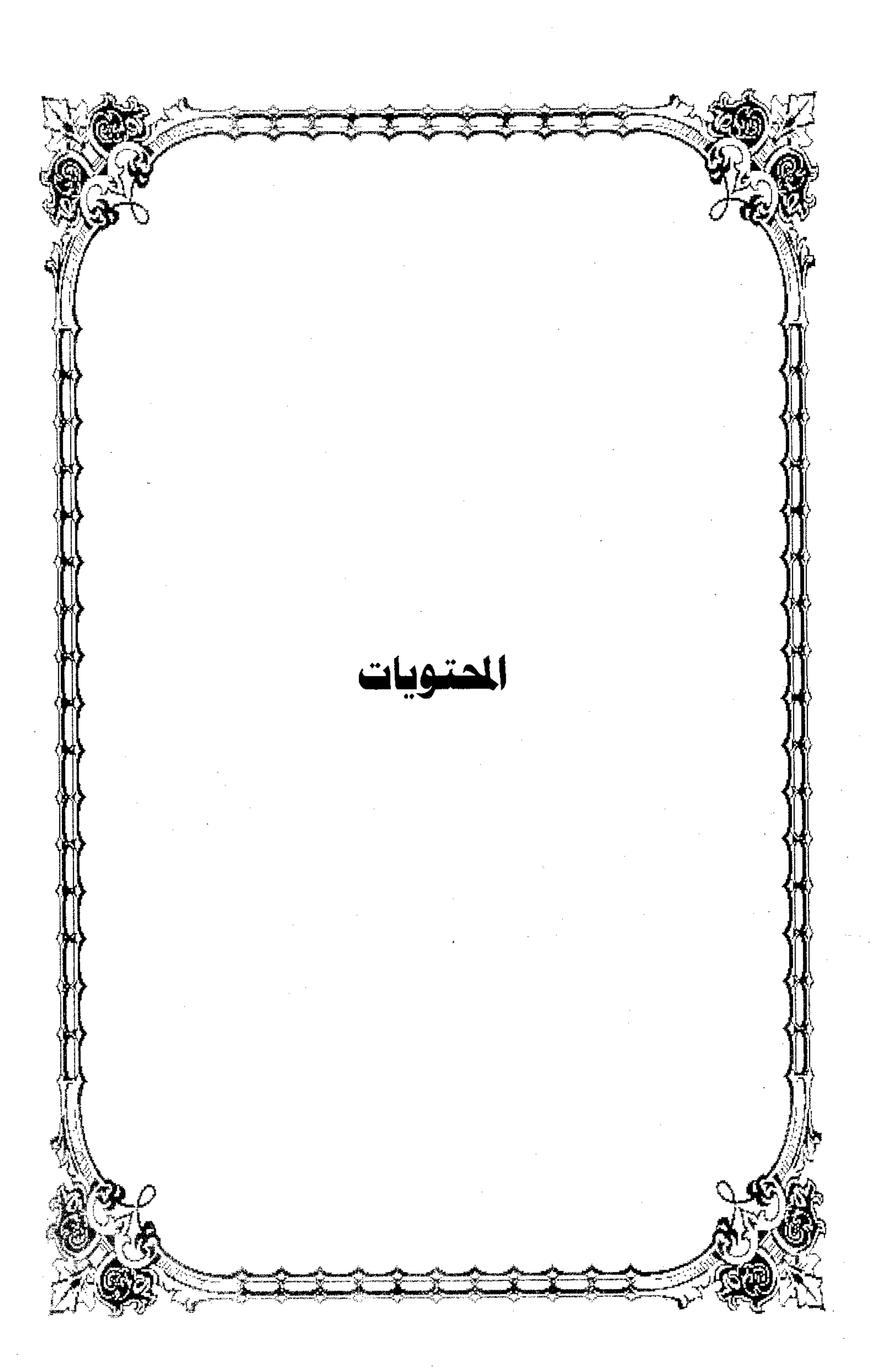
وهي ندوة فكرية عقدتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بالتعاون مع مجلة (آفاق عربية) بتاريخ ١٩٩٢/١٢/١٧ م وقد قامت دار الشؤون الثقافية العامة في بغداد بطباعة ونشر أعمال الندوة في كتاب تحت عنوان (النظام الدولي الجديد – آراء ومواقف) /ط(١)/ ١٩٩٢م وقد اعتمدت فيها على البحوث الآتية :

أ- العالم الثالث والنظام الدولي الجديد : رياض عزيز هادي .

ب- النظام الدولي الجديد وحقوق الإنسان : باسيل يوسف .

ت- النظام الدولي الجديد والقانون الدولي: محمد الدوري .





المحتويات